

الجزء الأول
المجلد الثامن والعشرون



دمشق



١ كانون الثاني سنة ١٩٥٣ م
١٥ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٧٢ هـ

ابرهيم اليازجي

١٢٦٣ — ١٣٢٤ هـ

١٨٤٨ — ١٩٠٦ م

هاجر من حمص أحد أجداد بيت اليازجي سنة ١٦٩٠ ونزل قرية كفرشيما من سواحل بيروت ، وكان أهل هذا البيت على مذهب الروم الأرثوذكس فانتحلوا الكثلكة ودخل بعضهم في خدمة الدولة العثمانية كاتباً فأطلق عليه اسم « يازيجي » أي الكاتب حرفت بعد فصارت يازجي -

ولد ابرهيم في بيروت وظهرت عليه مخايل النجابة في سن العاشرة وكان أبوه الشيخ ناصيف من رجال النهضة العربية الأولى وله مقام عالٍ في الأدب والشعر . وكان لقب الشيخ في لبنان يطلق على الطبقة التي كانت ترتفع عن العامة وتنحط عن طبقة الأمراء .

وتخرج ابرهيم بأبيه في علوم العربية وحفظ القرآن في صباه وأخذ الفقه الحنفي عن الأستاذ محي الدين اليافي وأولع بالرسم والنقش والحفر وامتاز بجمال خطه . وهو الذي نقش بعدُ أمهات حروف مجلتيه البيان والضياء وحروف المطبعة الأدبية وكانت منها حروف معظم المطابع في الشام ومصر :

وتعلم الفرنسية والانكليزية وأخذ بطرف من الألمانية . وقال أحد مريديه في الكلام على اتقانه الفرنسية انه سمعه يقرأ فصولاً استملح عربيتها ثم تبين ان نظره كان يجول في السطور الفرنسية فيلقيها لسانه بالعربية الفصحى .

قال لي المترجم له : لو كان لي الخيار لآثرت أن أكون رساماً مصوراً الا انني رأيت الأجدر بي الانصراف الى خدمة اللغة العربية حتى لا يُغلق

بيتنا بانقراض افراده المعنيين بهذه اللغة فيفوتني شرف خدمتها على ما كان الحظ لأبي في هذه الخدمة ·

انضم الشيخ في أول شبابه الى الجمعية العلمية السورية فألقى فيها الخطب وأنشد القصائد ثم تولى تحرير جريدة النجاح فحبّر المقالات وترسّل ، فكانت هذه الجمعية وهذه الجريدة مدرسته الأولى في البيان والصحافة ·

وعهد اليه الآباء اليسوعيون بتقويم ترجمة الأسفار المقدسة وكانت عربت عن أصلها العبراني واليوناني عدا ثلاث ترجمات عربية كانت أمام من قاموا على تصحيحها ، وكان تعريب المزامير والانجيل مقيداً بترجمة عبد الله زاخر لشهرة نصوصها في المعابد · فقضى الشيخ في هذا العمل ثماني سنين واضطرته معارضة الترجمة على المتن الأصلي الى التبحر في بعض اللغات السامية ولا سيما العبرانية والسريانية وألف في العبرانية كتاب نحو وصرف نسج فيه على منوال النحو العربي وصرفه ·

علّم الشيخ دهراً في المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك في بيروت خلفاً لأبيه فتخرجت به طائفة من الأدباء كانت لهم منزلة رفيعة في الآداب · وفي سنة ١٨٨٤ نشر بالاشتراك مع الدكتورين بشارة زلزل وخليل سعادة مجلة « الطبيب » سنة واحدة ثم هاجر الى مصر فأصدر فيها مجلة « البيان » بالاشتراك مع الدكتور زلزل سنة واحدة ، واستقل بعد ذلك باصدار مجلة « الضياء » وقد اطرد صدورها ثماني سنين حتى سنة وفاته · وكانت من أمتع المجلات العربية بجمال أسلوبها وطلاوة عبارتها وطرافة أبحاثها · وفي الضياء ظهرت شخصيته ، كأن ما كان مضى من حياته العلمية في لبنان قبل أن تصح عزيمته على نشر مجلته في مصر كان دور استعداد تجلى بعده نبوغه على أكمل حالاته ، وما سبق له من نشر آيات علمه وأدبه كان كالمقدمة قدمها بين يدي كتابه الشامل ·

روقي الطيب والبيان والضياء توفر على نشر أبحاث متسلسلة استخرج من بعضها كتباً برأسها مثل «لغة الجرائد» . ومن أبحاثه الممتعة «أمالي لغوية» ، «أغلاط العرب» ، «أغلاط المولدين» ، «اللغة العامية واللغة الفصحى» ، «اللغة والعصر» ، «أغلاط لسان العرب» ، «المجاز» ، «الشعر» ، «التعريب» ، «العلوم عند العرب» الى غير ذلك من المقالات والأبحاث الممتعة . ومن كتبه «نجعة الرائد في المترادف والمتوارد» . ومنها اختصار أو تصحيح بعض كتب والده كمختصر «نار القرى» و «مختصر الجمانة» وشرح ديوان المتنبي سماه «العرف الطيب» . والى ذلك يشير في آخر هذا الديوان اشارة تنم عن بر بوالده قال : «وانا أبقيت عنوان الشرح باسمه ـ باسم أبيه ـ رعاية لكونه هو واضع الأصل فلم أوثر ان أتطفل عليه في نسبة الكتاب ، وان تطفلت عليه في التأليف . واني لأرجو ان يكون قد وهبني الله السلامة في ذلك كله ، وأنزلني من هذا الشرح منزلة توجب استدرار الرحمة على واضعه ، ولا تكون مدرجة لنقص يزري به بأن أمر عليه تبعة تلزمني دونه او ينسب اليَّ بفضل هو أحق به مني . ومعاذ الله أن أدعي لنفسي في جنبه فضلاً أو علماً فانما أنا احتذيت بمثاله واقتديت بآثاره ، واني لا علم لي الا ما علمني» .

وصحح الشيخ كتباً كثيرة ومنها «تاريخ بابل وأشور» و «نفح الأزهار» و «دليل الهائم» و «نخب الملح» و «العقود الدرية» في شرح شواهد المختصر و «رسالة الغفران» للمعري و «الفرائد الدرية» وهو معجم عربي فرنسي . وتقد القسم الذي ترجمه باربيه دي مينار من مستعربي الفرنسيس من كتاب «مروج الذهب» للمسعودي كما نقد تكملة المعجمات العربية لدوزي . ومعجم «محيط المحيط» للبستاني وسماه الحواشي ، ومعجم «أقرب الموارد» للشرتوني ، و «الدرة اليتيمة» لشكيب أرسلان ، وناقش أرباب المقتطف فيما وقع لهم من الأغلاط وغير ذلك .

وصرف شطراً من حياته في تأليف معجم سماه « الفرائد الحسان من قلائد اللسان » قال انه شرع في وضعه مقتصراً على الفصيح دون المولد والمحدث في الاصطلاح لأنه رآهما طرفين لا يلتقيان ولا تؤلف منهما حلقتا بطان ، فضلاً عما يقتضي بحث الطارئ من التجرد والجهد ، واخلاء الذرع للبلوغ الى باحة القصد ، فلا بد من افراد هذا القسم في كتاب مخصوص يحاط به بعد مراجعة الكتاب والنصوص قال : وقد وضعت الكتاب على نسق لم أكن متابعاً فيه ولا مقلداً ، ولا متحدياً عن سبقني أحداً . فاني اعتبرت فيه جانب المعاني في كل مادة فقدمت منها ما حسبته الأصل في ذلك التركيب ثم ألحقت به ما تفرع عنه من طريق المجاز الأقرب بالأقرب الى أن تنقطع سلسلة الترتيب ، وما بقي بعد ذلك مقتضباً من ذلك النظام ذيلته في آخر المادة وضمنته المشهور من الأعلام ، وكل ذلك على أسلوب مختصر اطرحت فيه الوحشي من اللفظ والمهجور في استعمال الفصحاء . وتجنبت ما يستحى منه من ألفاظ السوءات ، وما يضاف اليها مما تبذأه نفوس الأدباء ، وكنت قد بلغت في تسويده الى آخر حرف الحاء المهملة مما يقدر بالربع أو يزيد اه .

أولع الشيخ ببلاغة القرآن . حدثني تلميذه صديقي خليل مطران الشاعر انه كثيراً ما كان يقول لتلاميذه اذا تصدوا للكتابة ونشر المقالات أن يستشهدوا بآيات القرآن ليكون بها رونق لما يكتبون ، أو ما هذا معناه . فمن كان هذا اعتقاده لا يعقل أن يطعن ببلاغة الكتاب العزيز وفصاحته على ما اتهمه بذلك بعض الطوائف من أنه عارض القرآن وحط من شأنه في رسالة له نحلته اياها وما هي الا من أقلام بعض دعاتهم .

وكان أعداء الشيخ من الفريق الذي أسلام الشيخ ثار نقده مثل صاحبي المقتطف وسعيد الشرتوني وشكيب أرسلان وجماعة اليسوعيين ، وعلى مطبوعات

هؤلاء حمل حملة شعواء وكثيراً ما عمد في حوارهم الى السخرية وربما انتهى بعض هذه المناقشات بالمهاترة أحياناً وأدى بعضها الى ما كان يود أحباب الشيخ لو تصوّن عنها . وقيل ان الشيخ كان ينشر أشياء باسم بعض تلاميذه أو باسماء مستعارة غيرهم فيما لا يريد أن ينسب اليه . وهذا أيضاً لا يخليه من تبعة خصوصاً وهو في بعده عن اللغو والتحلي بالفضائل النفسية المثل الأعلى . بيد أنه جُبِل على حب المطارحات والمناظرات وبها تجلت ملكته في البيان هذا التجلي الرائع ، اذا أريد التنظير بين كلامه وكلام معاصريه وفي المناقشة التي دارت بينه وبين العلامة احمد فارس كان أكثر اعتدالاً مع أنه كان شاباً وخصمه كان شيخاً .

كان الشيخ يألم ممن يرتكب غلطاً لغوياً ألمه ممن يسيء اليه مباشرة فما كان يغفل عن نقد معظم ما كان يهدى اليه من الكتب الجديدة لتقريظه والتنويه بصاحبه ، وكل ذلك حتى لا يعبث باللغة عابث و « كان أقصى أمانيه أن يعيد الى اللغة بهجتها الأولى ويرد الناشئة من كتاب العصر الى النهج القويم من الاحتفاظ بقواعدها وأصولها المقررة في أمهات المعاجم ، وكتب البلاغة المعروفة بصحة التعبير وفصاحة الألفاظ ، والا يعدل الى المولد الدخيل الا بعد طول البحث والتنقيب ، واجماع أهل العلم الواسع من المحققين ، وبعد اليأس من الوقوع على الفصيح الأصيل . »

ومما كان يحزنه ان اللغة لا تفي بمطالب العلم في هذا العصر ولذلك وضع ألفاظاً لمسميات افرنجية سرى بعضها على أسلات أقلام الكتاب والصحافيين في حياته ، وعرّب بعض المصطلحات تعريباً صحيحاً ولو طال به الأجل لاستكثر من كل ما يفيد اللسان العربي حتى يداني بمادته العلمية لغات العلم عند الافرنج ويؤدي على أيسر وجه معاني الألفاظ الجاري استعمالها في العلم والاجتماع والفن والصناعة .

قال لي مرة وأنا أسأله رأيه في اللغة العصرية : اني مغتبط بأن الامة علت بلهجتها ، وقلّ فيها الابتذال الذي كان لها أول نهضتها ، وبتخللها الآن من الفصيح

ما لم يكن يعهد فيها في عصور الانحطاط · وكيف لا يفرح لسمو اللغة وهو من أول العارفين بجرس الألفاظ ورنتها وخفتها وثقلها، وادراك أجدر المواضع باستعمالها · درج حياته على تصفح كتب البلغاء والتقاط ألفاظها وتراكيبها الجميلة يتمثلها ويدمج في تضاعيف كلامه ما تقتضي الصناعة بادماجه ، يقرنها الى أمثالها مما وعاه صدره ، وبهذا ارتفعت كتابته عن كتابة غيره اذ توفرت لها المادة والقوالب وعرف أساليب الكتاب على إختلاف العصور فبعد عن مستوى غيره · يعين على ذلك ذوق سام جمع بين أدب الافرنج والعرب · هذا وهو لم يعالج من فنون الانشاء الا ما أخذ من نفسه ، ولا تتعلق همته على الأكثر بغير الموضوعات الأدبية والتاريخية القريبة المأخذ مما لا يتحامى تفهمه على من شدوا شيئاً من الآداب ·

كانت مجلة «الضياء» كتابه الأم حفلت بالفوائد الأدبيـة واللغوية حتى ليستخرج منها عدة كتب ، ومن أهم ما ينتزع منها مجموعة جميلة من نقده الأدبي وتخرياته · يستخرج منها أسفار نافعة حري بالناشئة أن تجعلها سمرها في خلوتها وتتخذها أصولاً للبلاغة · وفي مجلته هذه يتمثل لعينيك جهده في انشائها وتوفره على اتقان أبحاثها حتى لقد صدته عن النظر في سائر مؤلفاته ومنهـا معجمه ، ويبدو لناظرك ان صاحبها قد نقى اللغة وغربلها وطحنها ونخلها وعجنها وخبزها فجاء منها بكل لقمة كريمة وحلواء لذيذة ·

وكان باب النقد مما يحبب مجلة الضياء الى القراء ذلك لأنه كان على مثل اليقين ان أبحاثها لا تخلو من جفاف كان يداويه بشيء من الفكاهات والأقاصيص يكتبها له أهل هذا الشأن من تعريبهم او تأليفهم · والناس أميل الى تلقف ما يسليهم منهم الى الجنوح الى ما يتعلمون منه ، ولو بحصر أذهانهم دقائق معدودة ؛ والبحث في الآداب مما يثقل على السواد الأعظم وهم لا عهد لهم بالنظر في هذه الأبحاث ويعدونها من الأبحاث الجامدة ·

وكانت الضياء تبرز الى قرائها في حلة لبنانية بروحها وموضوعها . اذا قرأها القارئ تراءى له انها تكتب في لبنان وتطبع في مصر . وترى منشئها فيها وقد التف حوله تلاميذه وذوو قرباه ومواطنوه من الشاميين يؤازرونه في انشاء مجلته فيما يتقنون من الموضوعات فلا يكاد المتأمل يقع بينهم على كثير من النابهين المصريين ينشرون أبحاثهم في مجلته . ولعلّ العلة في ذلك ابتعاد الشيخ عن الاختلاط بالناس ، فأكثر الشاميين في مصر يعيشون بين الجالية السورية لا يمتزجون بالمصريين كثيراً . على انه يندر يومئذ في المصريين رجال من الطراز الذي تعجب صاحب المجلة كتابته وبحثه .

لم ينصرف الشيخ الى الشعر انصرافه للنثر ولذلك يعد من المقلين منه ، استخدمه في أغراض اجتماعية على الأغلب ، كأن يذكر العرب بمجدهم او يدعو القوم الى كسر قيود الاستبداد وتطلب الحياة الحرة والقضاء على من وقفوا عثرة في سبيل نهوض العرب وكانوا سبباً في تدنيه وخموله .

فمن شعره في هذه المعاني :

وما العرب الكرام سوى نصال ... لها في أجفن العليا مقام

لعمرك نحن مصدر كل فضل ... وعن آثارنا أخذ الأنام

ونحن أولو المآثر من قديم ... وان جحدت مآثرنا اللئام

فقد علم العراق لنا قديماً ... أيادي ليس تنكرها الشآم

وفي أرض الحجاز لنا فيوض ... يسيل لها الى اليمن انسجام

وفوق الأندلس لنا بنود ... لهامات النجوم بها اعتمام

وسل في الغرب عن آثار فخر ... لها في جبهة الزمن ارتسام

وله السينية المشهورة ومطلعها :

دع مجلس الغيد الأوانس ... وهوى لواحظها النواعس

الى أن يقول :

فالشر كل الشر ما بين العمائم والقلانس
والخير كل الخير في هدم الجوامع والكنائس
ما هم رجال الله فيكم بل هم القوم الأبالس
يمشون بين ظهوركم تحت الطيالس والقلانس
أيُّ النعيم لمن يبيتُ على بساط الذل جالس
ولمن تراه بائساً أبداً لذيل الترك «بائس»
ولمن أزمته بكف عداه يظلم وهو آيس
ولمن تباح حقوقه ودماؤه بيع الخسائس
ولمن يرى أوطانه خِرَباً كأطلالٍ دوارس

وقال في الترك :

فالترك قوم لا يفوز لديهم الا المشاكس
أولستم العرب الكرام ومن هم الشم المعاطس
فاستوقدوا لقتالهم ناراً تروّع كل قابس
عمت قبائحهم فأضحت لا تحيق بها النهارس
حال بها طاب التبسم للوغى والموت عابس
وحلا بها سفك الدما وسفكها للجور حابس

ومثلها قصيدته :

تنبهوا واستفيقوا أيها العربُ فقد طما الخطب حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالآمال تخدعكم وأنتم بين راحات القنا سلب
كم تظلمون ولستم تشكون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضب

ثم يعرض بحكام تلك الأيام فيقول :

سلاحهم في وجوه القوم مكرهم وخير جندهم التدليس والكذب
لا يستقيم لهم عهد اذا عقدوا ولا يصح لهم وعد اذا ضربوا
بالله يا قومنا هبوا لشأنكم فكم تناديكم الأسفار والخطب .
ألستم من سطوا في الأرض واقتحموا شرقاً وغرباً وعزوا أينما ذهبوا
فمالكم ويحكم أصبحتم هملاً ووجه عزكم بالهون منتقب .
لا دولة لكم يشتد أزركم بها ولا ناصر للخطب ينتدب
أقداركم في عيون الترك نازلة وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

وأظن هذه القصيدة هي التي اتهم بها أحد الأدباء يومئذ وحبس بها سنة كما قال لي الشيخ رحمه الله . وهذه القصائد تنادي بأنه كان حراً يدعو الى الحرية وعربياً يبكي لمجد العرب ويحاول أن ينزعوا من ربقتهم حكم العثمانيين وينجوا من الاستعباد . وهو ما كان يطيب له ادعاء هذه القصائد لأن قصده مجرد عن الغاية فلا يطمع في الظهور والتمجد . ولو ظهر عليه أدنى أثر من الانكار على الدولة لناله من العقوبات أفظعها فهو بعقله وحيطته يتقيهم ولا يرتكب مالا يرضيهم على ما كان يتقي أهل بيئته ، وبيئته كانت جد متعصبة جامدة ، وكنت تلمح حرية فكره تلمع أشعتها من خلال ما ينشره ويتجلى للناقد البصير أنه معلم حكيم يرمي الى تهذيب النفوس بكل مالديه من الذرائع ، ويحاول اخراج أمته الى طريق سليم ليدخلها في غمار الأمم الناهضة وهو الذي يعرف مبلغ أمته من معاونته ومعاونة أمثاله ولذلك لم يجاهر بدعوته لأن الأمة خلت من هذه المعاني وما كانت تفكر الا في الساعة التي هي فيها .

وما سلم الشيخ من عيوب الشعراء المتأخرين فقد كان أصحابه وجيرانه وأهله يريدونه على أن ينظم تواريخ لأضرحة موتاهم ، وكان يرجى ألا يقبل اضاعة

وقته في مثل هذه المنظومات ومنها المدح والرثاء ، وما كان الحامل له على نظمها الا ارادة التخلص من تعجيز المعجزين وقد اعتاد الناس ألا يرضوا عن الشاعر الا اذا مدح أحياءهم ورثى موتاهم . وقد أثرت له رسائل لك أن تدعوها من جنس الاخوانيات كان يبعث بها الى أحبابه أو الى ارباب الوجاهة لدفع مغرم وجلب مغنم لمن يتوسطه ، يكتبها من حاضر الوقت لا يتعمل فيها ، وأكثرها مسجوع اذا تلوتها تراءى لك انه ينسج فيها على منوال الهمذاني والخوارزمي والصاحب . ومن شعره الجميل يذكر حمص منبت أجداده :

وسقى الله أرض حمص وحيت نفحات الرضا خصيب ثراها
هي فردوسي القديم ومنها ثمرات الحياة كان جناها

ومنه :

ليس الرقيعة من شأني فان عرضت أعرضت عنها بوجه بالحياء ندي
اني أضن بعرضي أن يلم به غيري فهل أتولى خرقه بيدي

وقال في ساعة دقاقة :

ومحصية أعمارنا كلما انقضت لنا ساعة دقت لها جرس الحزن
فيابنت هذا الدهر مرت بسيره فهل أنت دون الناس منه على أمن

وقال في عود الطرب :

وعود صفا الندمان قدماً بظله وما برحت تصفو لديه المجالس
تعشقه طير الأراكة أخضراً وحن اليه ريشه وهو يابس

وقال في بعلبك :

يابعلبك غريبة الأزمان والعهد والصناع والبنيان
لم تبلك الأيام في حدثانها الا لتظهر قدرة الرحمن

وقال :

تعجب قوم من تأخر حالنا ولا عجب في حالنا ان تأخرا
فمذ أصبحت أذنابنا وهي أرؤس غدونا بحكم الطبع نمشي الى الورا

وقال في الحكم :

حياة أمرئ العيش فيها مذمم وناس بها قلب الخلي متيم
سقت كل قلب كل يوم مشاربا توهم فيها لذة وهي علقم
وما الأرض الا قفرة زأرت بها أسود المنايا حولنا وهي حوم
لنا كل يوم بيننا كل منذر ينادي علينا مسمعا وهو أبكم
تنبهنا بعضا بعض فتنثني وأجفاننا في غفلة اللهو نوم
خلت دونها شم الحصون فلم تكن لساكنها من غارة البين تعصم
وأصبح من قد كان يرهب بأسه يناح عليه بعد حين ويرحم
تراب من الأرض استوى تحت صورة تلوح عليها مدة ثم تهدم
اذا ما دفعنا للبلية مرة ولم تنتفع بالحزن فالصبر أحزم
جرى قدر المولى بما شاء واستوى لديه جزوع في الأسى ومسلم
وليس لنا من مطمع فات نيله اذا كان ما نبغيه ما ليس يتم
وما كان ما لا بد منه مؤخرا يهون لديه الرزء وهو مقدم
وما الفرق في الحالين الا هنيهة تمر سريعا والقضا متحتم

ومن قوله في الحكم أيضا :

وانما نحن في دار اذا اعتبرت ليست سوى مأتم ناحت به البشر
في كل يوم أناس فوقها نجموا على أناس طوتهم تحتها الحفر
بئس الحياة التي ما زال واردها يمازج الورد في كاساته الصدر
حالان احداهما مملوءة حذرا مما يليها وأخرى فاتها الحذر

قال في مصير الأرض من مقالة :

واعتبر ذلك في الأرض وما يؤلف أديمها من الجواهر ، ويشتمل عليه جوها من العناصر ، وما يعيش عليها من النبات القائم في الصحراء ، والحيوان السارح على وجه الغبراء ، والسابح في لجتي الماء والهواء ، تجد هناك سلسلة يتصل أعلاها بأسفلها ، ويتحول بعضها الى بعض حتى يرتد آخرها الى أولها ، بل ترى الأرض نفسها عرضةً للطبيعة تغزوها بالسيول الجوارف والرياح النواسف ، والأمواج التي تهاجم ثغورها والزلازل التي تصدع صخورها ، متعاقبة عليها ما تعاقب الليل والنهار ، الى ان يأتي يوم تمحل فيه الجبال ، وترسب في درك البحار ، ثم لا تزال المياه تسحل وجه الأرض حتى لا يبقى فيه أمت ولا انحناء ، وحتى يغمرها الماء من كل ناحية وقد عاد سطحها مستوياً تحت الماء كاستواء سطح الماء ، فعادت كما كانت في اول خلقها ماء غامر وكون بائر ، قد خلا من عالمي البر والهواء ، ولم يبق فيه من ذوات الحياة الا عالم الماء .

«هذا اذا لم تصب الأرض قبل ذلك بالهرم ، وينضب ماؤها بعد خمود ما في باطنها من الضرم ، ولم تتشرب هواءها فلا يتنفسه بعد ذلك نبات ولا حيوان ، ولا يجد ذو جناح ما يعتمد عليه جناحه في الطيران ، على حد ماتم ذلك في القمر حتى لم يبق فيه وشل لمرتاد ، وحتى تجرد من ثوب هوائه او كاد ، وحتى اصبح قفراً هامداً لا ينبت عليه شجر ، ولا يتنفس فيه دابة ولا بشر . بل لو بقي هواء الأرض وهو خال من بخار الماء لجمد البر وسطحها تجميداً ، وانقبض الأحياء من وجهه حيث يقع شعاع الشمس عموداً . ثم لا يزال باطهم يزداد ضيقاً على توالي الحقب ، الى ان تموت آخر عشيرة منهم بالبرد والسغب ، فتدفنها الثلوج حيث لا تنكشف رممها الا يوم التلاقي . وتخط يد القضاء على أديم الأرض سبحان الحي الباقي .

« وهذا اذا لم تهرم الشمس فتقلب نارها برداً ، ولكنه برد بغير سلام ، فتهيم السيارات والأقمار من حولها في فضاء من الزمهرير والظلام ، ويومئذ لا يبزغ الصباح فيذهب آفاق المشرق ولا يقبل الماء فيخيم على أرجائه بجيشه المطبق ، ولا يكون اذ ذاك كسوف ولا خسوف ، ولا تبدو القبة الزرقاء بلونها المألوف ، ولكنها تلتحف السواد حداداً على عالمها بالأمس ، وقد التف بكفن من الثلج فآوته منها الى مثل ظلمة الرمس . ويومئذ تجمد البحار فلا يكون موج يتنفس ، ولا سحاب ينبجس ، ولا سيل يتدفق ، ولا جدول يترقرق . وتركد حركة الهواء ، فلا تهب شمال ولا صبا ، ولا تجري نسمة على الوهاد والربى . وأنى والشمس مصدر الحركة في العوالم ، وقوام الحياة لكل قائم ، فاذا هبت الريح فالشمس هي التي تهب ، واذا دبت النسم فالشمس هي التي تدب ، واذا انتشر الغمام فهي التي تنتشر ، واذا انهمرت الغيوث فهي التي تنهمر ، ألا وهي الشمس التي تجري في الأنهار ، وهي التي تغرد في الأطيار ، وهي التي تزهر في الرياض ، وهي التي يسمع حفيفها في الغياض ، وعلى الجملة فالشمس هي روح الكائنات وفؤادها ، واذا ماتت الأفئدة فمحال أن تعيش أجسادها . اهـ .

وبعد فلم ينبغ لبنان أكتب من الشيخ فيما أعتقد ولا أجزل حظاً منه في علوم البيان وندر أن كلت لغيره ما كمل له من عبقرية صقلتها العناية أي صقل ومن قام بواجبه في خدمة اللغة وسلك كل طريق نافع في غرضه . فقد قال فيه الأستاذ الامام محمد عبده انه أكتب من اديب بكثير- بل هو أكتب المعاصرين فيما أرى . وناهيك بها من شهادة . وقال فيه الأستاذ شيخو ان كلامه يظهر لقارئه كأنه المرآة الصقيلة أو الماء الزلال ، فكان لا يزال يردد النظر فيما كتب وينقحه مراراً حتى يخرجه كالبرد القشيب والخميلة الناعمة .

وقال الأستاذ عبود « ان انشاء الشيخ ليس بالانشاء المتق العالي اذا استثنينا صدر مقالتي الزهرة والقمر وفيهما ظهر أنه ناثر فني من الطراز الأول فخياله

طريف فيها وسجعه أنيق ظريف ، كأنه الشعر أو فوق الكثير من الشعر ، وقد كتب جل نثره بأسلوب العلماء والمؤرخين والكتاب الاجتماعيين ، وتضلعه من اللغة وادراكه أسرارها أدى به الى العدول عن المجاز ، وله فضل على النهضة بتعابيره الصحيحة ، وكان له أبعد الأثر في توجيه كتاب النهضة نحو الكلام الصحيح السليم ، ولئن كان في انشائه جفاف أساليب العلماء فلا تنس ان فيه صحة وشدة أسر » .

كان سمت الشيخ سمت العلماء وكان على جانب عظيم من الوقار تقرأ في طلعته جلال العلم وجمال الأدب وتحس في كلامه كأنك في مجلس فنان أفنى أيامه في التحقيق والتدقيق : عقل عالم ، وحكمة حكيم ، وعين فنان ، وذوق شاعر .

كان الشيخ مأخوذاً بعلمه مخلصاً له ، لم يتعلق من الحياة بغير المعنويات ، دار حياته في دائرة ما حدثته نفسه أن يتخطاها قيد أنملة فلم يخرج فيها عن نشر العلم والآداب ، وخدم لغة القرآن خدمةً لم يوفق الى أكثر منها أكبر علماء الاسلام ، وعاش مقلاً متقشفاً لم يطرق أبواب الملوك ولا رجال المال ليستعين بهم على ما يضطلع به ، ومع أنه سبق للدولة المصرية قبله أن عاونت اللبنانيين العظيمين بطرس البستاني واحمد فارس الشدياق من رجال النهضة الأولى فهو لم يجد من حكومة مصر العربية عوناً وغفل أغنياء المصريين والشاميين عن الأخذ بيده . وكان يشير في الأحايين الى هذا النقص في أخلاق الأمة ويردد ان الأغنياء وارباب الشأن بمعزل عن نشدان المطالب العالية والمشاركة في الأمور النافعة .

عاش الشيخ عزيز النفس وما أسف الى ما أسف أكثر علماء عصره ومات لم يتزوج ولم يعرف سعادة البيوت وعطف الولد . ومن أغرب ما يسجل أن

حكومة لبنان اقترحت عليه أن توليه « قائم مقام » على زحلة وهو عمل يقوم به بعض تلاميذه على أنه لم يخلق للادارة ولا للسياسة . وكافأته الجالية السورية في البرازيل بعد وفاته بأن صنعت له تمثالاً نصبته بيروت في احدى ساحاتها .

قلت فيه يوم نعيته في جريدة « المؤيد » : قضى حياة المتعلم والمعلم والعالم على أكمل وجوهها ، وبرز خاصة في علوم العربية على أقرانه فعد من آحاد زمانه . نشأ في بيت كان ربه يتغنى ليله ونهاره بالشعر والأدب فشب وشاب فيما نشأ عليه وأنشئ له . وناهيك بمن يرضع اللغة من صغره ويعاني الأدب في جميع أدواره ، لا يصل الى سمعه غيره ولا تقع عينه على ما سواه والجميع مستحسن له ومصدق ومؤمن على أقواله ومصدق ... ولا بد لمن يتمحض للانتقاد أن يلاقي ما لقي الشيخ اليازجي فيصاب ويصيب . والناس لم يألفوا الانتقاد وأكثر المتقدمين يعدون الانتقاد ثلماً لشرفهم واسقاطاً لأقدارهم ، والناقد كيفما كانت الحال لا تصفو له القلوب » .

محمد كرد علي

تعريب الاصطلاحات العلمية

اللغة العربية من أغنى اللغات، وأوسعها اشتقاقاً، وأدقها تعبيراً؛ صقلتها القرائح والعقول في الماضي بضعة عشر قرناً حتى جعلتها لغة الشعر والخطابة، واصطنعها العلماء في مفردات الطب والكيمياء والرياضيات والفلسفة حتى جعلوها لغة العلم والثقافة .

والسبب في اتساع اللغة العربية لجميع الاصطلاحات العلمية انها لغة غنية كثيرة المرونة، لطيفة المخارج، فيها ألفاظ متباينة، ومتفقة، ومترادفة، ومشتقة [1] . وربما وجدت فيها أيضاً ألفاظ مختلفة دالة على معان متقاربة، وان كانت أشخاص تلك المعاني مختلفة، وربما دلت على أحوال مختلفة ولكنها مع اختلافها هي لشخص واحد .

ولكن هذه المرونة في دلالة الألفاظ على فائدتها لا تخلو في بعض الأحيان من الالتباس والاشكال، ولا من الغلط والخطأ في التعبير . لأن الأصل في الكلام هو أن تختلف الألفاظ بحسب اختلاف المعاني . ومن حق المعنى كما قال الجاحظ أن يكون الاسم له طبقاً، وأن لا يكون له فاضلاً ولا مفضولاً، ولا مقصراً ولا مشتركاً ولا مضمناً [2] .

ولكن العلماء الذين أخذوا في عشرات السنين الأخيرة يدونون علوم العصر، وينقلونها من اللغات الأوربية الى اللغة العربية لم يتقيدوا بهذا الأصل الذي

(١) المتباينة هي التي تختلف باختلاف المعاني، والمتفقة هي التي تتفق فيها ألفاظ واحدة بعينها ومعانيها مختلفة، والمترادفة هي التي تختلف ألفاظها ومعانيها واحدة .

(٢) البيان والتبيين، الجزء الأول، ص : ٧٥ .

قدمناه ، بل مالوا الى استعمال الألفاظ المترادفة للدلالة على المعنى الواحد ، أو الى استعمال اللفظ الواحد للدلالة على المعاني المختلفة . فعرض لهم من الخلاف في المعاني ما عرض للشعراء والخطباء وأصحاب السجع من استعمال الألفاظ المترادفة والمتواطئة ، وان كانت متباينة بالحقيقة . فأدى فعلهم هذا الى الالباس والاشكال ، والى كثير من الغلط والخطأ . مع انه كان ينبغي لهم اذا وجدوا ألفاظاً مختلفةً متقاربة المعاني أن ينظروا فيها ويبحثوا عن السبب في اختلافها ليضعوا لكل معنى لفظاً مطابقاً له ، الا أنهم قلدوا في ذلك البلغاء والشعراء والخطباء فجاءت اصطلاحاتهم كثيرة الغموض وعلومهم قليلة الوضوح والضبط .

والدليل البين على ان الأمر على ما ذكرناه ان الشخص الواحد يستعمل للدلالة على المعنى الواحد ألفاظاً مختلفة فيترجم كلمة (Déduction) تارة بالاستدلال وأخرى بالاستنتاج أو الاستنباط ، ويستعمل اللفظ الواحد للدلالة على المعاني المختلفة فيترجم كلمات (Intelligence) و (Raison) ، و (Bon sens) كلها بكلمة عقل .

واذا كان الشخص الواحد لا يتقيد هو نفسه بالاصطلاحات التي اختارها ، فما بالك بالمترجمين الآخرين الذين قد يوافقونه على اختياره أو يخالفونه ويخالفون أنفسهم ؟ وما بالك بالقارئ الذي يجهل اللغة الأجنبية ، هل يفهم ما يقوله هؤلاء وما يكتبونه ؟

ان مدار الأمر والغاية التي يجري اليها الكاتب والقارئ ، انما هو الفهم والافهام . فاذا كانت معاني الألفاظ تختلف باختلاف القائل والسامع فكيف تتضح ، وكيف تفهم ؟ ان التفاهم بألفاظ متبدلة المعاني أصعب من التعامل بنقود متبدلة القيم ، فلا بد للعلماء اذن من الاتفاق على معاني الألفاظ ، ولا بد لهم أيضاً من تثبيت الاصطلاحات العلمية حتى لا تتبدل الحقائق بتبدل الألفاظ التي أفرغت فيها . ان الألفاظ حصون المعاني وتثبيت الاصطلاحات العلمية

هو الحجر الأساسي في بناء العلم ، فاذا أقيم هذا البناء على أساس متحرك لم يبلغ الغاية التي أنشئ من أجلها .

على أنه قد يقال ان الأساس في العلم هو الكشف عن الحقائق ، وان الحقيقة اذا كشفت فبأي لغة بلغت الافهام فذلك هو البيان المطلوب . ولكن هذا القول يهمل ناحية أساسية من الاصطلاحات العلمية وهي ان السبب الذي من أجله احتيج الى وضعها لا يقتصر على الافهام وحده . لأن العالم بالشيء يفهمه مها تكن اللغة التي تستعملها في تفهيمه اياه ركيكة ومضطربة . ولكن تثبيت الاصطلاحات العلمية لا يفيد العلماء الاخصائيين وحدهم بل يفيد المعلمين والمتعلمين كما يفيد جمهور القراء . فله اذن فائدة في التربية ، وفائدة اجتماعية معاً .

أما الفائدة في التربية فهي ان تثبيت الاصطلاحات يستلزم تحديد معاني الألفاظ وتوضيحها ، فلا يستعمل اللفظ الا فيما وضع له ، ولا يدل على المعنى الواحد الا بلفظ واحد . وفي ذلك تيسير لعمل المعلمين والمتعلمين معاً . لأن المعاني اذا كانت محددة ، سهل على المعلم شرحها وعلى المتعلم فهمها . وكذلك الألفاظ اذا كانت مطابقة للمعاني صار استعمالها أدق ووضوحها أتم . وقد عرفنا بالتجربة أن التلاميذ الذين يقرأون النصوص الفلسفية دون أن نشرح لهم اصطلاحاتها يضيعون زماناً طويلاً في تفهم ما يقرأون دون أن يصلوا الى نتيجة . وكثيراً ما يورثهم هذا الأمر كرهاً للفلسفة وعجزاً عن النجاح في الامتحان . حتى ان بعضهم وان نجح في خوصه يعتاد استعمال الألفاظ الفارغة فيردد ما قرأه كالببغاء أو يلوكه كما يلوك الطفل طعامه . وهذه العقول الببغائية التي تردد الألفاظ الفارغة تعجز في مستقبل حياتها الفكرية عن الانتاج العلمي . وربما كانت تمارين الترجمة التي تقتضي مراجعة معاني الألفاظ في المعاجم العلمية والفلسفية خير وسيلة لشفاء هذه العقول من الببغائية الفكرية ، لأنها تمنعها من استعمال ألفاظ لم تتضح معانيها ، وتعودها الدقة في التعبير ، والمطابقة بين المعنى واللفظ ، فلا يكون أحدهما زائداً على الآخر .

وأما الفائدة الاجتماعية فهي ان تحديد معاني الألفاظ يسهل على الناس التفاهم فيما بينهم ، فلا يتكلمون بما لا يعلمون ، ولا يمارون فيما لم يتضح لهم من المعاني . ان معظم الاختلافات في الآراء السياسية والاجتماعية يرجع الى أن الناس لم يحددوا معاني الألفاظ التي يجادلون فيها . فالحرية والعدل والمساواة لا تدل على معان واحدة عند الاشتراكيين والمموِّلين ، وكذلك الحق والواجب والخير والكرامة وغيرها . فاذا أردت أن تحسم الخلاف بين الناس ، وتحقق التفاهم بين أصحاب المذاهب المتباينة فابدأ أولاً بتحديد هذه المعاني تحديداً علمياً واضحاً . ان هذا التحديد يقرب الآراء بعضها من بعض ويبطل أسباب الخلاف ، ويوفر على الناس كثيراً من الجهد والوقت .

وربما كانت الألفاظ التي يستعملها المترجمون المحدثون أكثر الألفاظ احتياجاً الى هذا التحديد ، لأنهم ـ كما قلنا ـ لا يطلقون على المعنى الواحد لفظاً واحداً . مثال ذلك ان بعضهم يترجم كلمة (Intuition) بكلمة حدس ويترجمها الآخر بالبداهة أو الاكتناه ، أو الاستبصار ، وكذلك كلمة (Conscience) بعضهم يترجمها بالشعور وبعضهم يترجمها بالوعي . فاذا استمر الأمر على هذه الحال أدى الى كثير من الفوضى والاضطراب ، لأن النقلة ، اذا لم يوحدوا اصطلاحاتهم عجزوا هم أنفسهم عن فهم ما ترجموه . ولا يكفي أن تتطور الاصطلاحات العلمية تطوراً عفوياً حتى تصل الى الوحدة ، لأن التطور العفوي قد يؤدي الى الاحتفاظ بألفاظ كثيرة للدلالة على معنى واحد ، واذا أدى الى انتصار لفظ على غيره لم يكن هذا اللفظ الفائز في المعركة أحسن الألفاظ دائماً . فلا بدَّ اذن من توجيه هذا التطور حتى يبلغ غايته . والوسيلة الوحيدة للتوجيه الصحيح تقتضي انشاء مجمع علمي واحد ينتقي من الاصطلاحات التي اهتدى اليها النقلة الاختصائيون اصطلاحاً واحداً يثبته ويحله حظيرة اللغة ، لا أن يضع هو نفسه اصطلاحاً علمياً جديداً . ذلك لأنه ليس من شأن المجامع العلمية ان تضع

الاصطلاحات وانما هي بمثابة عضو رئيسي في جسم العلم، ينقح ما يكشفه العلماء، ويمحصه، وينظمه، ويثبته . واذا خرجت المجامع العلمية عن هذا الحد الذي يجب عليها ان تقف عنده عرضت نفسها لكثير من الخطأ والغلط والنقد .

ان لكل علم لغة فنية، والعلماء الاختصاصيون وحدهم يفهمون هذه اللغة . فأنت لا تفهم معنى كلمة (تفاعل) الا اذا كنت كيماويا، كما انك لا تفهم معنى الساحة المغناطيسية الا اذا كنت فيزيائيا . ومن كان طبيباً كان قادراً على الكلام عن المرضى بلغة لا يفهمها المريض . . وكذلك لما كانت الألفاظ التي يستعملها الفلاسفة لا تختلف عن الألفاظ التي يستعملها الأدباء الصحافيون والمحامون كان هذا الاتفاق فيها أدعى الى الإشكال والاضطراب . ان رجال الأدب لا يستغنون عن اصطلاحات علم النفس، كما أن رجال السياسة لا يستغنون عن اصطلاحات علم الاجتماع والأخلاق . ولكن الفلاسفة الذين يستعملون كلمة ذاكرة وعقل وحقيقة وواجب وحرية وارادة لا يبلغون غايتهم الا اذا كانت هذه المعاني المتصورة في أذهانهم محددة معرفة . وكثيراً ما يكون لبعض هذه الألفاظ في أذهانهم معان مخالفة لما يتصوره المحامون والأطباء والمهندسون . فينبغي لنا اذن اذا شئنا أن نختار اللفظ الموافق للمعنى العلمي أن نعتمد في ذلك على أرباب الاختصاص لأن صاحب البيت أدرى بالذي فيه . ومتى عرض علينا الاخصائيون ألفاظهم نقحناها ومحصناها واخترنا أوفقها وأصلحها وثبتناه في معاجم اللغة .

والسبيل الواضحة والطريقة الصحيحة التي يجب على الاختصاصيين اتباعها في وضع الاصطلاحات العلمية الموافقة تنحصر عندنا في القواعد الآتية :

القاعدة الأولى : هي البحث في الكتب العربية القديمة عن اصطلاح مستعمل للدلالة على المعنى المراد ترجمته . ويشترط في هذه القاعدة ان يكون

اللفظ الذي استعمله القدماء مطابقاً للمعنى الجديد . فاذا وجدناه مطابقاً له أطلقناه عليه دون تبديل أو تغيير . مثال ذلك أن القدماء أطلقوا لفظ الجوهر على المعنى الذي تدل عليه كلمة (Substance) ، وأطلقوا لفظ المقولات على المعنى الذي تدل عليه كلمة (Catégories) فاذا أردنا ان نترجم هذه الألفاظ أطلقنا عليها الأسماء التي سماها بها من عرفها من أصحاب اللغة .

و**القاعدة الثانية** : هي البحث عن لفظ قديم يقرب معناه من المعنى الأوربي الحديث ، فيبدل معناه قليلاً ويطلق على المعنى الجديد . مثال ذلك ما ترجمنا به لفظ (Intuition) ، فقد أطلقنا على هذا المعنى اسم الحدس بعد أن وسعنا معناه القديم . فالحدس كما يقول الجرجاني في تعريفاته «هو سرعة انتقال الذهن من المبادئ الى المطالب ويقابله الفكر ، وهو أدنى مراتب الكشف» ، والحدسيات عنده هي «ما لا يحتاج العقل في جزم الحكم فيه الى واسطة بتكرر المشاهدة» ، ويعبر ابن سينا عن ذلك بقوله : «ان من المتعلمين من يكون أقرب الى التصور لأن استعداده ... أقوى ، فان كان ذلك الانسان مستعداً للاستكمال فيما بينه وبين نفسه سمي هذا الاستعداد حدساً ، وهذا الاستعداد قد يشتد في بعض الناس حتى لا يحتاج في ان يتصل بالعقل الفعال الى كبير شيء والى تخريج وتعليم» . ثم يقول : «الحدس فعل للذهن يستنبط به بذاته الحد الأوسط . والذكاء قوة الحدس ، وتارة يحصل بالتعليم ، ومبادئ التعليم الحدس . فإن الأشياء تنتهي لا محالة الى حدوس استنبطها أرباب تلك الحدوس . ثم أدوها الى المتعلمين . فيمكن ان يكون شخص من الناس مؤيد النفس بشدة الصفاء وشدة الاتصال بالمبادئ العقلية الى ان يشتعل حدساً ، أعني قبولاً لإلهام العقل الفعال في كل شيء ، فترتسم فيه الصور التي في العقل الفعال من كل شيء

اما دفعة واما قريباً من دفعة »[1] ويقول أيضاً في كتاب الاشارات : « واما الحدس فهو ان يتمثل الحد الأوسط في الذهن دفعة ، اما عقيب طلب وشوق من غير حركة ، واما من غير اشتياق وحركة »[2] . فهذه النصوص كلها تبين لنا ان معنى الحدس عند القدماء هو اصابة الحد الأوسط اذا وضع المطلوب ، أو اصابة الحد الأكبر اذا أصيب الأوسط ، وبالجملة سرعة الانتقال من معلوم الى مجهول . فهذا المعنى كما ترى يختلف بعض الشيء عن المعنى الذي تدل عليه كلمة حدس عند المحدثين . ولكننا نلاحظ ان للحدس عند كل من هؤلاء الفلاسفة معنى خاصاً . فهناك حدس عقلي كحدس البداهة ، وهناك حدس حسي وحدس نفسي ، وحدس فلسفي كالذي تكلم عنه (برغسون) . فاذا كان معنى الحدس مختلفاً باختلاف الفلاسفة ، فان اختلاف معناه في الفلسفة الحديثة عن معناه في الفلسفة العربية القديمة لا يمنع من اطلاق اللفظ نفسه على المعنيين . ولا حاجة الى البحث عن لفظ آخر كلفظ البداهة الذي اختاره بعضهم للدلالة على هذا المعنى لأن البداهة انما تقابل كلمة (Évidence) لا كلمة حدس . فيكفي اذن في هذه الحالة الاعتماد على اللفظ القديم مع تبديل وتحديد معناه تحديداً جديداً .

والقاعدة الثالثة : هي البحث عن لفظ جديد لمعنى جديد مع مراعاة الاشتقاق العربي ، كأن تستعمل لفظ الشخصية للدلالة على (Personnalité) ولفظ الاستبطان للدلالة على (Introspection) ولفظ الاهتمام الدلالة على (Intérêt) ولفظ الانتحاء للدلالة على (Tropisme) ولفظ التكيف أو المؤالفة الدلالة على (Adaptation) . فهذه كلها اصطلاحات حديثة لم يستعملها القدماء ولكننا

(١) ابن سينا : النجاة ، ص ٢٧٢ — ٢٧٤ من طبعة القاهرة .
(٢) ابن سينا ، الاشارات ، ص ١٠٣ — ١٠٦ من الطبعة الخيرية ، القاهرة ١٣٢٥ .

نستعملها مطمئنين لأنها مطابقة للأصول التي وضعها أصحاب اللغة وهذا شبيه بما فعله القدماء من استعمال كلمة قوة للدلالة على (Puissance) وكلمة فعل للدلالة على (Acte) وكلمة صورة للدلالة على (Forme) ، وكلمة امكان للدلالة على (Possibilité) ، فقالوا ان الامكان في الشيء هو جواز اظهار ما في قوته الى الفعل ، وطبيعته بين الواجب والممتنع ، فاشتقوا من الامكان التمكين بمعنى اخراج الشيء من القوة الى الفعل بالارادة وقد يجيء التمكين عندهم بمعنى آخر وهو ان يكون تفعيلاً من المكان . فتقول مكنت الحجر في موضعه اذا وفيته حقه من بسط المكان وتسويته ليلزمه ولا يضطرب وليس في استعمالنا اليوم لفظ الحتمية (Déterminisme) والموضوعية (Objectivité) ، والوضعية (Positivisme) شطط ما دام القدماء من علمائنا لم يحجموا عن استعمال لفظ الهوية والأنية والصوفية وغيرها . ولكن اللغويين المحافظين منا لا يريدون ان يخرجوا من قفص المعاجم ، كأن الألفاظ التي اصطنعها علماؤنا القدماء في الفلسفة والطب والفلك والرياضيات والطبيعيات لم توضع الا اعتباطاً .

والقاعدة الرابعة : هي اقتباس اللفظ الأجنبي بحروفه على أن يصاغ صياغة عربية كقولنا (هرمية) في ترجمة (Hormique) وقولنا (الراد) في ترجمة (Radium) أو قولنا (المناد) في ترجمة (Monade) ، أو قولنا الديموقراطية في ترجمة (Démocratie) . ومن البديهي أنه لا ينبغي لنا العمل بهذه القاعدة الا عند عجزنا عن اشتقاق لفظ عربي للدلالة على المعنى الجديد . فاذا كانت كتب العلم القديمة لا تحتوي على لفظ نقتبسه كما هو او نبدله ، وكانت اللغة نفسها لا تشتمل على اسم قريب من المعنى نشتق منه فعلاً أو صفة كان استعمال اللفظ الأجنبي أوفى بالقصد وأقرب الى الوضوح من اطلاق لفظ عربي غير مألوف يفرض على العلم فرضاً . ان علماءنا القدماء لم يجدوا في استعمال كلمة فلسفة وكلمة

جغرافيا وكلمة كيمياء اقتصاصاً من حقوق اللغة العربية ، فاذا استعملنا اليوم كلمة (فيزياء) للدلالة على (Physique) وكلمة ديموقراطية للدلالة على (Démocratie) فاننا لا نكون أقل منهم اصابة . فهم قد استعملوا كلمة البخت مع انه لا وجود لها في لغة العرب . يقول صاحب كتاب الهوامل والشوامل في الجواب عن احدى المسائل : «على اني رأيتك تستعفي أن تفهم حقيقة الا أن تكون في لفظ عربي . فان عدمت لغة العرب رغبت في العلوم ، لكننا أيدك الله لا نترك البحث عن المعاني في أي لغة كانت وبأي عبارة حصلت»[1] . وهذا القول يدلنا على أن القاعدة الرابعة التي ذكرناها هي السبيل الواضحة التي يجب سلوكها عند افتقار اللغة العربية الى لفظ أجنبي لا يُدَل على المعنى الجديد الا به ، شأنها في ذلك شأن سائر اللغات التي تقتبس المعنى العلمي الجديد باللفظ الذي اختاره واضعه . فنقول مثلاً ميكرسكوب وتلسكوب كما تقول سينما وتلفزة دون أن تخل بلغة العرب لأن انتشار هذه الألفاظ على ألسنة الناس يجعل استعمالها في الكتب العلمية أوفى بالقصد من استعمال لفظ المكبرة والمنظار والصور المتحركة وغيرها . فالمعاني القائمة في الصدور كما يقول الجاحظ مستورة خفية وبعيدة وحشية ومحجوبة مكنونة[2] . وانما تحيا تلك المعاني في ذكر الناس لها ، واخبارهم عنها واستعمالهم اياها . ومهما يكن الاصطلاح العلمي وحشياً بعيداً عن المألوف فانه اذا انتشر على ألسنة الناس كان أحق بالترجيح من اللفظ الصحيح الذي لم يكتب له الانتشار . والخطأ المشهور كما قال بعضهم خير من الصحيح المهجور .

* * *

(١) الهوامل والشوامل لأبي حيان التوحيدي ومسكويه، ص: ٤٠١، القاهرة: ١٩٥١ .

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، الجزء الاول ، ص : ٦٨ .

هذه اربع قواعد ذكرناها هنا على سبيل الاشارة لا على سبيل الاحاطة . ولا نزعم أبداً أننا استقصينا بها جميع الصعوبات التى تعترض طريق المترجم . ان العلماء الأوربيين يعتمدون في وضع الاصطلاحات العلمية على اللاتينية واليونانية . وفي وسعهم أن يؤلفوا كلمات مركبة من كلمتين أو أكثر أو ان يضموا السوابق (Préfixes) او اللواحق (Suffixes) الى جذر المادة الأصلية بحيث يتألف منها كلمات متشابهة دالة على معان متباينة . مثال ذلك ان (Synthèse) و (Parenthèse) و (Antithèse) و (Hipothèse) تدل على معان مختلفة مع أن جذرها الأصلي واحد ، أما الاشتقاق في اللغة العربية فانه يغير الأصل الثلاثي بما يضيفه عليه من حروف الزيادة وليس في اللغة العربية سوابق ولواحق مضافة على الأصل ، كما انه لا يمكننا الآن أن نستمد من غيرها من اللغات القديمة ما تستمده اللغات الأوربية من اللاتينية واليونانية . وهذه صعوبة أخرى يجب التغلب عليها بما امتازت به اللغة العربية من سعة المناحي ولطف المخارج وسهولة الاشتقاق . وسنعود ان شاء الله الى بحث هذه الصعوبة الأخيرة في مقال آخر .

الدكتور جميل صليبا

أوضاع لغوية عسكرية

(*Sentier*) , (*Ravin*)

جاءني من حضرة مدير المجلة العسكرية بدمشق ما نصه :

نحار هنا في ترجمة (Sentier) فنحن نترجمها بكلمة (زَقيلة) كما وردت في القاموس المحيط . أو (شُريّك) كما ترد على لسان الفلاحين والبدو عامةً في بلادنا ، وقد جاءت كلمة (شَرَك) في القاموس المحيط ولكن بمعنى الطريق ذات الجوادّ . فهل تكون (شُرَيك) تصغيراً (لشَرَك) و (شريّك) تصغيراً للتصغير فتكون صالحة لهذا المعنى ؟ أما مسلك فنحن نستعملها ترجمة لكلمة (Cheminement) الافرنسية والمقصود هو مطلق مسلك تسلكه طريقاً : كان ذا حدود أو لم يكن : تسلكه مثلاً خلف صف من الأشجار لتختفي به عن أنظار العدوّ . و (درب) هل تصلح لمعنى (Sentier) أو لما هو أوسع .

وقد رأينا أن نترجم كلمة (Ravin) الافرنسية بكلمة (تَلْعة) العربية وقد جاء في القاموس المحيط ما يؤيد رأينا : وقد سمعت أنا شخصياً من الهجانة البدو النجديّين وأنا معهم في الصحراء هذه الكلمة لهذا المعنى . ومعنى (Ravin) هو مجرى الماء في سفح الجبل .

فهل لكم أن تتفضلوا فتفيدونا ما هي الترجمة الصحيحة لكلٍ من تينك الكلمتين والشكر لكم ١٠ هـ .

وقد أجبت السائل المحترم بما يلي :

تضمن سؤالكم أمرين أصليين ، (الأول) كيف نترجم كلمة (Sentier) الافرنسية : قلتم في كتابكم انكم في حيرة بين أن تترجموها بكلمة (زَقيلة) العربية التي معناها : سكة ضيّقة . طريق ضيّق . أو تترجموها بلفظ (شُريّك)

بتشديد الياء تصغير (شُرَيّك) الذي هو مصغر شَرَك . والشَرَك والشَرَكة بمعنى الطريق فيكون (الشُرَيّك) تصغير التصغير ويصبح معناه الطريق الضيق جداً وهو معنى (Sentier) وقد استأنستم الى صحة (شُرَيّك) بورودها (على لسان الفلاحين والبدو عامةً في بلادنا السورية) ولعمري ان تخريجكم أو (إخراجكم) لكلمة (شُرَيّك) على هذه الصورة يدل على بصارتكم . ولكن هنا ملاحظات ينبغي إيرادها وربما أفاد التبسط فيها .

(أ) ماهو المعنى المطابق لكلمة (Sentier) ؟

يظهر من المعاجم الافرنسية أن معناها الطريق الضيّق (Chemin étroit) وسكتوا عن تقييده بوصفٍ ما : فكل طريقٍ ضيق سواء أكان في سهل أو جبل . طويل أو قصير . مستقل أو متشعب من جادة عظمى يسمى عندهم (Sentier) فنحن اذن ان نترجم (Sentier) بكلمة عربية تفيد معنى (الطريق الضيق) ويحضرني من هذه الكلمات كلمة (الزَقيلة) التي ذكرتموها فقد فسِّرت بالسكة الضيقة والطريق الضيق ولم يقيدوها بوصفٍ ما فتكون هي المعنى الحقيقي المطابق لكلمة (Sentier) الافرنسية وهي التي يحسن ترجمتها بها غير ان (الزَقيلة) فيها غرابة وعليها سمة من استكراه في اللفظ . تقولون ان الاستعمال كفيل بصقلها وتقريبها من الأذواق . حسن ولكن يبقى هناك شك في عُروبتها من حيث أن صاحب القاموس انفرد بذكرها وقد أهملها كلٌّ من صاحبي الصحاح واللسان : فهي في الغالب لغة يمانية : لما أن الفيروزابادي (الذي انفرد بذكرها في قاموسه) كان قاضياً في اليمن في القرن الثامن للهجري فلعله التقطها من أفواه اليمانيين ودوّنها في معجمه . تقولون وهذا أيضاً لا يضرّ فان اليمن عربية ولغتها عربية فالشك في عروبة (زقيلة) مشكوك فيه بل مردود .

إذن (زقيلة) أصبحت في الكف ؟ وهل من كلمة غيرها تدل على معنى

الطريق الضيّق .؟ نعم كلمة زَقَب (بفتحتين) ففي الصحاح طريق (زَقَب) أي ضيّق . وقد يقال إنها غريبة مهجورة أيضاً كالزُقيلة . والجواب ان الاستعمال كفيل بصقلها وتحليتها في الأذواق .

وهناك كلمة ثالثة ربما اخترتها ورجحتها على أختيها (الزَقيلة والزَقب) لسهولة لفظها واستئناس الناس بها ودلالتها على معنى الطريق الضيّق في العصور القديمة والحديثة : وهي كلمة (زقاق) قال الشاعر :

(ولم ترَ عيني مثلَ سِربٍ رأيته خرجنَ علينا من زقاق ابن واقف)

والسِرب من النساء كالسِرب من الظباء ، فلنترجم (Sentier) بكلمة (زقاق) ولا سيما أن لها علاقةً قديمة بتاريخنا العربي وجغرافيتنا العربية : فأسلافنا العرب سموا بها المجاز الضيّق بين طنجة وسبتة من برّ الأندلس . وهو الذي يسمى أحياناً (بحر الزقاق) وأحياناً (بوغاز جبل طارق) نسبة الى الفاتح العربي الشهير . فمزية (زقاق) على(زَقَب) و(زَقيلة) واضحة جلية . و (السكّة) بمعنى الزقاق أو هي الواسع من الأزقة . تقولون لكن (زقاق) أصبحت مبتذلة جداً . فلنتفق اذن على (زقيلة) لمروبتها وخفتها بخلاف (زَقَب) فان فتح قافها ومجيء الباء المقلقلة بعدها يُبعدها عن الأذواق . وفي استعمال كلمة (زقيلة) إحياءٌ لها . وعلينا ذمة للغتنا وهي إحياء مواتها أي ألفاظها الميتة ما أمكن .

أما الشريّك تصغير الشرك التي يستعملها الفلاحون بمعنى الطريق الضيق فاستعمال فيه نظر لأن (الشَرَك) ليس مفرداً بل هو جمع شركة وهي الجادّة أي الطريق الأعظم ففي الصَحاح : (الشركة معظم الطريق ووسطه والجمع شَرَك) ومن اللغويين من فسّر (الشَركة) بالطُرُق الصغار المنتشرة على متن الطريق الأعظم : فان المُشاة وحوافر الدواب تُحدث على ظهر الجادة طرائق قِدَداً وأخاديد صغيرة تتفرق ثم تلتقي ثم تتفرق ويكون بينها قطع من الأرض لا توطأ وتكون

ذات نبات أحياناً : فاذا نظرت الى هذه الجادة من عَلٍ حسبتها عباءة مخططة . وقد جاء في اللغة : (برد مُسَيَّح أي مخطط والمُسَيَّح من الطرُق المُبيّن شَرَكه وإنما سَيَّحه (أي خطّطه) كثرةُ شَرَكه شُبّه (أي الطريق) بالعباء المسيّح) انتهى ملخصاً من اللسان . فالشركة إذن طريق ضيق لكن لا مُطلقاً بل يكون مع طرق صغار أخرى منتشرة جميعها على ظهر الطريق الأعظم . وربما كانت هذه الشَّركات هي التي تسمى في اللغة الترهات أيضاً ثم نقلت الترهات الى معنى الأباطيل مجازاً .

فاذا أردنا أن نترجم كلمة (الشُرَيْك) مثلاً الى اللغة الافرنسية أمكننا أن نترجها بكلمة (Sentier) ولكن لا يمكننا أن نترجم (Sentier) الى العربية بكلمة شَرَكة ولا بكلمة شريك كما لا يخفى .

وكلمة (درب) لا تصلح لأن نترجم بها (Sentier) لما أن الدرب اسم لمطلق طريق ضيقاً كان او واسعاً وربما كان معرَّباً عن الفارسية . ومن اللطائف ان (الردب) الذي هو مقلوب (درب) اسم للطريق الذي لا ينفذ كما في القاموس .

ومثل درب كلمة (مسلك) (Cheminement) فإنها في اللغة مطلق منفذ يُسلك منه الى ما وراءه مهما ضاق المنفذ أو اتسع : فخرْم الإبرة مسلك للخيط كما أن أجواز الفضاء وأجواز البحار مسلك للطائرات والسفن الماخرات ومنه فنّ (مسلك البحار) فمسلك اذن لا تصلح لترجمة (Sentier) .

بقي أنكم معشر رجال الفنّ العسكري إنما تريدون من (Sentier) في الغالب الطرُق التي يسلكها الجند وهي التي تكون في البراري والسهول المنبسطة لا في داخل المدن والقرى . فالذي يصلح عرضه عليكم من الألفاظ ما دلّ على مسالك الجنود في السهول : إذن يكون الزقاق والزقيلة والزَّقَب والشارع غير ما تطلبون . ويكون مطلوبكم هو الطريق . السبيل . اللَّقَمُ .

النهج . المنهج . المهيع . الجادة . الدرب . السكة . المدعاس . والثلاثة الأخيرة تدل على الطريق الضيق ولا سيما المدعاس فقد فسروه بالطريق الذي أثر فيه طول دعس أقدام المارة . وهو الذي تسميه عامة زماننا طريق قادومية أي قدمية . فهذه الثلاثة إذن هي الصالحة لترجمة (Sentier) . والطرقات التي سردنا أسماءها تكون في بساط البرية وبعضها يستعمل في داخل المدن . كالجادة والدرب والسكة . أما طرقات أوعار الجبال فالمشهور من أسمائها الشعب بكسر الشين وجمعه شعاب والجُدة بضم الجيم جمعها جُدَد وهي الطرق تكون في الجبل يخالف لونها لونه : بيض وسود وحمر . ومنه الآية الكريمة : (جُدَد بيض وحمر) وقولي إن الدرب يراد منه الطريق الضيق ملاحظ فيه غلبة استعمال سكان المدن له في هذا المعنى والا فان أصل معناه كل مدخل بين جبلين والباب الواسع والمسالك الى بلاد الروم ومنه قول امرئ القيس :

(بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه) الخ

(الأمر الثاني) أو السؤال الثاني كيف نترجم كلمة (Ravin) ؟

يجب أولاً أن نحدد معنى (Ravin) بالافرنسية : ففي لاروس ان معناها (مَسِيلٌ حُفِر بواسطة جَرَيان ماء المطر) . فقولكم في تفسيرها (مجرى الماء في سفح الجبل) تكون كلمة (سفح الجبل) زائدة على معناها الافرنسي إلا اذا كنتم جريتم على اصطلاح عسكري يُراد به : المجرى في السفح . ويعجبني في (Ravin) أن أترجمها بكلمة (غَبِيب) قال في المخصص الغبيب مَسِيلٌ في متن الأرض أو الجبل . أما المسيل على ظهر السهل من الأرض فيسمى مسيلٌ ومجرى وأخدود غير ملاحظ فيها اشتراط ان تكون في الجبل . ولا يمنع مانع أن تكون في الجبل أيضاً .

وإذ قد فهمنا من عبارتكم في ترجمة (Ravin) إرادة المسيل في الجبل .

واخترتم لها كلمة (تَلْعَة) فعلينا أن نوافي رغبتكم في ذلك فنقول : إن أقوال اللغويين في تفسير (التَّلْعَة) مختلفة بل متضاربة فهم يفسرونها تارةً بما علا من الأرض وتارةً بما انخفض منها وقال في المخصص (التَّلْعَة) ما انهبطَ من الأرض وتردَّد فيه السيل) ثم سموا الماء المتردّد في الوادي تَلْعَة وجمعوه على تلاع · وفسروا التلاع بالسواقي الصغيرة تكون في الوادي ·

هذه السواقي أو المجاري أو المسايل لا تكون على حالةٍ واحدة : فهي إذا كانت صغيرة سميت أشراش (جمع شَرْش) واذا كانت كبيرة سميت تِلاع (جمع تَلْعَة) واذا كانت أكبر من التلاع سميت مذانب (جمع مِذنب) والأكبر من المذانب تسمى شواجن (جمع شاجنة) وما كان أكبر من الشواجن يسمى جلاويخ (جمع جلواخ) وكل مجرى منها اذا كان واسعاً يسمى (وِجْلَة) وجمعه (وِجَل) واذا كان ضيقاً سمي (قَرِيًّا) وجمعه (أقرية) والذي يشتمل على كل هذه المجاري المائية هو المسمى (بالوادي) · ولكنها أي تلك المجاري تكون طبيعية قديمة لا حديثة أوجدها اندفاع سيل المطر فان الحديثة على ما يظهر هو معنى كلمة (Ravin) · ويمكن القول بأن كلمة تَلْعَة لا بأس في أن نصطلح عليها ترجمةً لكلمة (Ravin) والذي يزيد في رواجها ما ذكرتموه من أن المجانة النجديين يستعملونها ·

المغربي

الأتلنتدا هي اميركا الجنوبية

موضوع تاريخي جغرافي

ان وجود أرض فيما وراء بحر الظلمات ، كان موضوع بحث العالم القديم في القرون الوسطى ، فقد رويت أساطير وحكايات كثيرة في المناطق العامرة والجزر الكبيرة الزاهرة ، المنبثة في طول الاقيانوس وعرضه ، تلك الأماكن التي تعيش في أحراجها الكثيفة حيوانات غريبة وتخترقها الأنهر العظيمة والجبال الشاهقة الغنية بالمعادن والأحجار الكريمة النادرة التي لا تقل الأزهار العجيبة عنها روعةً وجمالاً .

ولقد لاحظ المؤرخ هنري مارتن [1] في درسه كتاب تيمو — الذي ألفه أفلاطون بعد جمهوريته الشهيرة — الشيء الكثير من خرافة الاتلنتدا التي رواها كريسياس الطاغية الى سقراط . فكانت هذه أولى الروايات النقلية عن هذه الجزيرة المجهولة ، أو بالحري حول القارة الواقعة وراء أعمدة هرقل ، وفيها ازدهرت قبل تسعة آلاف سنة مدنية شعب عظيم اشتهر بثقافته النهية ، في زمن سلالة اطلس [1] ابن الالـه بوسيدون وزوجته الانسانة كليتو .

ونقل كهنة معبد سايس [3] هذه الحكاية الى الفيلسوف سولون فكانت روايتهم هذه بمثابة تعليم سري ، يتناقله منهم السلف عن الخلف ، الى ان لقنه المربي سيلينو [4] الى الملك ميداين [5] .

(۱) هـ . مارتن Henri Martin (۱۸۱۰ — ۱۸۸٥) .
(۲) Atlas ملك زمناً طويلاً جزيرة موريتانيا .
(۳) Sais عاصمة سلالة السيت في مصر Sailes .
(٤) Sileno هو الذي تبنى الالـه باخوس كما جاء في الأسطورة اليونانية .
(٥) Midas الملك ذواذني الحمار — حسب رواية الأساطير الرومانية .

وأوضح كريسياس ما ورد في محاورات أفلاطون المشهورة ، ان شعب الأتلنتدا قوي ، امتد سلطانه الى مصر وبعد استيلائه على مقاطعات واسعة ، دحره الأثينيون في معركة دامية . واختفى أثره بين ليلة وضحاها ، حتى لم يعد يعرف عن شعب الأتلنتدا وعن بلادهم ومدنيتهم الزاهرة شيء وذلك بعد طوفان هائل وزلازل شديدة مفجعة قضت على كل معالمهم وأخبارهم .

ونشأ عن هذه الروايات المنقولة ، الاعتقاد بأن أرخبيل اسورس وجزر الكناريا وبقية جزر الأتليا تشكل جزءاً من الأتلنتدا المختفية التي هي سلسلة مرتفعات مغمورة بالمياه يصعب اكتشافها والتثبت من صحة ما يروى عنها .

أما بركلوس (1) الاسكندري فقد أخذ على عاتقه نقل آراء الكتاب المتناقضة حول الأتلنتدا فقال :

« ان Nomenius كان يعتبر الاتلنتدا رمز صراع بين الخير والشر » .

« و Amelius يعتقد ان الصراع بين الكواكب والنجوم قد انتهى بتهديم الجزيرة وخرابها السريع الهائل واختفائها العاجل » .

« واريجنيس قال انها الحرب بين الأرواح الشريرة والصالحة » .

« واعتبرها لونجنيوس Longinus أسطورة كبقية الأساطير التي رواها أفلاطون لتجميل محاوراته المبهمة ، وجاراه بعدئذ كتبة ومؤرخون عديدون أمثال بلوتارخوس وسترابون وماركوييوس وديونيسيوس دي متيلين وبلينو وبوميونيو ميلا وريودورو الصقلي ممن أوردوا في تواريخهم الشهيرة ذكر مناطق مجهولة واقعة خارج عالم البحر المتوسط الوضيع » .

فديونيسيو المتيليني قال : ان سكان الأتلنتدا كانوا أشداء وأذكياء وسماهم « اتلانديس ، واتلانتيي واتارانيس » .

(١) Proclus : فيلسوف اسكندري (٤١٢ — ٤٨٥) .

« أما ريودوروا الصقلي فقد ألمع في تاريخه عن جزيرة ذات ثروة عظيمة اكتشفها الفنيقيون بعد إبحار أيام طويلة حول الشواطئ الافريقية ، ربيعها دائم ومناخها عذب واخضرارها بديع جميل وأثمارها طازجة وزكية الطعم » .

« وأرسطوطاليس الفيلسوف لم يغفل ذكر جزيرة عظيمة دعاها « اتيليا » ويقتضي للوصول اليها سفر عدة أسابيع من القارة التي يستعمرها الفنيقيون وعرفوا بحرصهم على ما يملكون كل الحرص ، والويل لمن يلفظ اسم تلك الجزيرة بفمه أو يبوح بسرها » .

« وأما الآثينيون فكانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً بهذه الأساطير ويؤمنون بوجود الاتلنتدا ، مع كل ما جاء عنها من الروايات المتناقضة والأقوال المتباينة » .

ومن أخص الأساطير التي تناقلها الأثينيون قديماً تلك التي تتعلق بحروبهم ضد الأتلنتديين ، حتى انهم كانوا يقيمون في معابدهم احتفالات سنوية لتقديم ابتهالاتهم وتضرعاتهم فيها الى الإلـه باليس (١) ليحميهم في حروبهم أعداءهم الاتلنتديين .

واعتبر كتبة اسبانيا والبرتغال في القرن الخامس عشر ، رواية ريودوروا الصقلي حقيقة بعد اكتشاف القارة الجديدة لمطابقة الأوصاف التي أوردها في تاريخه ، ما في تلك القارة العجيبة من مناخ جيد ومناظر ساحرة .

وتأييداً للأساطير الرتيبة وغيرها من النصوص التي تقدم ذكرها من العالم الجديد نورد ترجمة نبوءة سنيكا الفيلسوف بهذا الصدد :

« تطوي الأجيال السنين الغابرة وفيها ، يجمع البحر حوادث الدنيا فيظهر تل عظيم » .

« ومنه تكشف بلاد جديدة ولن يكون هذا الحادث آخر ما يظهر للعالم » .

---

(٢) Palès : الـه الجيوش والرعيان .

وكل هذه الأقاويل والروايات المشوقة كانت من العوامل الدافعة الى القيام برحلات طويلة خطرة في عرض البحار لاكتشاف عوالم خفية ، وأراض غنية ، قال عنها السليتون القدماء إنها كالجنان ، وأطلقوا عليها اسم البلاد الخالدة التي تقطنها الأرواح العليا .

وهكذا تجددت فكرة التفتيش عن تلك الجزيرة المجهولة ، الى أن أتيح للبرتقاليين والاسبان اكتشافها وبها تغنى كامويس في ملحمته الشهيرة ، فقال في أنشودته الأولى :

في البحر أعاصير وخسائر ،
وفي الحرب حروب وخداع ،
فكم من رغبة تثير الملل ،
أين يمكن أن يلجأ انسان ضعيف ،
حيث لاتحنق ولا تغضب السماء الهادئة ،
على حشرة الأرض الصغيرة ؟

فبعد اكتشاف الأميركات الثلاث صارت الاتلنتدا وحضارة القبائل الأميركية وثقافتها القديمة ، موضوع درس كثير من علماء الأثريات في أميركا . ومن أهم نواحي هذه الدروس ناحية المقابلة بين لغات القبائل الهندية المنتشرة في قارة أميركا ، من القطب الشمالي الى القطب الجنوبي ، وبين لغة السومريين في ما بين النهرين ، ولغة المصريين القدماء وما بينها من التشابه خطاً ولفظاً مما يدل على أن مدنية السومريين الشهيرة قد وصلت الى أميركا ، ولكن كيف وصلت ، ومتى ؟

فلبحث هذه القضية التاريخية ، والإجابة على السؤال المتقدم يقتضي أن ندرس العوامل الجغرافية والطبيعية التي تأثرت بها الأرض قديماً ، وما قاله بهذا الصدد علماء اللغة والآثار .

التقيت منذ ست سنوات على ضفاف نهر سان فرنسيسكو الشهير في أواسط البرازيل ، بالرحالة الألماني الدكتور اوتوفيلي اورخ وكان يدرس القبائل البرغوائية والبرازيلية المنتشرة على حدود الجمهوريتين في ولايات البرازيل الوسطى فاستحكمت بينه وبيني صداقة متينة ، وكنت وقتئذ أسافر الى هاتيك المناطق النائية للتفتيش عن مواد أولية ومعادن ، فآنست في نفسي هوى لاستطلاع بعض دروس هذا المستكشف فأقمت مع بعثه وقتاً اطلعت فيه على لمحة صغيرة من أبحاثه ، وتنقلاته ومقابلاته ، بين لغات القبائل البرغوائية ، التي كان يجيد التكلم بها ـ وهي لغة الغوراني والتوبي — وبين اللغة المصرية القديمة . وكان يردد أبداً قوله : « ان مدنية قبائل أميركا الوسطى ترجع الى المصريين ، والدليل على ذلك آثار متعددة واضحة . أما حضارة القبائل في أميركا الجنوبية فمختلفة المصادر » .

وبعد سنتين من هذه المقابلة كنت أجتاز حرجاً في شمالي ولاية منياس على مقربة من قرية فورتليزا ، ووجهتي مناجم البلور الطبيعي في هضبة سان جوزه دي غورتوبا فلقيني صاحب المنجم وقال لي : « سترى على باب المنجم كتابة غريبة ، وأعتقد كما يعتقد غيري أنها كتابة هيروغليفية أو فينيقية أو غير ذلك » . فعادت الى ذاكرتي أحاديث العلامة أورخ ونظريته في الآثار الكتابية التي خلفتها القبائل الهندية في الأميركتين الوسطى والجنوبية .

وجدت خطاً بشرياً محفوراً في صخر الى جانب مجرى ماء ومطلياً بدهان أحمر وقاه أفاعيل الأمطار والعوامل الطبيعية فبقي على روائه ، كما لو كان حديث الحفر والطلي ، وقد حاولت حك الصباغ بآلة حادة فلم أفلح فصورت الصخر ورسمت الأحرف رسماً دقيقاً واحتفظت بها حتى الآن .

ومرت الأيام وأنا أقوم برحلاتي الشاقة في مجاهل البرازيل مقتحماً أدغالها وأحراجها ، طلباً للمعادن والأحجار شبه الكريمة مردداً ما قاله الشاعر الثائر الياس فرحات :

شرق وغرب فقد يغنى أخو سفر   عن كل ماتجمع الأسفار من حكم
والمرء لا يرتقي معها تلا كتباً   الا اذا احتك بالأفراد والأمم

الى أن بلغتُ ذات يوم هضبة تدعى سيرادى كايابو قائمة الى جانب نهر اراغوايا الشهير عند التخوم التي تفصل بين ولايتي غواياز وماتوغروسو في مزرعة غنية بالمعادن ، وهناك وجدت رسماً محفوراً في صخر أيضاً والى جانبه مجرى ماء وبعض أنجم متكاثفة ، ومن المدهش ان الرسم المطلي بصباغ أحمر زاه لا يؤثر فيه الحك .

وهكذا كنت ألاحظ كل ما هو غريب في المناطق النائية عن العمران ، من آثار حجرية أو كتابات أو رسوم محفورة ، لم تقو يد الطبيعة على محوها على مر الزمان ، وقد حفظت في مجموعتي عدداً وافراً منها .

لقد ابتدأت أبحاث البرازيليين وفي طليعتهم برغرنيوفيدال ، على أثر ادلاء الأب هليودورو بيرمي بنظريته : « ان اميركا هي الأتلنتدا بذاتها » أي أن الجزيرة العظيمة التي ذكرها بلاطون الفيلسوف وهيرودتو من المؤرخين الأقدمين . وان الاميركات قد احتفظت بكل ما دون في الأساطير الأولية ، وانتقل بالرواية عن الاتلنتدا ، وانه اذا أرهف الانسان سمعه ووعى اللغات الهندية وألفاظها ولهجاتها المتعددة تأكد لدى فهمها أنها لا تختلف البتة عن لغة السومريين القدماء . وقد حافظت هذه اللغة على تسمية المواقع الخطيرة والجبال والأنهر والهضاب وأسماء الأعلام كما تسمت بها القبائل المتعددة ، وأخصها قبيلة الانقا في ولاية براهيبا دو نورتي من أعمال البرازيل ، تلك القبيلة الكبيرة التي خلفت بين ما خلفته من الآثار الكتابات المنقوشة على الصخور الفخمة لكي يراها الرحالة ويشاهدها كل من أراد التعمق في درس هذه المخلفات التاريخية والأثرية واللغوية .

ويقول فيدال : « أين مدنية هنود أميركا من مدنية وحضارة السومريين أجدادهم القدماء ؟ ويستند في تحليله الى اختبارات ودروس عدد من العلماء

الأثريين واللغويين كالأب براسيردي بوربورغ والمستشرق الأب هلاريو دي بارنتون ، والى التاريخ العام الذي وضعه العلامة الألماني قايس كما يستند الى ما جاء في الملحمة العالمية الاسبانية عن التاريخ والآثار الأمريكية والى ماصرح به العلامة البرازيلي ليونسيو دي امارال غورجل سنة ١٩٠٧ في درس قدمه الى المعهد التاريخي الجغرافي في سان باولو جاء فيه :

«لا يسعني الا أن أجاهر باعتقادي الراسخ وهو أن أجزاء العالم كانت فيما مضى متحدة ، وان الاتلنتدا التي يزعم بعضهم أن المياه قد غمرتها على أثر كارثة عظيمة ، لم تكن سوى أميركا التي انفصلت عن العالم القديم وابتعدت عن أوربا وافريقيا ، ودخلت في طور الأساطير والخرافات» .

أميركا قبل التاريخ :

لقد مرّ على العالم ٦٧ قرناً قبل اكتشاف اميركا سنة ١٥٠٠ بعد أن كانت هذه القارة المترامية الأطراف ، في عالم المجهول ، بينما كانت بقية القارات تسير في معارج العمران والحضارة والمدنية .

ومن المحتم في هذا الباب مراجعة تقارير العلوم الطبيعية ، ودرس التوراة وبعض نصوصها التاريخية والميثولوجية لكشف النقاب عن هذا المجهول .

ومن ينظر في تواريخ الأمم يرى أن شعوباً كثيرة كانت ذات شأن في تلك الأزمنة كالبابليين والمصريين والهنود وغيرهم ونقشت أسماء أسرهم الملكية على الأنصاب والأعمدة وفي الهياكل الأثرية القديمة . وكل هذه التواريخ والحوادث جرت قبل المسيح ، والعلم يرجع بعضها الى عشرات الألوف من السنين وأكثر . واذا عدنا الى ألفي سنة أو ثلاثة آلاف سنة ، عندما بدأت الأسر الملكية في مصر وبابل تتعاقب على الحكم أبدت لنا المقابلة أن آثار المكسيك تحتفظ بأمثلة متعددة تشير الى ان سنة ١٧٨٦ بعد خلق العالم (حسب ميثولوجية

التوراة) شهدت انهطال أمطار غزيرة فأدت الى الطوفان الذي غمر الأرض . وتدل الكتابات التي عثر عليها في المكسيك انه في السنة ٥٢١ بعد هذا الطوفان تأسست مدينة تاباتان أولى المدن المكسيكية . ويقول البحاثة مونيسينوس بهذا الصدد « ان مقاطعة بيرو قد ازدهرت بالسكان والعمران في السنة الستمائة بعد الطوفان » .

وبموجب تقدير قبائل الأزتكاس Aztecas يرجع خلق العالم الى عشرين قرناً قبل الطوفان العام .

وقد انتقلت هذه النظرية الى المكسيك من المايا وسموها تاناتيوه Tanatcua ومنها يستدل على الحقبات الأربع التي انتهت بحوادث الطوفان .

فالدور الأول قد انتهى بالزلازل والفاقة ، لأن الأرض لم تنتج ما يكفي سكانها من الغذاء ، وانتهى الدور الثاني بالنار الآكلة التي أرسلتها الآلهة على الأرض فدمرتها . وامتاز الدور الثالث بما اجتاح الأرض من الأعاصير المقوضة . وأما الدور الرابع فكان دور الاندثار بالطوفان .

وفي غضون هذه الأدوار الأربعة كانت القارة الأمريكية متصلة بالعالم القديم فما هو الحادث الذي فصلها عنه ؟ وفي أي زمن جرى ؟

جاء في التوراة (الاصحاح ١٠ — ع ٢٥) : « ولعابر ولد ابنان : اسم الواحد فالج لأن في أيامه قسمت الأرض ، واسم أخيه يقطان » وكلمة فالج العبرانية تعني بالعربية فالق من فلق أي قسم الى شطرين ، واليهود يقولون عن قسمة الأرض بلغتهم « Ki Beyamayò niphelegâh hà Éres » .

والكلمة الثالثة فسل ترجمته باليونانية « Diemeristhé hé Gèpaleg » ومعناه ان الأرض قد شطرت او انقسمت بشدة - فانقسم Pal والارض Eg ، وفي لغة السومريين تجد اللفظ والمعنى عينهما .

وجاء في الاصحاح العاشر عده من (سفر التكوين) ان الأمم قد تفرقت في كل الأرض بعد الطوفان وبعد انقسام الأرض الى أقسام متعددة ، واليها تفرق أبناء نوح بعد الطوفان فمتى حدث ذلك ؟

ولد فالج أو فالق سنة ٤٠٠ للخليقة والطوفان حدث سنة ٢٢٤٧ بعد خلق آدم و ٢٩٥٢ قبل ولادة المسيح . وعلى هذا الأساس يكون حدوث انفصال القارات بعضها عن البعض الآخر قد وقع سنة ٢٦٥٠ بعد آدم او ٢٥٥٢ ق . م . أي قبل عصرنا الحاضر بـ ٢٥ قرناً ، وقد تفرقت الأمم من شنعار الى أقاصي الارض حوالي القرن الواقع بين ٢٨٠٠ و ٢٧٠٠ ق . أي خلال مدة قرن أو قرنين قبل انقسام الأرض حينما تفرق في أجزائها أبناء نوح ، وعاصروا الحادث التاريخي الذي حصل وكان من نتائجه انفصال القارات المتعددة بعضها عن البعض الآخر ، وبينها القارة الأميركية التي أخذت في الابتعاد عن أوربا وافريقية تدريجياً فكان أول انزلاقها حتى درجة العرض من جزر الكنارياس ، وبقيت ثابتة على هذا الوضع ما يزيد على اثني عشر الى خمسة عشر قرناً وعرف الأقدمون ، وفي طليعتهم اليونان ، بجزيرة الأتلنتدا ، ويقول البحاثة فيدال أنها عرفت بأرض أبناء آرام وبعدئذ بأمريكا .

واذا نحن أمعنا النظر في هندسة كل قارة على حدة رأينا . أولاً ان حدود افريقية حتى التجويف الذي يلي خط الاستواء تلتئم مع التقعس المشاهد في تكوين أميركا الجنوبية على موازاة الدرجة ذاتها . وثانياً لذلك نرى أيضاً ان كل ما في القارة الأميركية من حيوان ونبات ، يؤيد نظرية انفصال هذه القارة عن الشرق ، وقد عثر الأثريون في بيرو على عظام حيوانات متحجرة منها الأسود مثلاً والمعلوم أن الأسد انقرض من القارات الأمريكية منذ قرون ولم يبق له أثر ، وهو لا يزال كثيراً في افريقية .

حلت بالأرض كوارث طبيعية ذات أثر بعيد ، فغمرتها الثلوج والجليد ، وعرتها زلازل عبثت بوحدة تكوينها فانفلقت وانفتحت فيها حفر وأخاديد عميقة وشقوق واسعة ، غمرها ذوب الثلوج والجليد ، وهكذا نرى أن الأماكن المرتفعة عن سطح المياه بقيت متصلة ولكن حيث بعد مدى انفراج الأخاديد كان الانفصال بالغاً .

واذا نحن حللنا كلمة Okéanos التي أطلقت على البحار الكبيرة التي تفصل بين القارات وجدنا معناهـا واضحاً في لغة السومريين فمعنى (O) ماء البحر و (Ki) الأرض ، و (A) مجرى او نحو و (Nu) يحيط .

وعلم اللغة يحدد كلمة Occano كما يعرفها اليونان Okeanos « Ho Perrircòn tèn Oikumenèn .

ومعناها : النهر الذي تجري مياهه حول الأراضي المأهولة » .

وانزلاق القارة الأميركية وابتعادها عن القارات الأخرى قد حصل تدريجياً ، وهذا ما تؤيده نظرية العالم الألماني الفريد وجنيس Alfred Wegenes القائل بانفصال القارات بعد أن كانت متصلة بافريقية الحالية ، فحركة دوران الأرض وقوة الجاذبية والتيارات الأوقيانوسية المتتالية ، الى ما سوى ذلك من القوى التي تعمل على تفكك الكتلة الأرضية كانت عوامل بل أسباباً طبيعية لانفصال أميركا وابتعادها غرباً وتكون الأوقيانوس الأتلنتيكي بحيث شغل المكان الذي كانت قبلاً تشغله أرض أميركا . وما حصـل لأميركا حدث أيضاً لأوستراليا والقطبين الشمالي والجنوبي .

وليس تمدن قبائل المكسيك القديمة وقبائل اوتوميس وناحواس وآزتكا والمايا وكينشز وموسكا والانكا وايرا وشيموس سوى استئناف لمدنية الشعوب الأولية التي قطنت الأتلنتدا . وما هذه الأتلنتدا العجيبة سوى أميركا التي ابتعدت عن جزر الكناراباس .

والمخطط الذي وضعه سيباستيان مونستر سنة ١٥٤٠ يتضمن أميركا ويشير اليهـا بالاسم الذي كانت معروفة به في ذلك العصر وهو Nouus Orbis وفي وسط مخطط أميركا الجنوبية تقرأ هذه العبارة : «جزيرة اتلنتك « Jusula Atlantica, Quam Vocant Brasilii et Americam ·
ومعناها : ان الاتلنتدا في أميركا بما فيها البرازيل ·

* * *

الخلاصـة :

يستدل من المعلومات المتقدمة ان هجرة أبناء الشرق من السومريين والمصريين وسواهم من القبائل المتعددة قد انتهت الى اميركا ، وفيها أبدعت مدنية لم تختلف في أول أمرها عن مدنية الأمم القديمة ، غير انه بانقطاع سبيل الهجرة أخذت تلك المدنية تتقهقر تدريجيًا وخمد نشاط أولئك المغتربين وضؤل ذكاؤهم حتى انتهى أمرهم الى التوحش والتأخر ولا يزال هذا حالهم الى يومنا هذا · اﻫ ·

جورج لبان

سفر خالد بن الوليد

من العراق الى الشام .

— ٣ —

تفضيل الروايات :

نبدأ أولاً بالروايات التي زعمت أن خالداً دخل الشام عن طريق تدمر وقد اعتمد عليها كايتاني ودي خويه كما سبق بيانه .

أولاً — رواية الواقدي وفيها أن خالداً خرج من سوى الى الكوائل وأتى بعد ذلك قرقيسيا وأرك ، ثم دومة الجندل فقصم فالقريتين فحوارين حتى بلغ مرج رهط والكوائل كما أثبته موسل في خريطته محل ماء واقع على بعد خمسة عشر كيلومتراً غربي ، جنوبي غربي (الميادين) أما قرقيسيا فهي مدينة قديمة واقعة على ضفة الفرات اليسرى في مصب الخابور وذهب موسل الى ان قصم في (خان المنقورة) على طريق (تدمر – دمشق) الروماني على بعد ستين كيلومتراً شرقي ، شمالي شرقي ضمير . وهي Casama الرومانية . وذكرها بواديبارد في خريطة المواقع الرومانية في بادية الشام ، بقرية النبك [1] على طريق (حمص – دمشق) الروماني . وقصبة النبك واقعة في منتصف الطريق بين حمص ودمشق . وذكر دوسو أيضاً في كتابه « طبوغرافية سورية التاريخية القديمة والوسطى » في صفحات ٦٤ : ٦٦ ان Casama هي قصبة النبك وأثبتها في الخريطة المربوطة بكتابه [2] .

---

(١) المجلد الثاني لكتاب (آثر روماني في بادية الشام) يتضمن الخرائط والرسوم والصور .

Topographie Historique de La Syrie, Par René Dussaud, 1927. (٢)

لهذا ينبغي أن نعتبر قصمة أو قصم القصبة الحالية نبك على ما ذهب اليه الكاتبان الفرنسيان الاخصائيان . أما موقع أرك فقد ذكرها ياقوت في معجمه وقال هي مدينة صغيرة في طرف برية حلب قرب تدمر وهي من فتوح خالد ابن الوليد عند ما سار من العراق الى الشام . وهي (ورك) الحالية و (Harac) الرومانية في شمالي شرقي تدمر على بعد خمسين كيلومتراً على الطريق الروماني القديم بين تدمر والرصافة . وكان فيها حصن روماني لحراسة الحدود .

ولنبحث الآن في رواية الواقدي ولنتحقق من صحتها . قال الواقدي ان خالداً خرج من سوى الى الكواثل والمسافة بينهما خطاً مائتان وخمسون كيلومتراً . والمسافة بين الكواثل وقرقيسيا ثلاثون كيلومتراً . واذا صدقنا الرواية فيكون خالد قد شرق من سوى الى قرقيسيا وبها بلغ ضفة الفرات ، ثم توجه غرباً الى أرك والمسافة بينهما خطاً مائة وخمسة وثمانون كيلومتراً . وذهب من أرك الى دومة الجندل والمسافة بينهما خطاً خمسمائة وخمسون كيلومتراً ، هذا اذا فرضنا انه توجه الى دومة الجندل رأساً ، متوجهاً نحو الجنوب قاطعاً البادية . وزعم الواقدي ان خالداً سار من دومة الجندل الى قصم والمسافة بينهما خطاً أكثر من خمسمائة كيلومتر . ولم يذهب من قصم الى مرج راهط رأساً بل توجه شرقاً الى القريتين ثم عرج على حوارين وانتهى أخيراً الى مرج راهط . والمحل هذا واقع قريباً من قرية عذراء أو عدرا الحالية على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً شمالي ، شرقي شمالي دمشق . ويبدو من المسافات التي ذكرناها ان خالداً بعد تفويزه الى سوى وقد قرب من دمشق نحواً من مائة وخمسين كيلومتراً وبلغ حدود الشام شرق وغرب ونزل جنوباً وصعد شمالاً . وبذلك قطع أكثر من الف وخمسمائة كيلومتر على أقل تقدير يضاف الى ذلك المدة التي قضاها في القتال والحصار والفتح وعقد الصلح وغير ذلك من الأعمال . وقضى هذا الوقت الطويل مشرقاً ومغرباً تاركاً هدفه الأصلي وهو الاجتماع بالمسلمين في

الشام ، قبل أن يهاجمهم الروم بجموعهم . والذي يدرس الرواية على الخريطة ويثبت الاماكن يتجلى له ان رواة الواقدي حشروا في رواياتهم فتوحاً تمت على يد خالد قبل سفره من العراق وفتوحات أخرى تمت بعد انضمامه الى المسلمين واشتراكه معهم في الحروب التي وقعت سنة ثلاث عشرة هجرية . ومن المعقول أن يتوجه خالد ، بعد وصوله الى سوى ، قاصداً الى الشام ويلاقي جمع غسان في مرج راهط . لهذا اذا نقحنا الرواية من أعمال خالد قبل سفره وأعماله بعد حروبه في الشام ، تطابق الرواية الواقع وتدل على أنه خرج من سوى وتوجه الى مرج راهط .

ثانياً رواية المدائني : روى المدائني أن خالداً بعد أخذه أمر ابي بكر بالشخوص الى الشام توجه الى صندوداء فقاتل من فيها ، ثم لقي جمعاً في المصيخ والحصيد ثم نوز من قراقر الى سوى ، ثم أتى أرك وتدمر والقريتين وحوارين وقصم حتى انتهى الى مرج راهط . وهو في طريقه هذا يقاتل ويحاصر ويصالح . وبديهي أن الذي يقرأ هذه الرواية ولا يعلم محل قراقر وسوى يظن أن خالداً سار الى الشام على ضفة الفرات اليمنى ، من ناحية البادية أي طريق القوافل من الانبار الى السخنة فأرك ، فتدمر ، فحوارين ، فقصم وانتهى الى مرج راهط وهذه الطريق طويلة وتكثر فيها المياه .

ولنثبت المواقع التي وردت في رواية المدائني . أما صندوداء ولم يثبتها ياقوت واكتفى بذكر الوقعة ، فقال ان خالداً سار يريد الشام فأتى صندوداء وبها قوم من كندة وإياد والعجم فقاتلهم . وثبت موسل صندوداء في محل المشهد الحالي الواقع شرقي الرمادي على بعد خمسة كيلومترات وذكر ابن منقذ في كتابه الاعتبار انها كانت ضاحية من ضواحي الانبار وذكر كتاب المراصد انهـا في الضفة الغربية للفرات في أعلى الأنبار .

لم تضبط المعاجم والتقاويم المصيّخ و لمصيّد وذكر ياقوت ان المصيخ بين حوران والقلت ، وحوران هذا هو وادي حوران الذي يجري من بادية الشام . ويصب في نهر الفرات بين جُبّة وآلوس - وأضاف الى ذلك مُصَيّخ بهراء فقال ان خالداً ورده بعد سوى . وذكر عن الحصيد انه موضع بأطراف العراق من جهة الجزيرة . وقال نصر إنه واد بين الكوفة والشام . ولكن موسل استند الى رواية سيف بن عمر الباحث عن فتوح خالد في الفرات الأوسط قبل بلوغه الشام والتي اعتبرها موثوقة لأنها تدل بجملتها على أن رواة سيف كانوا عالمين بجغرافية البلاد حق المعرفة .

ذكر موسل انه لم يجد المصيخ ولكنه ثبت موقع القلت وهو واد صغير يسمى الآن (ابو قلته) يلتقي بالفرات جنوبي هيت . والطريق بين عين التمر والسخنة يقطعه . وما دام موقع المصيخ بين القلت ووادي حوران كما أشار ياقوت أي على الطريق التي سار فيها خالد قبل التقائه بجموع تغلب في المصيخ ، فينبغي ان يكون على هذا الطريق . قال موسل انه لم يجد محلاً باسم المصيخ ولكنه وجد محلاً فيه ماء كثير ، يسمى الآن (عين الأرنب) وكان المحل هذا لقبيلة نمر وورد ذكره في الأغاني[1] . لم يثبت موسل موقع الحصيد ويظهر من رواية سيف التي عرضت لغزوات خالد بين الأنبار وجبل البشر أنه أقرب الى عين التمر منه الى المصيخ ، لهذا ينبغي ان يكون شمالي عين التمر وجنوبي القلت .

واذا ما درست رواية المدائني بعد تثبت موقعي صندوداء والمصيخ يتضح ان خالداً لما أخذ أمر ابي بكر لم يتوجه من عين التمر رأساً الى الشام وتوجه أولاً الى صندوداء فقاتل من تجمع فيها ، ثم توجه الى الحصيد والمصيخ ولقي جمع تغلب وغيرهم فيها وتغلب عليهم ، ثم غير وجهته وذهب الى قراقر ففوز الى سوى .

(١) البادية العربية ص (٣١٠) Arabia Dezerta .

لماذا يتوجه خالد من عين التمر الى صندوداء وقد أراده ابو بكر على الشخوص الى الشام فقطع مسافة تسعين كيلومتراً ؟ ثم توجه الى المصيخ والمسافة بينه وبين صندوداء مائة وخمسون كيلومتراً ، لأنه مرّ ببردان والحنى كما ذكره سيف بن عمر؛ والطريق الى المصيخ يمر بهما . والمعقول أن يتوجه خالد من عين التمر تواً الى قراقر ، ما لم تبلغه أمور تستدعي حضوره الى صندوداء ورأى انه لا بد من البت فيها قبل السفر . والمسافة بين المصيخ وقراقر خطاً نحو من اربعمائة كيلومتر . واذا وقع هذا فعلاً فإن شخوصه الى أرك بعد تفويزه من قراقر الى سوى لا يمكن قبوله على ما أشرنا الى ذلك حين نقد رواية الواقدي . لهذا ينبغي أن تعتبر أعمال خالد في صندوداء والحصيد والمصيخ أعمالاً قام بها قبل استلامه أمر ابي بكر بالسفر الى الشام . أما أعماله في أرك وتدمر والقريتين وحوارين وقصم فلا بد أنها وقعت بعد انضمامه الى جيش المسلمين وفتح بصرى وأجنادين .

ويفهم من كل ما ذكرناه آنفاً ان زعم القائلين ان خالد بن الوليد شخص من العراق الى الشام عن طريق (أرك ــ تدمر ــ القريتين ــ حوارين) زعم خاطئ .
واذا نظر المرء خريطة مواقع الرومان في بادية الشام والمصورات التي وضعها مؤلف كتاب طبوغرافية سورية في القرون القديمة والقرون الوسطى يرى أن أماكن الحصون والقلاع والمخافر التي أقامها الرومان على ذلك الطريق من الفراض الى دمشق منتشرة في شمال الطريق الروماني والى جنوبه وتكاد لا توجد قرية أو بئر الا وعليه حصن أو معقل أو مخفر . صحيح أن الروم كانوا قبل الفتوحات العربية قد تغلبوا على الفرس بقيادة الامبراطور هرقل وانهم لم يعودوا يخشون بأس الفرس ولا سيما وكانت فارس وقتئذ تموج بثورات داخلية وانقلابات؛ غير ان قبائل تغلب المعادية من جهة ، وسعي الأهلين الى الدفاع عن أموالهم وماشيتهم وامداد الروم لهم من المراكز العسكرية الخطيرة كالفراض

وتدمر والرصافة من جهة أخرى لا تدعو خالداً الى المجازفة بقوته القليلة بالسير في تلك الطريق . يضاف الى ذلك أن قبائل تغلب كانت تستطيع دائماً ، كما أشار موسل ، أن تطمر الآبار في طريق خالد وتفسد ماءها .

فكيف يتسنى لخالد أن يجتاز أرضاً معادية له في سفره من الأنبار الى تدمر والمسافة بينهما خمسمائة كيلومتر ؟ واذا لم يسلك الطريق البعيدة عن ضفة الفرات ، فينبغي له أن يمر ببوادي الفرات ويصطدم بالقرى المحصنة ، ويبدو من رواية الواقدي انه لم يجرؤ على مقابلة من تجمع من أهل قرقيسا بقيادة بطريقها فتركهم وانحاز الى البر . هكذا يتضح مما ذكرناه آنفاً ان الأعمال التي قام بها خالد والتي حدثت في أماكن بعيدة عن طريق سفره الى الشام سواء أكانت طريق (الحيرة ـ قراقر ـ سوى ـ مرج راهط) أم طريق (عين التمر ـ قراقر ـ سوى ـ مرج راهط) ما هي الا فتوحات وقعت قبل سفره أو بعد سفره . وقدمنا القول ان الطرق التي تقطع بادية الشام من الشرق الى الغرب لا يصح الركون اليها في سفر خالد لأن مياهها قليلة لا تستطيع الخيل أن تسير فيها .

السبب الذي حدا بخالد على التفوز :

أي الطريقين سلكها خالد ؟ طريق (الحيرة أو عين التمر ـ قراقر ـ سوى ـ مرج راهط) او طريق (الحيرة او عين التمر ـ دومة الجندل ـ قراقر ـ سوى ـ مرج راهط) . وما هو السبب الذي حمل خالداً ، بعد بلوغه قراقر ، أن يفوز الى سوى بدلاً من ان يسير في طريق القوافل المارة بوادي السر ، التي تنتهي ببصرى أو بأذرعات ؟

روى ابن اسحق أن خالداً أخذ كتاب ابي بكر في الحيرة فتوجه الى عين التمر ومنها سار الى قراقر ففوز الى سوى ثم توجه الى مرج راهط . لم يذكر ابن اسحق المنازل التي نزل بها خالد بين عين التمر وقراقر . ترى هل سار

بطريق (عين التمر ـ الأخدمية ـ الخفية ـ الخلط ـ قراقر) التي ذكرها ابن خرداذبه وثبتها موسل بالأسماء الشائعة الآن ، أي (عين التمر ـ شعيب الخذمية ـ غدير الخليط ـ خفاية لاهة ـ قراقر) ؟ ام انه سار بطريق (الحيرة ـ الرهيمة ـ البجيث ـ القراي ـ الخنفس ـ الحسية ـ الفرنقة ـ القراقر) ، وقد ثبته موسل بالاسماء الشائعة كما يلي : (الرهيمة ـ البريت ـ غدير الغرابي ـ عمارة الخنفس ـ بريكة أم أحسية) .

أما الطريق الأول وهو الطريق الشمالي فلا يختلف كثيراً عن الطرق الشمالية الأخرى التي تقطع البادية من الشرق الى الغرب لأن الماء فيها قليل لا يتأتى لقافلة كبيرة أن تسير عليها ، لا سيما اذا كان فيها خيل . أما الطريق الثانية فمع أنها أحسن من الطريق الأولى فلا يحتمل ان خالداً سلكها . ولو لم يذكر سيف بن عمر والواقدي وموسى بن عقبة ومصعب بن عبد الله في رواياتهم ان خالد بن الوليد مر بدومة الجندل لجاز لنا ان نميل الى أن خالداً سلكها . وقد أيد موسل ان الماء مفقود فيها في مسافة اربعمائة وخمسين كيلومتراً أي من البريت الى قراقر ، لهذا من المستبعد جداً ان يمر بها خالد والموسم كما سيتضح لنا بعد حين ، ليس موسم امطار . اذن لم يبق الا طريق (الحيرة ـ دومة الجندل ـ قراقر ـ سوى ـ مرج راهط) والقسم الأول منه الى قراقر تسير فيه القوافل وفي منازله مياه كثيرة في الآبار والبركات الكبيرة . انه طريق طويل ولكنه امين .

قلنا ان ابن اسحق لم يذكر في روايته المراحل بين عين التمر وقراقر ويدل هذا السكوت على ان خالداً مر بالطريق العادية اي طريق (الحيرة ـ دومة الجندل ـ قراقر) بحيث لم ير الرواة حاجة لذكر المنازل لأنه لم يحدث فيه احداث من قتال او فقدان ماء مما يستدعي ان تبقى محفوظة في محفوظ الرواة

فينقلوها ولا سيا اذا اعتبرنا ان فتح عين التمر الذي ذكره ابن اسحق تم قبل ان اخذ خالد كتاب ابي بكر بالسفر الى الشام ٠

وهذه الطريق تبدأ من الحيرة مارة بالرهيمة والقرعاء ووقصة وحبكة والصوير وسكاكة والقارة وتنتهي بدومة الجندل ، ثم تمر بوادي السر الى قراقر ٠ والقرى والمياه موفورة في الوادى الذي يعد من الواحات المشهورة في بادية الشام لكثرة المياه فيه ٠ وتبلغ المسافة من الحيرة الى قراقر اكثر من ستمائة وخمسين كيلومتراً ٠

ما هو السبب الذي حدا بخالد على ان يترك الجادة بين دومة الجندل وبصرى وهو الطريق الممتدة نحو الشمال الغربي وينحرف من قراقر الى الاتجاه الشمالي ويفوز الى سوى في ارض : « اذا ما سار فيها الجيش بكى ما سار فيها من قبل إنسي يرى »

ويبدو من رواية ابن اسحق ان الدليل (رافع) حذر خالداً من اجتياز هذه المفازة وقال له : « انك لم تطق ذلك بالخيل والأثقال ٠ والله ان الراكب المفرد ليخافها على نفسه ، وما يسلكها الا مغوراً ؛ انها خمس ليال جياد ، لا يصاب فيها ماء مع مضلتها ٠ » ٠ وعلى الرغم من تحذير رافع هذا لخالد فانه أصرَّ على رأيه ٠ ويتضح من رواية سيف بن عمر ان رجال خالد بعد ما سمعوا أقوال رافع ترددوا ، الى أن قام خالد بهم خطيباً ، مشحذاً لهمتهم ٠ لم يذكر ابن اسحق سبب انحراف خالد عن الجادة ولكن سيف بن عمر ذكره بقوله ان خالداً كان يريد طريقاً يخرج به وراء الروم ولا يريد ان يستقبلهم فيمنعونه من غياث المسلمين ٠

لا نعلم على وجه الصحة المواقع التي كان المسلمون مجتمعين فيها في الشام أثناء سفر خالد ٠ والذي أثبتته الروايات ان خالد بن الوليد لما خرج من مرج راهط وانتهى الى قناة بصرى التقى بالمسلمين فيها ٠ واختلفت الروايات فيمن كان

حاضراً في بصرى . فابن اسحق روى ان اباعبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن ابي سفيان كانوا على بصرى . اما رواية سيف بن عمر فتنص على ان خالد بن الوليد ، وحده فتح بصرى . ولم يذكر الواقدي من كان من المسلمين في بصرى واكتفى بأن قال انه قيل ان خالداً أتى الجابية وبها ابوعبيدة في جماعة ، فالتقيا ومضيا جميعاً الى بصرى . وأما المدائني فتنتهي روايته بوصول خالد الى مرج راهط ، وروى موسى بن عقبة ان خالداً قدم الشام وبه يومئذٍ ابو عبيدة . واكتفى اليعقوبي بقوله ان خالداً بعد ان فوز وافى المسلمين فافتتحوا بصرى . وروى اللالطائي ان خالداً خرج من ضمير فوجد المسلمين في الجابية . وذكر ابن عساكر ان ابا بكر أمر خالداً ان يأتي الشام فيلقى بها اباعبيدة ومن معه من المسلمين . واكتفى ابن خلدون بالقول ووافى خالد المسلمين مكانهم عندما وصل ماهان الروم ايضاً .

لا جرم ان من الصعب اثبات مواقع جند المسلمين في الشام اثناء سفر خالد . اما ان يكون جند المسلمين في الجابية حين وصول خالد الى الشام فلا نحسب انه صحيح ، ومن أشاروا الى ذلك كانوا رواة جعلوا معركة اليرموك في سنة ثلاث عشرة من الهجرة وذكروا أنها كانت بعد وصول خالد الى الشام . على حين ثبت ان معركة اليرموك وقعت في سنة خمس عشرة وان معركة اجنادين وقعت في جنوبي فلسطين سنة ثلاث عشرة ، أي بعد نجدة خالد جيش المسلمين[1] . ورواية أن اباعبيدة كان في بصرى قبيل وصول خالد اليها ، رواية تحتاج الى تمحيص ، لأن خبر مجيء ابي عبيدة الى الشام في سنة ثلاث عشرة غير متفق عليه . والثابت ان ابا بكر أوفد اباعبيدة الى الشام بعد تسريح الجنود اليها بمدة غير قصيرة . وهناك ما يشير الى أن ابا بكر أراد أن يعقد لأبي عبيدة فاستعفاه من ذلك .

(١) أفضنا في مقال لنا نشر في مجلة المجمع العلمي العراقي ، (العدد الثاني) .

ذكر البلاذري ان الثابت ان عمر ولّى اباعبيدة الشام كله حين استخلف ٠ ومن المعلوم ان عمرو بن العاص لما لقي مقاومة عنيفة في جنوبي فلسطين انسحب الى الغمر ، الواقع في وادي العربة في انتظار ورود المدد ؛ ولعل شرحبيل بن حسنة الذي وجهه ابو بكر الى كورة الأردن كان معسكراً قريباً من الغمر ٠ أما يزيد بن ابي سفيان الذي وجهه أبو بكر الى البلقاء فكان يقيم مع جنده فيها ، ينتظر ورود خالد ٠ لهذا نحسب ان خالداً عندما وافى قناة بصرى كان يزيد بن أبي سفيان قد وصل اليها بعد أن بلغه خبر وصول خالد الى الشام ٠ ويجوز ان خالداً بعد وصوله مرج راهط وتغلبه على الغسانيين أرسل رسولاً الى يزيد بن أبي سفيان وطلب اليه أن يتقدم نحو بصرى ٠

يتراءى لنا أن جند العرب كانت معسكرة في شرقي الأردن من الغمر الى البلقاء ٠ وفي رواية سيف بن عمر أن خالداً كان يريد أن ينفذ الى الشام من محل ليس للروم فيه معاقل وحصون حتى لا تحبسه عن نجدة المسلمين ٠ وقد يسأل سائل لماذا لم ينفذ خالد الى المسلمين ، اذا كان يعلم انهم مرابطون في شرقي الأردن ؟ فيتوجه غرباً من الطريق الأقصر ، والمسافة بين قراقر وموآب (قرب الكرك) مائتان وستون كيلومتراً أي من أربع مرحلات ٠ ويدل صدوف خالد عن الذهاب الى موآب انه علم ان المسلمين لم يكونوا فيها ، وانما تقدموا الى الشمال ٠

ولا يستطيع خالد أن ينفذ الى المسلمين من هذا الطريق من دون ان يصطدم بالحصون والقلاع والمخافر التي كانت تحمي شرقي الأردن من جهة البادية ٠ ولم تكن هذه البلاد وقتئذٍ تحت سيطرة المسلمين لأنهم كانوا في بداية الفتوح ٠ ويظهر من الروايات ان قصبة موآب لم تفتح الا بعد سقوط بصرى ٠ أضف الى ذلك أن الروم بعد اصطدامهم بالمسلمين في جنوبي فلسطين لا بدّ انهم احتاطوا فسدوا منافذ البادية من جهة الشرق وحثوا أهل البلاد على الدفاع عنها بالاشتراك

معهم . لهذا لا يعقل ان خالداً بعد وصوله الى قراقر متكتماً ، يقتحم بلاد الشام في منطقة لا بد له من الاصطدام بحصونها ومناجزة أهلها . ويتضح من عزمه على النفوذ الى الشام بطريق (قراقر ـ سوى) انه كان يرى مباغتة الروم في النفوذ اليهم من باب لم يتوقعوا ان يتسلل المسلمون منه .

ذكر موسل في كتابه البادية العربية [1] : ان البدو يدخلون الشام من بادية الشام من منفذين : المنفذ الأول في جنوبي غربي بصرى وجبل حوران . والثاني في شمالي شرقي دمشق بين سلسلة الرواق وتلول الاعطيات . وفي المنفذ الأول تحدد شعبان الزرقاء من جهة وجبل حوران من جهة أخرى حركة البدو . لقد اختط خالد في اول الأمر ان يدخل سورية من المنفذ الأول ، ولما علم ان العدو يسد منافذه غيّر اتجاهه الى المنفذ الثاني أي انه بمروره بطريق (الحيرة ـ دومة الجندل) [2] أراد أن يسلك وادي السر حتى يبلغ أذرعات وهي باب الشام من الجنوب الشرقي .

واذا سهل الوصول الى المنفذ الأول بالمرور من وادي السرحان وفيه مياه كثيرة ، فمن المتعذر الوصول الى المنفذ الثاني الا بعد هطول أمطار غزيرة في الشتاء تملأ الأودية والجوابي . شمخ جبل حوران بتممه بين المنفذين المذكورين، في شرقه المنطقة البركانية المخيفة التي قامت حافتها سوراً أسود يتجه في سمت الشمال .

ويبلغ عرض المنفذ الأول نحو ثلاثين كيلومتراً يحده من الغرب جبال الزرقاء الوعرة ومن الشرق الحمم البركانية ولقد شيدت قلعتا بصرى وعمان وأقيمت حصون الحراني والأزرق والخلابان للدفاع عنه . وكان الروم يحتلون

---

(١) البادية العربية Arabia Deserta ص (٥٥٧ — ٥٥٨ — ٥٥٩) .

(٢) تشير رواية عبد الوهاب بن مبارك الى ان خالداً سار من الحيرة الى قراقر بطريق دومة الجندل ، ابن عساكر : الجزء الثاني (ص ١٢١٩) .

هذه القلاع والحصون ، وكان العرب المتنصرة يرابطون في أطرافها . ولا بد من أن خالداً علم ذلك من عيونه .

يقع ماء قراقر على الطريق الموصل الى المنفذ الأول ، بينما تقع سوى على الطريق الموصل الى المنفذ الثاني . والذي يسير من قراقر الى سوى يتوجه أولاً الى الشمال الشرقي ويسير خمسين كيلومتراً في منطقة بركانية ، ثم يجتاز مفازة طولها خمسة أيام متوجهاً الى الشمال من دون انحراف . وفي الأيام الأربعة الأولى يشاهد المسافر عن يساره كتلاً من الحمم ، قامت فيها قنن منفردة ، وعرة تهدي خطاه . وفي بداية اليوم الخامس يرى ان الحمم توجهت الى الشمال الغربي نحو المنفذ الثاني . وينبغي له هنا ان يترصد الأطراف بدقة للعثور على الوادي الضحل وفيه آبار (سبع بيار) .

ويظهر مما ذكره موسل ان للقادم من بادية الشام منفذين للدخول الى أرض الشام ، منفذ جنوبي بين جبل حوران في الشرق وجبل عجلون في الغرب ومنفذ في الشمال بين سلسلة الرواق الممتد نحو الشمال الشرقي من ضمير الى تدمر وبين الحرات التي تبدأ من جنوبي ضمير وتمتد الى الجنوب موازية جبل حوران حتى جنوب قراقر . ويستطيع المسافر المنفرد أو جماعة ان يدخل الى بلاد الشام من محال أخرى ولكن قوة كبيرة فيها فرسان على ظهور الخيل لا تنفذ الى الشام إلا من المنفذين المذكورين لأن طريق دومة الجندل وطريق تدمر هما طريق القوافل لنقل التجارات بين العراق والشام .

ويلوح لنا أن خالد بن الوليد اعتزم حين استلامه أمر ابي بكر أن يسير الى الشام من طريق دومة الجندل وكان قد افتتحها في السنة الماضية ووطد أقدام المسلمين فيها ولا بد أن أهلها ذكروا له أخبار القتال في جنوبي فلسطين وحشد الروم جيوشهم واستنفارهم للغسانيين . والعرب المتنصرة الآخرين وانزالهم المرتزقة العرب في بعض الأماكن والحصون . لقد ذكر تثوفانوس ان العرب كانوا

ناقرين من بيزنطية لأنها قطعت أعطياتهم بسبب ضعف المالية في الامبراطورية بسبب حرب الفرس . وزعم ان هذه النفرة ساعدت المسلمين على فتوحاتهم صحيح ان بيزنطية لم تكن في وضع مالي حسن وانها لم تستخدم المرتزقة كالسابق بعد انتصاراتها العظيمة على الفرس في عهد هرقليوس ولكنها حين علمت بغزو العرب جنوبي الشام كان ينبغي لها ان تستخدم بعض المرتزقة وتقدم الأعطيات للغسانيين وغيرهم ممن خدموها في حروبها مع الفرس . وهناك روايات تشير الى ان خالد بن سعيد حينما توغل في مشارف الشام من دون أن يحتاط ، باغته العرب من مناصري الروم وهزموه . ولا يستبعد أن خالداً علم من أهل دومة الجندل أخبار الروم فأدرك أن الدخول الى الشام في المنفذ الجنوبي صعب وأنه ليس من الحزم المجازفة بقوته في اختراق الحصون التي توصد في وجهه باب ذلك المنفذ ، كقلعة بصرى وغيرها . ولعل أخبار الروم وصلته في طريقه من دومة الجندل الى قراقر ، لأن أهل وادي السر كانوا على اتصال مستمر بالشام . ولما وصل قراقر اختمرت في رأسه فكرة الدخول الى الشام من منفذ آخر يخرج منه وراء جموع الروم ، فطلب الى الدليل رافع بن عميرة الطائي أن يدله على الطريق ، فعزم أن يقطعه رغم الصعوبات التي سيلاقيها في طريقه هذا . ونشأت الصعوبة في قطع المفازة بين قراقر وسوى في تدبير الماء للخيل لأنه ليس في المفازة ماء ولأن الوقت ليس موسم الأمطار كما سيظهر لنا .

كيف دبر خالد أمر الماء في قطعه المفازة ؟

لقد دُبّر أمر الماء على الطريقة التي كانت شائعة في غزوات البدو . والبدو كان من عادتهم اذا اضطروا الى اجتياز مفازات في غزواتهم يجعلون أجواف بعض إبلهم مخازن ماء سيارة ، لا سيما اذا أرادوا أن يباغتوا عدوهم ويخرجوا اليه من أماكن لا يتوقع خروجهم منها . وطريقة تدبير الماء تتلخص

في ارواء الجمال العظام ، السمان المسنة ، بعد أن يظمأن أو يجهدهن العطش وذلك بسقيهن نهلاً وعللاً ، ثم بشد أفواههن حتى لا يجترون فيفسدن ما في كراشهن من الماء .

وفي هذا الصدد ذكر موسل[1] ما يلي : «ان البدوي اذا أراد أن يهيج ظمأ الناقة يأخذها الى محل الماء ويعقلها قريباً منه ويصب الماء في الوعاء الذي تشرب منه ، ثم يضرب الماء براحته ، ويحرضها على الشرب بالشدي (أغنية قصيرة) وبتصفيق خاص . ترى الناقة كل ذلك وتسمعه ولكنها لا تستطيع الوصول الى الماء ، لهذا تمد أذنيها شوقاً الى الماء .. يتدرب كثير من الابل بهذا التحريض والتصويت وفي تفهم بسليقتها انها تعدُّ لسفر طويل في صحراء قاحلة وان عليها أن تشرب وتعبّ كثيراً . واذا عقلت النوق وسمعت ما اعتادت سماعه من التصفيق والغناء مدت آذانها نحو الماء وأظهرت لهفتها الى الماء بأنين خاص . وبقدر ما يكون الماء قريباً منها فان المرحلة أمامها طويلة وانها لن يعثر فيها على ماء . واذا أحلّ عقالها أسرعت الى الوعاء وشربت جرعات طويلة كبيرة . فيصب صاحبها الماء في الوعاء ما دامت تشرب . ثم يبعدها عن الماء ويتركها ترعى .. ولشدة ما يجهدها العطش ، تختلج ، ثم يفك عقالها فتشرب مرةً أخرى . وبهذه الطريقة تشرب الناقة السمينة العظيمة من ستين الى سبعين لتراً من الماء . وأخيراً يشد افواهها لكيلا ترعى وتجتر فيختلط الماء بالكلأ في أكراشها» . هكذا تُسقى في المرة الأولى نهلاً وفي المرة الثانية عللاً .

ويتضح مما قاله موسل ان كايتاني لم يصدق الروايات القائلة بشق كراش الابل في كل يوم وشرب ما في كراشها رغم اجماع الرواة . وعد خبر الروايات هذه من نسج الخيال ، وقال انه اذا كان الغرض هو حمل الماء ، فلا حاجة لهذا العمل الفظيع ، لأن الجمل يحمل على ظهره من الماء أكثر مما يشربه مرات .

(١) البادية العربية ، ص (٥٧٠) .

ولكن موسل شجب قول كايتاني قائلاً : ان كايتاني نسي ان القرب كانت مفقودة عند خالد ، لأنه حينما غادر الحيرة لم يأخذ القرب معه ، لأن الطريق التي سار بها من الحيرة الى قراقر كانت عامرة بالمياه للرجال والخيل والجمال . ولكنه حينما اعتزم في قراقر أن يفوز الى سوى كان لا بد له من أن يفكر في سقي الخيل في المفازة لأنها لا تحمل العطش .

والإبل اذا سقيت نهلاً وعللاً على الطريقة المذكورة فانها تحمل العطش . وفي وسع الرجال أن تحمل ماءها على ظهور دوابها . وليست قراقر بلداً توجد فيه القرب وفيها الماء فقط . لهذا استعمل خالد الطريقة الشائعة في البادية . ويبدو مما ذكره موسل أنها لا تزال شائعة عندهم . واذ لم تكن القرب متيسرة في قراقر حملت الإبل الماء في جوفها بدلاً من أن تحمله على ظهورها . وذكر موسل انه ليس في عمل خالد ذلك شيء يستدعي العجب ، لأن قوته كانت بحاجة الى الطعام ؛ فالإبل التي تنحر وتشق بطونها يأكل الجند لحومها . أما الماء الذي يستخرج من كراشها فبعد ركوده يصلح لشرب الخيل واذا ما مزج بلبن النوق كما أشار اليه سيف بن عمر في روايته يشربه الرجال .

واذا كان عدد الإبل التي استخدمت للماء وللنحر خمسين دابة وشرب كل منها ستين ليتراً من الماء فتكون قد حملت ثلاثة آلاف لتر من الماء ، أي مايكفي لارواء مائة جواد خمسة أيام . وأضاف موسل قائلاً ان أرض المفازة اذا أمطرت في الشتاء يسقط الجواد على الكلأ وهذا ما يجعل ستة لترات من الماء ترويه يومياً .

وبعد أن دبر خالد أمر الماء تقدم نحو سوى . لم يذكر ياقوت اسم سوى . أما البكري فقد رسم سوى بفتح أوله ؛ ويظهر مما كتبه انه ماء ولكنه لم يحدد موقعه . وفي بيت للنابغة انه في ديار كلب :

بجالة الدنابة أو سوى مضنة كلب من مياه المناظر ؟

وقد جعله موسل كما تقدم في أرجاء سبع بيار على طريق السيارات بين الرطبة وخان ابي الشامات . وقد شيد الافرنسيون فوق الرابية المشرفة على الشعيب مخفراً للدرك . والمخفر يرى على يمين الطريق للقادم من الرطبة والبدو يلفظونه كما رأى موسل بسكون أوله . وفي رواية لسيف بن عمر ان مُحرز بن جريش المحاربي ولعله من أهل تلك الديار قال لخالد : « اجعل كوكب الصبح على جانبك الأيمن ثم أمه تفض الى سوى . » وقد أكد عبد العزيز العقيلي ان المسافر من قراقر اذا وضع نجمة الصباح على جانبه الأيمن يصل الى سبع بيار .

(يتبع) طه الهاشمي

---

(١) بادية العرب ، (ص ٥٠٩) .

تاريخ فكرة إعجاز القرآن

منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر؛ مع نقد وتعليق

— ٤ —

٥ — القمي المفسر :

وممن بحث هذا الموضوع في هذا العصر القمي حسن بن محمد (٣٧٨) المفسر وقد سبق أن ذكرنا أنه يعالج الموضوع على طريقة المتكلمين أكثر مما يعالجه على طريقة المفسرين . وكان مثالاً لغيره من المفسرين الذين وسعوا ميدان علم التفسير باستمداد بعض براهينهم من علم الكلام وعلم الفلسفة، وأشرنا الى الفرق بينه وبين الطبري في بحث هذا الموضوع .

وذكر عبد العليم الهندي (في مقالته السابقة) أن القمي يؤكد بأن طبيعة هذه المعجزة يمكن فقط أن تعرف ولا يمكن أن توصف شأن القطعة من الذهب الصافي أو جمال الوجه . وكل شخص ـ في رأيه ـ يقول غير هذا وينكره ويحاول أن يبرهن أن الإعجاز كان بالصرفة أو الخروج عن أنواع الكلام المعروفة أو الخلو من التناقض أو الإخبار عن الغيب هو مخطئ مطلقاً .

٦ — الواسطي الأديب المتكلم :

يؤلف في هذا العصر أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (٣٠٦) كتاباً في إعجاز القرآن البياني يقول فيه : إن القرآن معجز بالنظم . والكتاب مفقود . ولم أجد من تكلم عن فكرة المؤلف بالتفصيل . وذكره الرافعي فلم يزد على أن قال إنه قد سبق عبد القاهر الجرجاني الى التأليف في هذا الوجه من الإعجاز وإنه أول من جود في هذا المذهب ـ أي مذهب أن القرآن معجز بالنظم ـ

ثم تبعه الرماني (٣٨٢) وأنه - أي الواسطي - بسط القول فيه على طريقتهم في التأليف . وذكر الرافعي كما ذكر عبد العليم المندي أن الجرجاني شرح كتاب الواسطي شرحاً كبيراً سماه « المعتضد » وشرحاً أصغر منه وذلك قبل أن يضع كتابيه « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » . ويعقب الرافعي على ذلك بقوله : « ولا نظن الواسطي بنى إلا على ما ابتدأه الجاحظ كما بنى عبد القاهر في دلائل الإعجاز على الواسطي » . ومن الواضح أن الرافعي يدلي بحكمه هذا وليس بين يديه كتاب الواسطي (إعجاز القرآن للرافعي ص ١٥٣) . ولا ندري علامَ اعتمد الرافعي في قوله بأن الواسطي هو أول من جوّد في هذا المذهب .

٧ - الرمّاني الأديب المتكلم :

وممن ألف في الاعجاز في هذا العصر علي بن عيسى الرمّاني وقد ذكر كتابة صاحب الفهرست ومنه نسخة في استامبول حصل على نسخة منها عبد العليم المندي وقال (في مقالته السابقة) : إنه سيطبعها قريباً .

وقد ذكر الرافعي أنه المؤلف الثالث الذي ناصر قضية الأسلوب والنظم بعد الجاحظ والواسطي وقال إنه بذلك رفع الرأي درجة ثالثة . (إعجاز القرآن للرافعي ص ١٥٣) .

وذكر ابن سنان الخفاجي (في كتابه سر الفصاحة) رأي الرماني في الاعجاز فقال إن الرماني جعل مراتب الكلام في تأليفه ثلاثاً : متنافراً ومتلائماً في الطبقة الوسطى ومتلائماً في الطبقة العليا والقرآن كله متلائم في الطبقة العليا وذلك بيّن لمن تأمله والفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى ويفهم من هذا أن الإعجاز عند الرماني يقوم على تلاؤم الألفاظ .

وذكر يحيى اليمني صاحب الطراز رأي الرماني في الإعجاز (كتاب الطراز

ليحيى اليمني ج ٣ بحث الإعجاز ، في نقد المذهب السابع «وجوه الإعجاز» فقال عند نقده مذهب القائلين بأن القرآن معجز ببلاغته : «وإن أرادوا أنه بليغ بالإضافة الى معانيه دون ألفاظه فهو خطأ لأنه صار معجزاً باعتبار ألفاظه ومعانيه جميعاً ، وغالب ظني أن هذا المذهب يحكى عن أبي عيسى الرماني» .

ونرى من هذا أن صاحب الطراز قد ألبس علينا الأمر فلم يتضح من جملته أي مذهب مذهب الرماني في إعجاز القرآن من حيث البلاغة ، أهو مذهب أن البلاغة في المعاني دون الألفاظ ، أم في الألفاظ والمعاني معاً فضلاً عن أنه بنى قوله على غلبة الظن فلا يمكن الاعتماد عليه .

وذكر السيوطي (الاتقان ج ٢ ص ١٩٨ وما بعدها) رأي الرماني فقال إن الاعجاز عنده بالصرفة والإخبار عن الأمور المستقبلة ونقض العادة وقياسه بكل معجزة وإنه فسر نقض العادة باتيان القرآن بطريقة مفردة من النظم خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق بها كل طريقة وتفوق الموزون الذي هو أحسن الكلام وفسر قياسه بكل معجزة بما معناه أنه أدى إلى ما أدت اليه المعجزات من عجز الناس عن الإتيان بمثلها .

ونجد أن السيوطي من بين من ذكروا رأي الرماني هو أقربهم من الصواب في معرفة رأيه . فعبد العليم الهندي لخص رأيه (في مقالته السابقة) فذكر ما ذكره السيوطي وزاد عليه أيضاً أنه معجز لأنه لم يعارضه شخص برغم الدواعي الكثيرة والحاجة الملحة والتحدي العام ثم لاتصافه بالبلاغة التي يمكن إدماجها تحت اسم النظم الحسن الذي ذكره السيوطي .

وقال عبد العليم الهندي بعد أن أورد رأي الرماني : «ونرى هنا كيف أن الرماني جمع بين حجتي الأسلوب والصرفة اللذين ينفي الواحد منها الآخر وهذه النقطة في التعارض قد ضاعت على مرور الزمن وأصبح يمكن أن يوضع نظريتان متعارضتان جنباً الى جنب» . ثم قال :

« ويعرض - أي الرماني - في مسألة الأسلوب هذا السؤال وهو : كيف يستطيع المرء أن يكتشف أن أسلوب القرآن فوق طاقة البشر ؟ وأول جواب على هذا أن ذلك يتعلق بذوق الشخص والذين حصلوا على ذوق قويم في الأسلوب العربي هم وحدهم قادرون على التأكد من ذلك وأما العامة والأعاجم فلا يستطيعون التأكد من هذه الحقيقة وإنما يعتمدون على آراء أولي العلم » .

ونلاحظ في رأي الرماني في الإعجاز اتجاهاً جديداً وهو جمعه لكثير من النظريات التي قيلت قبله ، فهو لا يأخذ بناحية وينقد الأخرى أو يرفضها بل يقبل كل ما قيل في الأمر على علاته فكأنه في هذا يوفق بين الآراء المختلفة كما نلاحظ أن تركه مسألة الحكم في المفاضلة بين الأساليب إلى الذوق الأدبي وحده دليل على نضج ذوقه في البيان وحسن فهمه للأدب .

٨ - الخطابي :

ويأتي بعد الرماني معاصره الخطابي (٣٨٨) وهو ممن جمع بين الكلام في البلاغة وعلم الكلام وألف كتاباً في الاعجاز . توجد منه نسخة في ليدن وذكر رأي الخطابي في البلاغة وذكر الرأي نفسه السيوطي قبله في الإتقان ؛ قال السيوطي : (الاتقان ج ٢ ، ص ١٩٨) وقال الخطابي : « ذهب الأكثرون من علماء النظم الى أن وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة لكن صعب عليهم تفصيلها وصغوا فيه الى حكم الذوق ثم يذكر ما مؤداه أن كلام القرآن جمع بين المتضادين الجزالة والسهولة ليكون آية للنبي وإنما عجز العرب عن الإتيان بمثله لأنهم لا يستطيعون أن يحيطوا بالألفاظ في العربية وتأدية المعاني في وجوه الكلام المختلفة وأن القرآن جمع جمال الألفاظ الى حسن النظم وسمو المعاني مجموعة في كلام واحد هو كلام العليم القدير ولم تجتمع في غيره » ثم يعدد ما تضمنه القرآن من المعاني المختلفة بالتفصيل وبخاصة إخباره عن الغيب والأمور المستقبلة . ومن الجميل في رأيه قوله : « وقد قلت في إعجاز القرآن وجهاً ذهب عنه الناس

وهو صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ذوي الروعة والمهابة في حال آخر ما يخلص منه اليه . قال تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » وقال : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » .

ونلاحظ على الخطابي أنه جمع بين أقوال مختلفة قيلت في القرآن ولكن بعضها لا يناقض بعضاً ويدل جمعه إياها على معرفة عميقة بجمال الكلام وبالبلاغة الحقيقية . وفهمه لما قريب مما نفهمه نحن الآن من صفات الأدب الرفيع : معان سامية وأسلوب محكم جميل وعاطفة قوية تؤثر في القلوب . وقد أنقص من صفات هذ الأدب عنصر الخيال وربما كان ينحل عنده فيدخل قدم منه في المعنى وقسم منه في الأسلوب فيكون مفهومه عن البلاغة قريباً جداً من الكمال .

٩ — العسكري :

يرى أبو هلال العسكري أن إعجاز القرآن ببلاغته ولذلك ارتأى ضرورة دراستها . قال ابوهلال (البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ، الخولي : ص ٢٨) : « البلاغة إنما تدرس لأن إغفالها يؤدي إلى عدم وقوع العلم بإعجاز القرآن على وجه استدلالي تعليلي والقول في ذلك بالتقليد غير مقبول عنده ولا لائق لأنه قبيح بالفقيه المؤتم به والقارئ المهتدى بهديه والمتكلم المشار إليه في حسن مناظرته وتمام آلته في مجادلته وشدة شكيمته في حجاجه وبالعربي الصليب والقرشي الصريح ألا يعرف إعجاز كتاب الله إلا من الجهة التي يعرفها الزنجي والنبطي وأن يستدل عليه بما استدل به الجاهل الغبي » .

وكتاب ابي هلال في الحقيقة كتاب أدبي لم يخصص لفكرة الإعجاز وإنما لبيان بعض فنون البلاغة وبيان ما يحتويه القرآن الكريم منها وما يحتويه الشعر

ولهذا لا نرى له رأياً صريحاً عن الإعجاز في هذا الكتاب وإنما يستنتج من المقدمة كما قلت أن الإعجاز عنده قائم على البلاغة .

* * *

نقد وتلخيص :

نلاحظ على مؤلفي هذا العصر (الرابع الهجري) ممن ذكرت آراءهم في الإعجاز آنفاً أنهم لم يأتوا بجديد في الموضوع وإنما دخل ميدان المعركة فيه والكلام عليه طائفة المفسرين فتحدث الطبري عن الفكرة ببساطة وبما يستدعيه فن التفسير من القول وتكلم القمي المفسر كلام المفسر المتأثر بعلم الكلام ثم نرى في هذا العصر ظاهرة جديدة لم تكن واضحة في القرن الثالث وهي أن الأدباء أصبحوا يؤلفون كتباً مستقلة في البلاغة تعنى بالإعجاز وكان مؤلفوها ممن تأثروا قليلاً أو كثيراً بعلم الكلام كالواسطي والرماني والخطابي أو أدباء خلصاً كالعسكري على حين كان الجاحظ في القرن الثالث أديباً ومعتزلياً .

ثم نرى المتكلمين كالأشعري والتوحيدي وبندار الفارسي قد ثابروا على طرق البحث كأسلافهم من قبل كما نشهد هذا العصر لم يخل ممن رموا بما نسميه الآن حرية الفكر كالمتنبي الذي لم ينسب اليه فقط عدم اعتقاده بإعجاز القرآن بل رمي في حداثة سنه بادعاء النبوة ومحاولته معارضة القرآن .

القرن الخامس الهجري :

يمتاز هذا العصر بوفرة المتكلمين والمؤلفين في مسألة الإعجاز ويعد بحق عصرها الذهبي ولا عجب فإن هذه المسألة جزء من الحركة الفكرية العامة ومظهر من مظاهرها ، وقد نضجت في هذا العصر العلوم الفلسفية والعقلية بعد أن انقضى دور الترجمة والنقل وانتقل العرب والمسلمون إلى دور الهضم والانتاج كما نضجت العلوم والفنون اللغوية والأدبية . وأشهر من اتهم بالمعارضة فيه قابوس

ابن وشمكير أحد ملوك الديلم، وابن سينا الفيلسوف ، وابو العلاء المعري الأديب المفكر المتفلسف . وأشهر علماء الكلام الذين بحثوا هذه المسألة فيه اثنان من الشيعة هما الشريف المرتضى وداعي الدعاة وثلاثة من رجال السنة هم الباقلاني وكان أديباً أيضاً وابن سراقة وابن حزم الأندلسي . وأشهر الأدباء اثنان من رجال البيان : ابن سنان الخفاجي وعبد القاهر الجرجاني وكان من علماء الكلام في أهل السنة أيضاً . وسنورد كلمة في كلّ واحدٍ منهم على الترتيب .

١ً — قابوس بن وشمكير :

قيل بأن قابوس بن وشمكير (٤٠٣) عارض القرآن وقد ذكره عبد العليم المندي في جملة من اتهموا بالمعارضة ودافع عنهم بما سبق أن ذكرته قبل . وممن ذكر اتهام قابوس بالمعارضة ودافع عنه الرافعي حيث يقول : « وزعم هؤلاء الملحدة أيضاً أن حِكَم قابوس بن وشمكير وقصصه (وهو شمس المعالي قابوس ابن وشمكير ، من ملوك الديلم على جرجان وطبرستان ، وكان أديباً مترسلاً) شيء من بعض معارضته القرآن وكأنهم يحسبون أن كل ما فيه أدب وحكمة وتاريخ وأخبار فتلك سبيله وما ندري لمن كانوا يزعمون مثل هذا . ومثل هذا قولهم : إن القصائد السبع المسماة بالمعلقات هي عندهم معارضة للقرآن بفصاحتها » . وليس بين أيدينا ما يثبت هذه المعارضة .

٢ً — ابن سينا :

وقد اتهم في هذا العصر ابن سينا (٤٢٨) بمعارضة القرآن ولم يصلنا ما يستأنس به من نبإٍ ما اتهم به وقد ذكر الرافعي هذا بدون أن يشير إلى مصدره فقال : « ومن أعجب ما رأيناه أن بعضهم اتهم ابن سينا بمعارضة القرآن لأنه زنديق وأنّ ابن سينا وضع رسالة في دفع هذا الافتراء - قلنا وأين ابن سينا من طور سيناء هذا رجل و هذا جبل (؟) ولكنها عصور الجدل والمكابرة » .

٣ – أبو العلاء المعري :

زعم بعضهم أن أبا العلاء المعري (٤٤٩) قد عارض القرآن بكتاب سماه «الفصول والغايات في محاراة السور والآيات» وأنه قيل له ما هذا إلا جيد غير أنه ليس عليه طلاوة القرآن فقال حتى تصقله الألسن في المحاريب أربعمائة سنة وعند ذلك انظروا كيف يكون ... ومما جاء في كتابه قوله : «أقسم بخالق الليل والريح الهابة بليل بين الشرط ومطالع سهيل إن الكافر لطويل الويل وإن العمر لمكفوف الذيل تعدّ مدارج السيل وطالع التوبة من قبيل تنج وما إخالك بناج» فلفظة ناج هي الغاية وما قبلها فصل مسجوع فيبتدئ بالفصل ثم ينتهي الى الغاية وهذا كما ترى عكس الفواصل في القرآن الكريم لأنها تأتي خواتم لآياته .

وينفي الرافعي التهمة عن المعري لأنه أبصر بنفسه وبطبيعة الكلام الذي يعارضه وأعرف بضعفه فهو يستعمل الكلمات الغريبة ويتعثر في الأساليب ويراغم اللغة الخ فليس مما يعارض به القرآن ولأن المعري أثبت إعجاز القرآن فيما أنكره في رسالته على ابن الراوندي فقال :

«وأجمع ملحد ومهتدٍ وناكب عن الحجة ومقتدٍ أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد (ﷺ) كتاب بهر بالإعجاز ولقي عدوه بالإرجاز ما حذي على مثال ولا أشبه غريب الأمثال ما هو من القصيد الموزون ولا في الرجز من سهل وحزون ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهنة ذوي الأرب وإن الآية منه أو بعض الآية لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون فتكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غسق والزهرة البادية في جدوب ذات نسق» .

ويقول الرافعي إنه لم يجبر أبا العلاء المعري أحد على أن يقول هذا القول في إعجاز القرآن فهو لا يقول إلا ما يرى في نفسه وهو وإن كانت له آراء فيما وراء الطبيعة لا تستجيب الدين لكن إدراكه للبلاغة يحمله يقول الحق .

فالرافعي كما ترى يرفض فكرة معارضة المعري للقرآن من أصلها لأنه ردّ على ابن الراوندي بما سبق ويكذب القائلين بها . وليس من مانع في الحقيقة لأن يكون المعرّي فكر في معارضة القرآن وإمكانها في زمن ورأى عدم إمكانها في زمن آخر فالرأي يتغير بتغير الظروف والحالات العقلية والنفسية والمعري في كثير من المسائل الدينية والفلسفية لا يثبت على رأي واحد لأنه يقف في أكثر الأوقات منها موقف الحائر المتردد وقد يجعل الشك سبيلاً الى اليقين .

٤ً — الشريف المرتضى :

ألّف الشريف المرتضى (٤٣٦) كتاباً في الإعجاز ضاع ويقول عبد العليم المندي (في مقالته السابقة) فيه ماترجمته : « وضياع كتاب الشريف المرتضى موجب للأسف لأنه اشتهر شهرة عظيمة وقال بنظريته قبله النظام فقط . ولو ظفرنا به لرأينا أسلوبه في البرهان على مضمونها . وذكر بعض براهينه غيره من المؤلفين ومن حسن الحظ أن جزءاً من مؤلفه الخاص تقه في هـذا الموضوع لا يزال موجوداً . وكان من عادته أن يجيب على أسئلة تتعلق بالدين والألوهية من يراسله من الناس ولا تزال مجموعة من رسائله موجودة (CMS. Berlin Ret. 40) وتناقش اثنتان من هذه الرسائل هذه المسألة وتقف بها على آرائه وبراهينه (MS. Berlin Ret. 40. fol. 4 a - 56 and 926. 94 a)

ويقول في موضع آخر من مقالته : « أما القول بالصرفة فكان له من السيد الشريف المرتضى بطل آخر وربما كان آخر رجل يرى أن معجزة القرآن هي فقط بالصرفة ونحن لا ندرك ما يتصل بأقواله في الموضوع لأن كتبه ضاعت ولكنه يذكر في إحدى رسائله (MS. Berlin Pet. 40. fo 46) أن الحجة الأولى هي أن الفرق بين الأقسام الصغيرة في القرآن وأحسن كتابات العرب ليس واضحاً لكل أحد بالرغم من أن الفرق بين كلام العرب الجيد وكلامهم

الردي، واضح وهكذا يكون الطريق الوحيد للبرهان على إعجاز القرآن هو أن العرب لم يأتوا بمثله أو بتعبير آخر هو أن الله صرفهم عن ذلك . ثم يعلق عبد العليم الهندي على القول بالصرفة فيقول : « وهذا الدليل أي الصرفة يوجد عند المتكلمين من اهل الشيعة أكثر منه عند المتكلمين من أهل السنة ـ انظر القطب الراوندي (النصوص العربية) مما يثبت ارتباط هؤلاء الشيعة النظريين بالمعتزلة وبخاصة المتقدمين منهم » .

وقال الرافعي من غير إشارة الى المصدر : « وقال المرتضي من الشيعة : (بل معنى الصرفة أن الله سلبهم العلوم التي يحتاج اليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن) فكأنه يقول إنهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأساوب ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعاني إذ لم يكونوا اهل علم ولا كان العلم في زمنهم وهذا رأي بيّن الخلط كما ترى » (ص ١٤٤، إعجاز القرآن للرافعي) .

ونلاحظ أن بسط الرافعي رأي المرتضى خطأ لأن معنى سلبهم العلوم أنها كانت موجودةً فيهم فتكون الصرفة بسلبهم العلوم والرافعي فسره بأنهم لم يكونوا بطبيعتهم عارفين بهذه العلوم فإذن لم يسلبهم الله شيئاً فأين الصرفة إذن ويظهر أن سبب هذا الخطأ أن الرافعي فهم من معنى العلوم غير ما يقصده منها المرتضى من أنها العلوم المساعدة على نظم الكلام .

ونلاحظ فرقاً دقيقاً بين رأي النظام في الصرفة ورأي المرتضى فالصرفة عند عند النظام عدم معارضتهم للقرآن مع قدرتهم عليها والصرفة عند المرتضى عدم قدرتهم عليها لأنهم سلبوا مقوّماتها وما يساعدهم من المعارف عليها بعد أن كانت متأصلة فيهم وقد لاحظ عبد العليم الهندي أن الشريف المرتضى ربما كان آخر من يقول في إعجاز القرآن بالصرفة وحدها دون سبب آخر وليس ذلك صحيحاً فمن الحق أن أكثر من قال بها بعده قد جمعها مع مسألة النظم كالأصفهاني ولكن الخفاجي مثلاً يقول بها فقط .

٥ — داعي الدعاة :

وفي هذا الزمن نرى معاصراً لأبي العلاء المعري هو داعي الدعاة [ابو النصر هبة الله الشيرازي الملقب بالمؤيد في الدين] يردّ على دعاوى ابن الراوندي في القرآن ويسعى لإبطالها وقد رأينا أن ابن الراوندي لا يرى عجز العرب عن مجاراة القرآن حين تحدّاهم النبيّ دليلاً على النبوة وأن الفصاحة إذا ألزمت العرب بالإعجاز فهي لا تلزم الأعاجم .

ذكر الأستاذ كراوس (في مجلة الأديب ص ٣٢ سنة ١٩٤٣ — ١٩٤٤م) أن داعي الدعاة قال في ردّه : « إن الكلام ألفاظ مقدّرة على معانٍ ملائمة لها . والكلام كالجسد والمعنى فيه روحه . ومعلوم أن الأجساد من حيث كونها أجساداً لا تتفاوت تفاوتاً كثيراً . فإنها وإن رجح بعضها على بعض من حيث استقامة النظم وحسن المندام فهو أمر قريب ، وليس كذلك التفاوت من جهة النفوس التي هي المعاني . فإن نفساً واحدة تقع بوزان الخلق كلهم من حيث افتقار النفوس اليها والحاجة الى الامتيار منها . والقرآن كلام هو بمثابة الجسد . ومعناه روحه الذي كنى الله عنه بالحكمة فلم يذكره في موضع من الكتاب إلا قرنه بالحكمة . وقد قاربت أيها الخصم بالإقرار بكونه معجزاً من حيث لفظه للعرب الذين هم أهل اللسان ثم أردفته بقولك : « فما الحجة على العجم الذين ليسوا من اللسان في شيء » . فنقول إن في معناه المكنيّ عنه بالحكمة ما تقوم به الحجة على كل من تفتق بالكلام لسانه على جميع اللغات وسائر العبارات . والحجة فيه أن ما كان ظاهره الذي هو بمنزلة الجسد الذي لا يتفاوت بعضه عن بعض كثير التفاوت بهذه المثابة من الإعجاز فما يقال في معناه الذي هو بمنزلة نفس شريفة تفتقر النفوس اليها كلها فأين موقعها من الإعجاز ؟

ونستنتج من هذا النص أن الإعجاز عند داعي الدعاة قائم على المعنى أكثر

منه على الألفاظ والمعنى عنده هو روح الكتاب الكريم وهو الحكمة فإذا كان القرآن معجزاً للعرب بألفاظه فهو معجز للأعاجم بمعانيه التي هي روح تلك الألفاظ وبهذا يرد على طعن ابن الراوندي في إعجاز القرآن .

٦ — الباقلاني :

ألف القاضي الباقلاني (٤٠٣) كتاباً مشهوراً في الإعجاز رداً على الحركة التي قامت في عهده تعاكس فكرة إعجاز القرآن وسداً لتواني علماء عصره في هذا البحث . وهو عالم من علماء التوحيد ومن أتباع الأشعري وتلاميذ العباس بن مجاهد الطائي الذي كان تلميذاً لذلك الإمام الكبير . ولم يصلنا من مؤلفاته إلا هذا الكتاب وهو خير الكتب التي ألفت في موضوع الإعجاز الى عصره . فقد تعرض فيه الكاتب للنظريات التي قيلت قبله في الإعجاز ونقدها . ثم صور حال أهل عصره من حيث عقيدتهم في الدين وفي إعجاز القرآن وبلاغته بصورة خاصة وحاذر من ضعف الدين وفكرة الإعجاز في النفوس . ولما كان للكتاب شأن كبير في تاريخ الفكرة فإني أرى حاجة ماسة الى تلخيص الأفكار والآراء المهمة التي وردت فيه لا سيما وأن المؤلفين بعده قد احتذوا في الغالب مثاله في التأليف . ويتلخص ما أورده فيما يلي :

١ — أن القرآن في نفسه حجة للنبوة ومعجزة وأن الذهاب عنها كالذهاب عن الضروريات والشك في المشاهدات ويورد من القرآن ما يؤيده في هذا المعنى . وهي حجة عامة سبقه اليها غيره من المتكلمين .

٢ — يذكر ما حداه على تأليف كتابه من طعن الملاحدة في القرآن وتسويته بالشعر وتقصير العلماء في الدفاع عن الإعجاز بكتب كافية مما جعل الناس يظنون أنه لا مؤيد لهذه الفكرة .

٣ — يذكر أن الجاحظ سبق الى وضع كتاب في نظم القرآن ولكنه غير كاف لأنه لم يزد فيه على ما قال المتكلمون قبله ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى . ولكنه لا يذكر كتب الواسطي والرماني والخطابي الذين سبقوه .

٤ — كان الرأي السائد في عصره أن القرآن معجز لمعاصري النبي من العرب دون سواهم وهو يقول بأنه معجز لكل عصر ويكفي أن نقارنه بغيره من الكلام في كل عصر لنتبين فضله في ذلك (ص ٣ — ٥ من كتابه الإعجاز) .

٥ — يذكر أثر القرآن في نفوس سامعيه ويستشهد بآيات من القرآن في هذا المعنى ويذكر أنه لا تثبت على عدم إعجازه حجة وأن القرآن تحدى العرب بما هو من لسانهم العربي ولم يأت بأعجمي (ص ٦ من الكتاب المذكور) .

٦ — القرآن وحده معجز ببلاغته من بين الكتب المنزلة لأن نظمها ليس معجزاً وإعجازها من ناحية إخبارها عن الغيوب فقط وإعجاز القرآن ببيانه ينوب مناب سماع الكلام من القديم سبحانه والنبي يعلم أن ما يوحى اليه كلام الله على طريق الاستدلال وكذلك نحن نعلم ما نقرؤه من هذا على وجه الاستدلال .

٧ — إذا ثبت أن القرآن معجز وأن الخلق لا يقدرون عليه ثبت أن الذي أتى به غيرهم وأنه إنما يختص بالقدرة عليه من يختص بالقدرة عليهم وأنه صدق وتلتقي هذه النقطة مع الأولى (ص ٩ و ١٠ منه) .

٨ — الدليل على أن العرب لم يأتوا بمثله النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري ويرد على من يقولون بأن العرب ربما لم يعلموا أن النبي تحداهم وأن النبي كتم آيات التحدي عنهم ويسعى ليثبت أن النبي قد بلغهم إياها وأن في القرآن ما يدل على أنهم ردوا على التحدي بتهمة أن القرآن مخلوق .

٩ — يورد آيات يجمل بها أقوال المشركين في القرآن وآيات تدل على أنهم كانوا يجادلون (ص ١١) .

١٠ً — يحتج بأنه لو كان في استطاعة العرب يومئذ الإتيان بمثله لقدموه من أشعارهم ونثرهم وقارنوه بالقرآن ولكنهم لم يفعلوا ذلك .

١١ً — يدرك إعجاز القرآن من كان متناهياً في معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة ويذكر (ص ١٤) قصة عتبة بن ربيعة حينما سمع النبي يقرأ سورة السجدة وقصة ابي سفيان حين جاء النبي مسلماً .

١٢ً — يرد على القائلين بالصرفة ويقول لو كان الأمر كذلك لرأينا مثله في نظم أهل الجاهلية أو من بعدهم وإنما إعجازه لشيء فيه من حسن النظم والبلاغة ولو كان الإعجاز بالصرفة لم يكن القرآن معجزاً بل المنع هو الذي يكون معجزاً (ص ١٥) .

١٣ً — يذكر جملة أقوال لمن شككوا في إعجاز القرآن اوردها صاحب الاتقان ويذكر قول القائلين بأنه لا فرق بين كلام البشر وكلام الله تعالى في هذا الباب وأنه يصح من كل منهما على حدٍّ واحد . (ص ١٧ إعجاز القرآن للباقلاني) .

١٤ً — يذكر أن علة إعجاز القرآن البياني التفاوت العظيم في النظم (ص١٧) الموجود في اللغة العربية دون غيرها لأنها محتملة لوجوه من التلوّن في التعبير وفي دلالة الكلمات والترادف لا توجد في غيرها .

١٥ً — يذكر أن بعضهم قال بمعارضة ابن المقفع للقرآن ويقول إن كتابه الدرة اليتيمة ليس فيه فضل لابن المقفع والحِكَم فيه لأسلافه ثم يذكر أنه استحيا لنفسه ومزّقها (ص ١٧) .

١٦ً — يتعرض للإعجاز على طريقة علماء الكلام فيتساءل أكان ذلك لأنه حكاية عن الكلام القديم او لأنه تعبير (عبارة) عنه او لأنه قديم في نفسه ويقول في الرد على ذلك : لسنا نقول بأن الحروف قديمة ولا بأنه حكاية عن الكلام القديم . فيكون رأيه إذن أنه تعبير عن الكلام القديم .

١٧ً — يقول ادّعى جماعة أنه شعر ومن الملحدة من زعم أن فيه شعراً ومن أهل الملة من يقول إنه كلام مسجع إلا أنه أفصح مما اعتادوه من أسجاعهم.

ومنهم من يدعي أنه كلام موزون فلا يخرج ذلك عن أصناف مايتعارفونه من الخطاب .

١٨ً — يذكر أن ممن ذهب الى ان القرآن غير معجز النظام وعبّاد بن سليمان وهشاماً القرطي (ص ١٦) . ونحن نعلم أنهم يقولون بالصرفة لا بعدم إعجازه مطلقاً .

١٩ً — البديع ليس سبباً في الإعجاز لأنه كثير في شعر ابي تمام وفي استطاعة البشر ان يحذقوه . (الصفحة والكتاب نفسها) .

٢٠ً — يدرك غير العربي إعجاز القرآن باطّلاعه على عجز العرب عنه .

ونرى الباقلاّني يدعو للنظر في نصوص القرآن وغيره من ضروب الكلام في اللغة العربية لمعرفة الفرق بينها وهنا يقول إنه ليس في وسع من لا يعرف العربية ولا من تعلمها ولكن لم يصل فيها الى درجة العلم العميق بالنواحي الدقيقة أن يحكم في هذه المسألة ولكن يجب ان يعتمد على من يستطيع التفريق بين الأسلوب العادي والأسلوب المعجز . ثم يقارن الباقلاّني بين القرآن ورسائل النبي ليبيّن فرق ما بينها في البلاغة وأن النبي عاجز عن مثل القرآن، وهذا يثبت أنه من لدن الله ثم يقارن بين أقوال الصحابة وغيرهم من المتقدمين وبين القرآن فيثبت عجزهم عن مثل أسلوبه ثم يبين سخف كلام مسيلمة وسجاح ثم يتناول الأشعار ليقارن بينها وبين القرآن وليقول أن الشعر دون النثر في جودة الأسلوب لأنه مقيد بالوزن والقافية وان ليس هناك داع الى مقارنة الشعر بالقرآن لأن أسلوب الشعر دون أسلوب النثر ـ ونحن نخالفه في هذا الرأي ـ ثم يذكر أنه إنما لجأ الى مقارنة الشعر بالقرآن لأن قوماً من الجهال يقارنونها .

ثم يقارن معلقة امرئ القيس أحسن شعرائهم بالقرآن ويبين ما في الاثنين من جمال وما في المعلقة من عيوب ويترك الحكم في هذا الأمر لكل من كان عنده ذوق من الذوق الفني ثم يقارن شعراء عصره بالقرآن فقد يدعي أحدهم أنه أشعر من امرئ القيس زوراً وبهتاناً . ونحن نخالفه أيضاً في تقديم شعر الأوائل . وقد استغرقت هذه المقارنات نحو نصف الكتاب وينظر بعد ذلك الى أشياء صغيرة تتلخص فيما يلي .

١ً — هل إعجاز القرآن واضح بنفسه ؟ ٢ً — ما هو سبب إعجاز القرآن ٣ً — على أي سند يقوم ؟ ٤ً — مسألة التحدي ٥ً — المدلول الصحيح لكلمة معجز ٦ً — لماذا لا يصح أن يقال إن القرآن من تأليف النبي .

ثم يذكر شؤوناً أخرى تتعلق بالإعجاز ويأتي بقسم منفصل عن البحث يأتي فيه بأنواع مختلفة من الكلام وأمثلة لها من القرآن ويقول في جملة ما يقول إن الكتابة في هذا الموضوع خطيرة وإنه ليس في مقدور بشر أن يحصر نواحي الجمال الموجود في القرآن .

٢١ً — يتعرض لمقدار المعجز من القرآن (ص ١١٧ من كتابه) ويذكر قول أبي الحسن الأشعري وعامة أصحابه في أن أقل المعجز أصغر سورة وقول من شرط الآيات الكثيرة في القدر المعجز ونراه يوافق على رأي الأشعري في أن مقدار المعجز هو أصغر سورة ويقول إن تحدي القرآن بقوله «فليأتوا بحديث مثله» لا يخالف هذا لأن الحديث التام لا تتحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة ولأنه يحتمل أن يكون المراد بحديث مثله القبيل دون التفصيل .

٢٢ً — تتلخص وجوه إعجاز القرآن في رأي الباقلاني في ثلاثة براهين وهو مخالف رأي الصرفة . وهذه البراهين الثلاثة هي :

آ — احتواء القرآن على تنبؤات عن المستقبل وهذا خارج عن قدرة البشر .

ب — كون النبي كان أمياً أمر مسلم به وهو لم يطلع على كتب الأقدمين وقصصهم وتراجمهم ومع هذا فقد ذكر الحوادث الماضية منذ خلق آدم حتى زمنه فليس من منصرف عن القول بأنه تلقى كل هذا رأساً من الله عن طريق الوحي .

جـ — القرآن يتجاوز قدرة البشر في النظم والأسلوب والبلاغة .

وهذا ما ذكره من تقدموه ويرجع اليه فضل التفصيل فيه وهو قد اعتنى بالتوسع في البرهان الثالث فذكر الأمور الآتية :

١ً — أسلوب القرآن على اختلاف أشكاله خارج عن الاساليب المعروفة وخاص به .

٢ً — لم يوجد عند العرب أثر أدبي يجاري القرآن في بلاغته بحيث يحفظ فيه جمال الأسلوب ويكون في طوله بقدر القرآن .

٣ً — عرض القرآن لموضوعات شتى في الحكم والأوامر والنواهي والوعد والوعيد والقصص وكل ما جاء به حتى لا يقارن به أحسن الأشعار والخطب . وانما يجيد الشعراء والخطباء في نوع منها وقد أجاد القرآن فيها كلها .

٤ً — نرى أن أقسام الكلام تتفاوت في كتابة أحسن الأدباء حتى اذا كتبوا في موضوع واحد وبخاصة عندما ينتقلون من فكرة الى أخرى ونرى القرآن على خلاف ذلك يجمع النواحي المختلفة فيبرزها بطريقة تظهر فيها أنها وحدة منسجمة .

٥ً — أسلوب القرآن ليس أعلى فقط من أسلوب الإنس بل من أسلوب الجن أيضاً ويقول بهذا الصدد : ربما قال بعض الناس كيف نحكم بهذا فليس إلا مجرّد ادّعاء لأنه ليس بين أيدينا كلامهم فيقال نحن متأكدون على الأقل من أن أسلوب القرآن أرفع من أسلوب الكلام الذي ينسبه العرب الى الجن .

٦ً — أساليب الأداء المختلفة الموجودة في كلام العرب من بسط وإيجاز وجمع وتفريق واستعارة وتصريح موجودة في القرآن وهي في القرآن أعلى من تلك اذا قورنت بها .

٧ً — تأليف كلام في رأي جديد أصعب من تأليف كلمات في رأي مألوف والقرآن يعبر عن أفكار جديدة بطريقة تفوق قدرة البشر .

٨ً — تظهر جودة نظم القرآن وسمو بلاغته إذا أخذت كلمة منه واستعملتها في كلام آخر شعر أو نثر وتسترعى انتباه القارئ والسامع وقد يدمج البلغاء الجملة من القرآن في كلامهم فتأتي فيه كالجواهر والحلي .

٩ً — إن حروف الألف باء هي ٢٨ حرفاً والمقاطع التي ابتدئ بها بهذه الحروف في القرآن هي ٢٨ وعدد الحروف المستعملة في هذه البدايات (١٤) أي نصف عدد هذه المقاطع وقد صنف العلماء الحروف فيما بعد في زمن متأخر الى حروف حلقية وغير حلقية ومهموسة ومجهورة ومطبقة ومنفتحة وشديدة وغير شديدة وعدد الحروف المستعمل في هذه البدايات من كل نوع من هذه الأنواع هو نصف عدد النوع فهذا التصنيف في كل هذه الأصناف دليل على معرفة أمور المستقبل معرفة لا يتأتى صدورها إلا من الله .

١٠ — لغة القرآن سهلة ومدلولاتها تفهم على أيسر وجه ولا تتخللها كلمات أو تراكيب عويصة ومع ذلك فليس في الإمكان مجاراة أسلوبه .

وخص الباقلاني بقية كتابه بالتوسع في هذه الأمور يوردها منظمة حسنة التسلسل والتنظيم قوية الارتباط والكتاب يعد بحق الحلقة الوسطى في سلسلة الأبحاث التي تسعى لإثبات إعجاز القرآن . والتصانيف الأخرى التي تحمل أفكار سابقيه تنتهي اليه ثم تتفرع منه في شعب مختلفة .

وتبين من تلخيصنا له قيمته وشمول بحثه والمامه بما قيل حتى زمنه وتناوله لأكثر الآراء بالنقد ويظهر لك من مقارنة المؤلف بين ما ينسبه العرب الى الجن من أقوال وبين القرآن ثم من قوله بفكرة التنصيف في حروف أوائل السور أنه يتناول الأمور أحياناً تناولاً سطحياً لا نوافقه عليه لأنه بعيد عن الروح العلمية التي لا تثبت لها مثل هذه الآراء ، وتدرك أن النظريات الاسلامية في الإعجاز قد أخذت في نهاية القرن الرابع وبداية الخامس نوعاً من الاستقرار سرى على الأعصر التالية فإن علم الكلام كان قد تكامل في هذا الوقت وجهود المتكلمين المتأخرين انتهت الى هذا البناء الذي تم وضعه .

ينتقد الرافعي كتاب الباقلاني (ص ١٥٥ إعجاز القرآن للرافعي) برغم اعترافه بعظم شأنه بما انتقد به الباقلاني الجاحظ فيقول : « على أن كتاب الباقلاني وإن كان فيه الجيد الكثير وكان الرجل قد هذّبه وصفّاه وتعنع له إلا أنه لم يملك فيه بادرة عابها هو من غيره ولم يتحاش وجهاً من التأليف لم يرضه من سواه وخرج كتابه كما قال هو في كتاب الجاحظ : « فلم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى ومرجع الاعجاز فيه الى الكلام والى شيء من المعارضة البيانية بين جنس وجنس من القول ... وقد حشر إليه أمثلة من كل قبيل ... واستراح الى النقل » وهو يذكر أنه لم يقم بما أخذ على نفسه القيام به ولكنه لا ينكر قيمة الكتاب من حيث وفاؤه بما قصد اليه من أمهات المسائل .

(يتبع) نعيم الحمصي

تاريخ علم الفلك في العراق

وعلاقاته بالأقطار الاسلامية والعربية

(في العهود التالية لأيام العباسيين)

من سنة ٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م الى سنة ١٣٣٥ هـ — ١٩١٧ م

— ١ —

كلمة

كنت جمعت مذكرات في علم الفلك وما يتعلق به من علوم رياضية وتنجيم ، فتكونت منها مجموعة في تاريخ هذا العلم الا أني لم أقطع بها ، فكانت جولتي الأخيرة في ربوع الشام سنة ١٩٥١ م مصروفة الى تحقيق هذا الغرض والتثبت من درجة اتصال هذا العلم بالقطر الشقيق . والا فلم تكن جولة سائح يدون كل مارأى ، أو ما كانت فيه غرابة ... بل زرت دمشق المحبوبة بأمل إكمال البحث بقدر المستطاع لينكشف أكثر اتماماً (للتاريخ العلمي) الذي كنت أحاول تدوينه .

وتختلف نظرتي عمن يحاول معرفة المفردات من الكتب وترتيبها على حروف المعجم ، وعمن يجمع كلّ نوع أو صنف من صنوفها دون تنظيم عصورها ، والتعرف لتاريخ تأليفها ووفيات مؤلفيها ... ولا تعرف هذه العلاقة بما في خزائن الكتب وان كانت المستقى المهمّ . لذا كان للاتصال المباشر بالأقطار الأثر المحمود .

ودمشق عاصمة ثقافية . وتتلوها حلب والقدس الشريف ... وعلماؤنا متصلون بهذه الثقافة في رحلاتهم ، واجازاتهم العلمية ، وفي تلقيح المعرفة ، فيتيسر من هذه الجولة الاطلاع على نواحي الاتصال المهمة جداً . يضاف الى ما كان عندي ، أو ما هو مقتبس من خزائن العراق ومن فهارس الكتب أو من الجولات الاخرى .

حاولت انتزاع ما أمكن مما يتعلق بالشام خاصة اجابة لرغبة الأستاذ رئيس المجمع العلمي العربي ، وعددت من الواجب تلبية رغبته في (وصف المخطوطات) وفي كل التاريخ نظراً للاتصال الوثيق في الأقطار العربية والاسلامية . وفي هذه تحقيق الصلات الثقافية بين الشعوب العربية والاسلامية فعزمت أن أعين علم الفلك في العراق وعلاقاته المهمة بالشام وغيره مما تيسر لي بحثه . لا سيما أن هذه الجولة مرتبطة بأصل البحث . وفيها علاقات جمة بل ان ذلك مما يؤكد الثقافة المشتركة .

وفي بحثي حاولت أن أتصل الاتصال العلمي من وجوهه بقدر الامكان . ومن ذلك الاجازات . وكتب الفلك ظاهرة من ظواهر الثقافة . ومن الضروري التثبت منها . وكانت المخلفات الماضية خير غذاء . وعلى آثارها تجدد النشاط في الفلك . والمهم أن علماءنا قاموا بالمهمة ولم يظهر جديد . ولا ريب أن الاستيعاب صعب . ونواحي الايضاح مما يكشف نوعاً عن تاريخ المعرفة . والامل أن يتزايد الاشتغال .

يعجب المرء أن يرى تقدم هذا العلم في أوائل هذه العهود كما كان في أيام العباسيين ، ويشاهد تجواله في الأقطار الاسلامية ثم يرى ركوداً وتدهوراً ، فلم يأخذ بما وصل اليه من تقدم في الغرب ولولا أن (المهندسخانة) في استنبول ، وأخذ الترك العثمانيين بالجديد من هذه العلوم لمات هذا العلم عندنا ولم يبق له أثر الا أنه في تجدده لم ينل تلك العناية المشهودة اليوم في الاستفادة منه للملاحة البحرية والطيران وتكون أنواع الرصد لتحقيق سير الكواكب وضبط حركاتها .

وفي تاريخ هذا العلم أستعرض المادة العلمية وما فيها من مؤلفات ، والكتب التعليمية وما خدمت به لتسهيل الأخذ بهذه الثقافة ، والسبب الوحيد للقضاء على هذه الثقافة الفتن والاضطرابات المتوالية المستمرة ، فانها ألهت عن الالتفات

الى تقوية الثقافة . وزال المنشط من الدول ... فلم تتيسر العودة الى الهدوء والطمأنينة ، ولم تنشأ الأرصاد (المراصد) ، فيبذل لها البذل اللائق . واقتصر المرء على المعرفة (التعليمية) دون جدوى ، ولم يهتم بتكامل العلم .

حصل في هذه الأيام بعض الانتباه ، فظهرت مؤلفات مهمة مثل (علم الفلك وتاريخه عند العرب) ولكنه لم يف بما رسم ، فلم يصل الى نهاية القرن التاسع الهجري . و (التراث العلمي عند العرب) لا يخلو من غمز وان كان من أجل الآثار . و (قاموس الرياضيات) لم يكمل . ونقصه ظاهر وان كان أبدى مؤلفه معرفة وافرة ... و (آداب اللغة العربية) لم يتصل بثقافات العصور الموضوعة البحث ... وخزائن الكتب لم تنظم فهارسها ، أو لم يقم بها علماء استكملوا العدة ... فكلّ هذه لم تخل من نقص الا أنها بذرت المعرفة . ولها فضل كبير في اعداد الغرض .

كشفت هذه التجربة عن ثقافة عظيمة . فكان اشتغال علمائنا كبيراً . وقد عدت من الشام بصفقة رابحة فيما راجعت ، وفيما اقتنيت بما عين الحالة العلمية وما كانت عليه البلاد العربية والاسلامية .

والمهم ألا يهدأ البحث ويستمر في التعليق والاستدراك على ما فات وبذلك تتكامل الثقافة التاريخية . ولا ريب أن مؤلفات علم الفلك نماذج ناطقة بما عرضت . وكلما زادت أعلنت عن زيادة في الثقافة . والكتب خواهر . والعلوم لم تتصل بنا من كلّ وجه ، وانما حصل انقطاع أنسانا التعرف الى كثير منها . ورأيت مؤلفات مختلف الأقطار فكان لمخطوطات الشام علاقة بجميع الأقطار الاسلامية والعربية . ومثلها مخطوطات بغداد ، والمخطوطات الأخرى لمختلف خزائن الكتب . والأمل أن يتناول هذا البحث أساتذة أفاضل ليوفوه حقه من التوسع والايضاح والتعليق والاستدراك لما فات .

٢ — تاريخ علم الفلك في العراق في عهد المغول والتركمان

من سنة ٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م الى سنة ٩٤١ هـ — ١٥٣٤ م

يصعب كثيراً أن نحيط بالمعرفة الفلكية في هذا العهد • فهي واسعة المدى متأثرة بالثقافة العباسية • ويهمنا الانتاج العلمي والأثر والتأثير أو العلاقة بالأقطار• فقد كان هذا العلم شائعاً في المملكة الاسلامية شيوعاً عظيماً • وقد روعي في (بناء بغداد) الطالع • والخلفاء العباسيون تأثروا بالفلك كثيراً • وكان معروفاً في العراق قبل الاسلام • وعناية الخلفاء العباسيين به كبيرة • والعبيديون اتخذوه عقيدة ومثلهم الاسماعيلية في ايران • وهو من فروع الفلسفة ومن أصول الابطان •

ولما هاجم المغول العراق ، وعزموا على فتح بغداد استطلعوا أمر الطالع وما أهم ، فتضاربت الفتاوى العلمية في السعد والنحس وما يليه علم الاختيارات • وكان في صحبة هولاكو في هذا الفتح (حسام الدين المنجم) • أوصاه القاآن الأعظم ألا يخرج عن رأيه في الفلك ، فجمع هولاكو بينه وبين الخواجة الطوسي لما رأى من اختلاف بينهما ، فكان البخشية في جانب الطوسي ، فرجح هولاكو قوله ومضى في طريق الفتح ، فتمّ له في ٥ صفر سنة ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م • استعمان المغول بعلمائنا في التنجيم أو علم الاختيارات المسمى بـ (علم الأحكام) وكان استولى هولاكو على بلاد الاسماعيلية في قهستان وألموت من ايران سنة ٦٥٤ هـ — ١٢٥٧ م وغنم منها آلات في الاسطرلاب والحلق وذات الكرسي• • • وعند فتح بغداد جيء بشهاب الدين سليمان شاه بن برجم من رجال الدولة العباسية • قال له هولاكو : لك علم بالتنجيم وسير الكواكب والسعد والنحس ، فكيف غاب عنك هذا اليوم الأسود ؟ فأمر بقتله • وهذا يدل على الاتصال بهذا العلم ، ولم ينقطع من الدولة العباسية •

وفي جمادي الأولى سنة ٦٥٧ هـ — ١٢٥٩ م أمر هولاكو (ببناء رصد)

في مراقبة تولاه الخواجة الطوسي ، وجلب له العلماء من مختلف الأقطار الاسلامية للاستعانة بهم . ومن العلماء الذين قاموا بهذه المهمة :

١ — الخواجة الطوسي نفسه .

٢ — الكاتب القزويني . من ايران .

٣ — ركن الدين الاسترابادي . من الموصل .

٤ — الفخر الخلاطي . من بتليس (بدليس) .

٥ — المؤيد العرضي . من دمشق .

٦ — الفخر المراغي . من الموصل .

٧ — محي الدين المغربي .

٨ — قطب الدين الشيرازي .

٩ — شمس الدين الشرواني .

١٠ — الشيخ كمال الدين الايجي .

١١ — حسام الدين الشامي .

١٢ — نجم الدين الاسطرلابي .

١٣ — صدر الدين علي ابن الخواجة الطوسي .

١٤ — نجم الدين الكاتب البغدادي .

١٥ — قومنجى (تومهجى) الصيني الملقب (سينك سينك) أي العارف .

١٦ — ابن الفوطي .

١٧ — أصيل الدين حسن ابن الخواجة الطوسي .

وعداه كثيرون من تلامذة هؤلاء عملوا في الرصد . ولا شك أن هؤلاء جمهرة من العلماء قلّ أن تملك أمة هذا العدد . وليسوا كل ما نملك . ولكل نصيب في هذا العمل . وللاحتكاك العلمي بهذه المجموعة قيمته العظيمة ، فظهرت مواهب هؤلاء ومن تبعهم فكانت ثروة لا تقدر . جمع الخواجة الطوسي بين معارف

أهل الأقطار ، فحصل التلقيح العلمي بنتيجة هذا الاحتكاك . ومع هذا نرى التقي محمد بن زين الدين معروف الراصد المتوفى سنة ٩٩٣ هـ يقول في كتابه (سدرة المنتهى) : ان الخواجة الطوسي لم يكن رصده بمراغة جيداً لاشتغاله بالوزارة وتسليمه الرصد الى من لا يساويه أو يقاربه في الفضيلة . وأعتقد أن هذا مبالغ فيه بل ليس بصواب لأن للزمن دخلاً في ظهور النقص في الزيج الايلخاني . لانشعر به في حينه وانما يظهر بعد مدة طويلة كما ظهر أيام أولوغ بك . وهذا ظهر الخلل فيه أيضاً بعد مدة . وهكذا كان شأن الأزياج الأخرى . فهي في تعديل وتصحيح على الدوام حتى ظهرت الأزياج الجديدة بسبب اتقان آلاتها مثل زيج كاسيني ثم زيج لالاند ...

لم نستفد من العالم الصيني الذي اشترك في الرصد ولا من البخشية أي السحرة والروحانيين من المغول . وانما تكامل بعلمائنا وبما خلفناه من كتب . وكان ابن الفوطي من كتاب الزيج ولا يزال الزيج بخطه في خزانة باريس الوطنية . ولعله أصل الزيج الايلخاني . وكان خازن كتب مراغة . فترى العلاقة بالعراق واضحة . وان المدارس العلمية ترعى الثقافة . والشام لا تقل عن بغداد . والمؤيد العرضي كان من أكابر علماء الفلك . ولا يزال أثره في الرصد وآلاته وأسباب عمله مشهوداً . ومنه نسخة في خزانة مدرسة السپهسالار . ورد ذكرها في (فهرس دانشكده معقول ومنقول) وكتب الجزيرة والشام جلبت الى مراغة وأضيفت الى خزانة كتبها . ويقدر المجموع بأربعمائة الف كتاب . وللأقطار العربية والاسلامية نصيب في الاشتغال في الرصد المذكور .

ونشأ علم الفلك في العراق أوائل الدولة العباسية ، وبنيت أرصاد . وعني بها عناية كبيرة . ومن بغداد انتشر في الأقطار ، فتكونت معاهد علمية ضارعت ما في الدولة العباسية . وزاد نشاطها في ايران وفي مصر والشام في عهد العبيديين .

وفي أيام المغول ازدهر علم الفلك بعد أن أصابته جفوة ، وبني الرصد . وخصص له من ريع الوقوف (العشر) . وظهر في العراق جماعة من علماء الفلك كانوا أقرب الى الاتصال بما جرى في ايران بل ان العراق وايران والمملكة التركية في ماوراء النهر وفي الأناضول متصلات بعضها ببعض ، وحكومتها واحدة . والمطالب العلمية مشتركة لا سيما بغداد وكانت عاصمة الدولة المغولية في الشتاء كما كانت تبريز عاصمة المغول صيفاً . ويعول علماء العراق على مخلفات أسلافه ، ولم يغفل عن التطور الجديد بفضل المدارس وما فيها من أساتذة .

١ — مشاهير علماء الفلك في العراق أيام المغول والتركمان :

١ — الخواجة نصير الدين الطوسي :

هو الخواجة نصير الدين محمد بن محمد الطوسي . كان رأساً في علم الفلك والرياضيات والتنجيم في بلاد الاسماعيلية النزارية ، وفي ايران والعراق . ولد سنة ٥٩٧ هـ — ١٢٠١ م . وقد جمع العلماء من مختلف الأقطار للعمل في الرصد . وقام بنشاط علمي ، فتكاملت الثقافة وأثرت في الأقطار الاسلامية بعد أن كانت في خمود وخمول ، فيعد مجدداً لها . وهو صدر الوقوف ببغداد ولم ينقطع عن الاتصال بها .

ومن مؤلفاته في الفلك :

١ — مجموعة رسائله . وعدتها ١٦ رسالة . في مجلدين طبعت في مطبعة المعارف العثمانية في عاصمة حيدر آباد الدكن سنة ١٣٥٩ هـ ومنها ما كان كتبه الخواجة ومنها ما كتبه رأساً . ومن هذه الرسائل جملة في خزانة المجلس الملي الايراني . وبينها ما لم يحرر . وعندي بعض المخطوط منها .

٢ — تحرير المجسطي في الهيئة . قدمه الخواجة الى حسام الدين بن حسن السيواسي في بلاد الأناضول عندي نسخة منه . ومنه نسخ في خزانة أياصوفيا . والأصل لبطلميوس . نقله كثيرون الى اللغة العربية . ومن شروحه :

١) شرح شمس الدين السمرقندي . منه نسخة في خزانة المجلس .

٢) شرح لبعض المتأخرين لم يتعين مؤلفه . أوله : الحمد لله الأول بلا ابتداء ...

٣) لخصه ابن أبي الشكر المغربي . ألفه لأبي الفرج ابن العبري صاحب تاريخ مختصر الدول .

٤) تفسير التحرير . للنظام الأعرج النيسابوري فرغ من تأليفه سنة ٧٠٤ .

٣ — تحرير أوقليدس . في الهندسة والحساب . منه نسخة في أياصوفيا وأخرى في خزانة المجلس . وعندي نسخ عديدة منه . نقله الى العربية كثيرون لجاء هذا التحرير مهماً .

٤ — التذكرة في الهيئة . جامعة لمسائل الفن . ولم يقل الاشتغال بها إلا بعد ظهور (الملخص) للجغميني . ومن شروح التذكرة :

١) شرح الشربني . من العلماء المعاصرين للخواجة .

٢) شرح قطب الدين الشيرازي .

٣) شرح النظام الأعرج . ويسمى (توضيح التذكرة) . ومنه نسخ في الأزهر وفي المجلس الايراني . وعندي نسخة أيضاً كتبت سنة ١١٣٨هـ .

٤) شرح الشريف الجرجاني . ومنه نسخ في خزانة الآثار ببغداد وفي برلين وأياصوفيا .

٥) شرح البرجندي . منه نسخة في المجلس الايراني .

٦) شرح الخفري . اعتمد شرح الشربني ونقل منه ومن غيره . وسماه (التكملة في شرح التذكرة) . منه نسخة في خزانة الآثار ببغداد .

٥ — الزيج الايلخاني . اشترك فيه جماعة . كتبه بالفارسية . ونوه باسم جنكزخان وأولاده وصرح باسم السلطان هولاكو . قال الخواجة : انه من طوس . وصار الى همذان . فأخرجه هولاكو من هناك ، واختاره لعمل الرصد، فطلب العارفين به . وكانت الأزياج قبله كثيرة . والمعروف أو الموجود منها :

١) زيج البتاني . ويقال له (زيج الصابي) أو (الزيج الجامع) . طبع

في روما سنة ١٨٩٩ م. وجاء كوشيار فأوضح ما فيه وسماه (اللامع في أمثلة الزيج الجامع) .

٢) الزيج الشامل . للبوزجاني .

٣) الزيج الحاكمي . لابن يونس . منه نسخة في الخزانة الأهلية بباريس .

٤) زيج حبش . منه نسخة في خزانة برلين . وله ثلاثة أزياج . الممتحن ومنه نسخة في (يكي جامع) وفي كمبرج ، والمأموني على مذهب (سندهند) ، وزيج الشاه . وهو الزيج الصغير .

٥) زيج الخوارزمي .

٦) الزيج السنجري . منه نسخة في الفاتيكان . وهو لعبد الرحمن الخازني .

٧) زيج عمر الخيام . ويقال له (الزيج الملكشاهي) .

٨) زيج المجريطي .

٩) زيج أبي القاسم بن محفوظ المنجم البغدادي . منه نسخة في خزانة باريس الأهلية . وقد وهم صاحب (گاه شماري) في أنه كان تأليفه سنة ٦٨٣ هـ — ٦٨٤ هـ . فان هذا التاريخ يشير الى زمن نسخه .

وهناك أزياج أخرى ذكرها صاحب (علم الفلك وتاريخه عند العرب) ، وصاحب (التراث العلمي) ، وصاحب (گاه شماري) وصاحب (كشف الظنون) . كان من آخرها (الزيج الشاهي) والظاهر أنه كتبه لإمام الاسماعيلية في ألموت ركن الدين (خورشاه) . اختصره نجم الدين ابن اللبودي . وسماه (الزيج الزاهي) . وله أيضاً (الزيج المقرب المبني على الرصد المجرب) .

هـذا والزيج الايلخاني منه نسخ عديدة . منها نسخة رأيتها عند الأستاذ أحمد عبيد صاحب المكتبة المعروفة بدمشق . ومنه نسخة في الظاهرية ، وفي كمبرج ، وفي الخزانة الوطنية بباريس وهي بخط أصيل الدين حسن ابن الخواجة الطوسي . وعلى هذا الزيج نظرات علمية عديدة لما أحرز من مكانة .

١) شرحه حسين بن محمد النيسابوري القمي المعروف بـ (نظـام) وسماه (كشف الحقائق) ٠

٢) شرحه حسن بن حسين شاه السمناني سنة ٧٩٦ هـ ٠ ومنه نسخة في خزانة لندن ٠

٣) لخصه علي شاه بن محمد بن القاسم المعروف بـ (علاء المنجم) الخوارزمي ٠ وسماه (عمدة الايلخانية) ٠

٤) زيج الوابكنى ٠ كتب زيجه على أساس الزيج الايلخاني ٠ وسماه (الزيج المحقق السلطاني على أصول الرصد الايلخاني) منه نسخة في اياصوفيا ٠ وينسب الى القطب الشيرازي ٠

ومن الأزياج :

١ — الزيج الأشرفي ٠ فارسي منه نسخة في الخزانة الوطنية بباريس ٠ ألفه سنة ٧٠٢ هـ ٠

٢ — الزيج الخاقاني في تكميل الزيج الايلخاني ٠ فارسي ٠ لغياث الدين جمشيد الكاشي ٠ عندي نسختان منه احداهما تنقص الورقة الأولى ٠ والأخرى كاملة ٠

وهذه الأزياج والشروح جاءت مكملة وموضحة أو مختصرة للزيج الأيلخاني ولم ينسخ الزيج الايلخاني الا بالزيج الأولوغ بيكي على ما يأتي في محله ٠

٦ — الزبدة في الهيئة ٠ من مؤلفات الخواجة ٠ فارسية ٠ طبعت ٠ ومنهـا نسخة خطية في المجلس الايراني ٠

٧ — بيست باب ٠ فارسي في الاسطرلاب ٠ عندي مخطوطة منه ٠ ومنـه في أياصوفيا وخزائن كتب عديدة ٠ ومن شروحه :

١) شرح البرجندي ٠ ومنه نسخة في خزانة المجلس ٠

٢) لخصه البهاء العاملي ولم يشر الى ذلك ٠ ونقل الداغستاني الى العربيـة رسالة البهاء ولم يصرح باسمه ٠

وفي المجمع العلمي في بطرسبورج آلة اسطرلاب تعزى الى الخواجة الطوسي

وأنه كان يعمل بها . واذا صح فهي من غنائم ألموت من الاسماعيلية هناك كانت مما غنمه منهم عطا ملك الجويني حين فتح هولاكو بلادهم سنة ٦٥٤ هـ .

٨ — الرسالة المعينية في الهيئة . وتسمى بـ (المفيد) . ونسخه في المجلس الايراني وغيره . وطبعت في ايران .

٩ — رسالة حلّ ما لا ينحل . في توضيح الرسالة المعينية . طبعت أيضاً .

١٠ — كتاب الثمرة . ترجمه الى الفارسية باشارة من الصاحب بهاء الدين محمد الجويني . وان احمد بن يوسف الطولوني المهندس شرحه باللغة العربية .

١١ — سي فصل . فارسي في الهيئة والتقويم . وشرحه :

١) بدر الدين الطبري سنة ٨٢٤ هـ .

٢) ميرزا محمد رضا المستوفي المعاصر للشاه عباس الأول . الفه سنة ١٠٦٩ هـ منه نسخة في خزانة المجلس .

٣) كتاب ربيع المنجمين . فارسي منه نسخة في المجلس الايراني .

١٢ — المختصر في علم التنجيم ومعرفة التقويم . منه نسخة خطية باللغة العربية لم يعرف شارحها في خزانة برلين .

١٣ — رسالة مختصرة في الاسطرلاب . فارسية تحتوي على ١٥ فصلاً . عندي مخطوطة منها ضمن مجموعة .

هذه أشهر مؤلفات الخواجة الطوسي . ويعدّ من أكابر المشتغلين بالفلك والرياضيات من فروع الفلسفة الأفلاطونية . قطع الاسماعيلية بصحة هذه العلوم واعتبروها عقيدة فلم ينفك منها الطوسي . والغرض المعرفة العلمية . وهي حاصلة . وكان هولاكو يعتقد بصحة التنجيم مثلهم . ولذا قربه هولاكوخان . وتظهر قيمة مؤلفاته من عناية كثير من العلماء بها . واذا كانت فقدت هذه العلوم مكانتها العلمية بعض الشيء فانها لم تفقد مكانتها التاريخية . ولا صلتها بالعقائد التالية . وعلاقة الخواجة الطوسي بالعراق تبدأ من أيام اكتساح هولاكو

العراق ودامت متصلة ، فنال منصب صدر الوقوف بعد الأستاذ صفي الدين الأرموي . ورد العراق مراراً وأخذ كتبها لخزانة رصد مراغة .

٢ — رضي الدين بن طاووس :

لم تكن الرغبة في التنجيم بسبب المغول . وكذلك الأمر في علم الفلك . وانما تمكنت من أوائل الدولة العباسية أيام الخليفة ابي جعفر المنصور . ولم تكن عقيدة بل ساق الى قبولها الدافع العلمي ، وصارت تعتبر عقيدة عند الباطنية أمثال الاسماعيلية في ألموت وفي رجالهم الآخرين . وهكذا كان شأنها في أيام المغول ، فلم يخرجوا عن أحكام النجوم وما يوحيه التنجيم .

ومها كان الاتجاه علمياً أو مذهبياً فلم ينقطع هذا الاتجاه بالتنجيم حتى أواخر الدولة العباسية وجاء المغول فزادوا العناية به . والعراق لم يخل من أمثال هؤلاء ممن اشتركوا في بناء الرصد . وممن ذكرت له المعرفة بالتنجيم الموفق ابن الفوطي . ومال الى ذلك كثير من العلماء . ولعله مقرون بالفلك ملازم له . ومن هؤلاء (رضي الدين علي بن طاووس) .

كان من العلماء المعروفين . وله اشتغال بالتنجيم وتاريخه . ذكرته في تاريخ العراق بين احتلالين . ومن مؤلفاته :

١ — فرج المهموم في أحكام النجوم . فيه فوائد تاريخية . وطبع في النجف إلا ان طبعته مغلوطة .

٢ — الملاحم والفتن .

وفي الذريعة جاء ذكر مؤلفاته في مختلف مجلداتها . توفي سنة ٦٦٤ هـ عن نحو ٧٣ عاماً [1] .

٣ — أبو الحسن اليشكري :

هو علاء الدين ابو الحسن علي بن محمود بن حسن بن نبهان بن سند اليشكري

---

(١) تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٢٦١ .

الربعي البغدادي الأصل البصري المولد . كان منجماً وشاعراً . ولد سنة ٥٧٥ هـ .
وكانت له اليد الطولى في الفلك وحل التقاويم مع النظم وحسن الخط .
توفي سنة ٦٨٠ هـ بدمشق [1] .

٤ — ابراهيم بن عمود الجلاد الموصلي :

أستاذ في الفلك . عثرنا على تقريظ له لكتاب (منهج الطلاب في العمل بالاسطرلاب) . وهذا الكتاب للملك الأشرف عمر بن الملك المظفر يوسف من سلاطين الدولة الرسولية . قرظه المترجم سنة ٦٩٢ هـ وقبلها ، فقال :

«شهدت له بالجودة في الصناعة ووضعت له خطي هذا شاهداً على صحة ذلك . وأجزت له أن يعمل ما شاء من الاسطرلابات . فهو عندي صحيح العمل لما وثقت من جودة معرفته وذكائه وفطنته واختباري له من ذلك .» اهـ [2] .

ومنه نسخة في خزانة المجلس الايراني ، وأخرى في خزانة الأستاذ احمد تيمور باشا رحمه الله . وممن قرظه حسن بن علي النهري المظفري نسبة الى الملك المظفر والد المؤلف [3] .

٥ — نور الدين الساعاتي :

هو علي بن تغلب الساعاتي . والد صاحب مجمع البحرين في الفقه الحنفي (أحمد ابن الساعاتي) . كان يتولى تدبير الساعات في المستنصرية . ولد سنة ٦٠١ هـ . وعمل الساعات المشهورة على باب المستنصرية ببغداد . وكان مشتهراً في الهيئة والنجوم وعمل الساعات .

وجاء وصف هذه الساعات في الكتاب المنسوب الى ابن الفوطي بما نصه : «وصوّر فيها — في المستنصرية — صورة الفلك ، وجعل فيها طاقات لطافاً ،

---

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٠٧ والسلوك للمقريزي ج ١ ص ٧٠٥ وتاريخ العراق ج ١ ص ٣٠٢ .

(١) خزانة المجلس الايراني ج ٢ ص ٨١ .

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج ٢٧ ص ٥٢ وهناك تفصيل .

لها أبواب لطيفة . وفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين من ذهب ، ووراءهما بندقتان ، وكل ما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات . والباب من ذهب ، فيصير حينئذ مفضضاً . واذ وقعت البندقتان في الطاستين تذهبان الى مواضعها ، ثم تطلع أقمار من ذهب في سماء ازوردية في ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية وتدور مع دورانها ، وتغيب مع غيوبتها . فاذا جاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها . كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر . ثم يبتدئ في الدائرة الأخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس ، فيعلم بذلك أوقات الصلاة . ونظم الشعراء بذلك أشعاراً ... » اهـ[1] .

٦ — ظهير الدين الكازروني :

عالم بغدادي مؤرخ كاتب له عناية كبيرة بالعلوم الرياضية لا سيما الحساب . وهو الشيخ ظهير الدين علي بن محمد الكازروني . كان حيسوباً . وعرفت له مزايا علية وأدبية وتاريخية ومن مؤلفاته في الرياضيات :

١ — كنز الحساب . في مجلد واحد . جاء ذكره في كشف الظنون باسم (وكر الحساب في الحساب) . والأصل هو المعروف . وأعتقد أن الثاني تصحيفه . توفي سنة ٦٩٧ هـ — ١٢٦٧ م[2] .

٧ — أصيل الدين ابن الخواجة الطوسي :

من الأفاضل . كان له اطلاع كبير في (الاختيارات) أو (الأحكام) . فهو من أهل التنجيم البارزين . تلقى من والده ، وسكن العراق أمداً طويلاً . وتوفي سنة ٧١٥ هـ[3] .

---

(١) التاريخ المنسوب للفوطي ص ٨٣ وفي رحلة ابن جبير وصف مثل هذه الساعة.
(٢) تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٢٨٠ وطبقات السبكي ج ٦ ص ٢٤٢ والدرر الكامنة ج ٣ ص ١١٩ .
(٣) عقد الجمان والشذرات ج ٦ ص ٣٥ وتاريخ العراق بين احتلالين ج١ ص٤٢٧.

٨ — ركن الدين الاسترابادي :

تلميذ الطوسي . أبو الفضائل . كان يعيد دروس النصير في الحكمة . واشترك في الرصد . ويعد من أكابر رجال الفلك المعدودين . وفي الشذرات ان الطوسي جعله رئيس أصحابه ببراعة . ويعيد دروس الحكمة . ثم انتقل الى الموصل ، ودرّس بالنورية . وذكر وفاته في سنة ٧١٥ هـ وفي حوادث سنة ٧١٨ هـ . وفي (الفلاكه والمفلوكون) بيّن هذا التاريخ (١) .

٩ — الخطائي البغدادي :

العلامة الحكيم علاء الدين علي بن تبان بن مختار البغدادي . ويعرف بالخطائي . كان فاضلاً في العلوم الرياضية والطب . سكن حماة وقرأ عليه ملكها المؤيد اسماعيل بن علي كتاب (التذكرة) في الهيئة للخواجة الطوسي (٢) . وله :

١ — تقويم الكواكب السيارة . ورد في خزانة جامع الأزهر (الخطابي) . وصوابه الخطائي . أوله : الحمد لله تعالى . اعلم ان طريق التقويم من هذه الجداول ... والمعتقد ان مما يتمه (جداول اتصالات الكواكب السيارة) . ومنه نسخة في الجامع الأزهر أيضاً .

١٠ — ابن الخوام البغدادي :

طبيب ورياضي فلكي . وهو من أكابر العلماء في الرياضيات . ولم يذكر في التراث العلمي . وانما نعته بالبغدادي ولم يكن من عصر الخواجة الطوسي . ومن مؤلفاته :

١ — كتاب الفوائد البهائية في القواعد الحسابية . وشرحه :

أ) كمال الدين حسين الفارسي وسماه (أساس القواعد في أصول الفوائد) .

---

(١) الشذرات ج٦ وتاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص٤٣٦ والفلاكه والمفلوكون ص ١١١ وتاريخ العبر للذهبي .

(١) تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٤٥٩ عن عقد الجمان ج ٢٢ .

٢) عبد العلي البرجندي . فرغ منه سنة ٨٩١ هـ .

٣) يحيى بن احمد الكاشي وسماه (ايضاح المقاصد في الفرائد الفوائد)[١].

١١ — ابن الفوطي :

من أكابر المؤرخين . اشتغل مع الطوسي ، وتولى ادارة خزانة مراغة . وبخطه كتب زيجاً عربياً . ونسخته في الخزانة الوطنية بباريس الا أنه لم يعرف واضعه أو مؤلفه . ولم تقف على اشتغاله في الفلك . وجاء في الشذرات أنه أسر في واقعة بغداد . وخلصه الخواجة الطوسي وأخذ عنه علوم الأوائل . برع في الفلسفة وغيرها وأمدّه بكتابة الزيج وغيره من علوم النجوم[٢] .

وهكذا لم ينقطع الاتصال بالفلك أيام المغول حتى انقراضهم . ومن ظواهر هذا العهد:

١ — رغبت الدولة في الميل الى التنجيم مع أنه مما ينكره غالب العلماء ، فتوسع الاتصال به .

٢ — بني الرصد في مراغة ، فصار يبذل في سبيل اكماله مبالغ طائلة وخصص له من غلة الأوقاف العشر .

٣ — وضع الزيج الايلخاني . وكان من نتائج عمل الرصد . ونال عناية من بعض العلماء .

٤ — ظهرت مؤلفات عديدة في الفلك وتجلت مواهب لا تحصى من جراء الجهود المتعاضدة المجتمعة .

٥ — وضع (التاريخ الايلخاني) أيام السلطاني محمود غازان . وهذا التاريخ ابتدأ السنة الأولى من ١٣ رجب سنة ٧٠١ هـ — ١٣٠٠ م ، وصار يعتبر السنة الأولى . وجرى العمل به في الأمور المالية . وكانت حاولت الدولة العباسية جعل ما سمته بـ(السنة الخراجية) متصلة بالهجرية بطريق الازدلاق أو الازدلاف في كل ٣٣ سنة واخرى مثلها . ثم في ٣٤ سنة أي كل مائة سنة ثلاث سنوات .

---

(١) تراث العرب العلمي وكشف الظنون .

(٢) التعريف بالمؤرخين . لكاتب للقال لا يزال مخطوطاً وشذرات الذهب ج٦ ص٦٠

وهكذا الأمر في (الأيام المسترقة) بسبب بعض الأيام الكبيسة وغيرها ·
وهو من نوع (الزحف) للموظفين باصطلاح هذه العهود الا أن هذا لم ينجح
في معاملات الناس · وكانت التواريخ قبله بالسنة اليزدجردية ، وبالسنة الجلالية
أو الملك شاهية نسبة الى جلال الدين ملكشاه السلجوقي · وجرى العمل على
التوفيق بين السنين الهجرية والشمسية في العهد العثماني · ولم يعترف بالسنة
الايلخانية وكانت تسمى بالسنة المالية . ويقال للازدلاق عندهم (سيويش)
فلم تنجح في الاتصال بهذه السنين لحصل التفاوت بينها وبين السنين الهجرية
بسبب اهمال هذا الازدلاق حتى قررت قبول (السنة الافرنجية) او (السنة
الميلادية) مع السنة الهجرية للأعياد والمواسم الدينية -

ومثلها ايران قبلت السنة (الهجرية الشمسية) · وفي الأقطار العربية جرى
الأمر على التاريخ الميلادي والهجري معاً · ويطول البحث في تاريخ السنين
الشمسية والتوفيق بينها وبين السنين الهجرية · وللايرانيين كما لليهود والقبط والغربيين
أيضاً طرق خاصة في هذا الباب والفصل بين التاريخين أسهل وأبسط الا ان استعمال
السنة الميلادية فيه نظر · وكان الأولى أن يستعمل التاريخ الهجري القمري
على حدة والشمسي الهجري على حدة .

٦ — ضربت النقود في أيام السلطان أبي سعيد من سلاطين المغول على السنين
الايلخانية في السنة الثالثة والثلاثين منها · وفي السنة الرابعة والثلاثين · وهذه
الأخيرة قوبلت بالهجرية · ولم نجد من ضرب بعدها مراعياً التاريخ الايلخاني ·
وهو على السنين الشمسية · فلم ينجح ·

٧ — ظهرت مؤلفات عديدة في الفلك باللغة الفارسية · وكان الغالب اللغة
العربية وهي لسان العلم الا أنه لم ينقطع الاشتغال باللغة العربية والاتصال
بمؤلفاتها · ثم تلتها المدونات باللغة التركية بعد هذا العهد · وفي هذا لم يتبدل
المصطلح باللغة العربية ·

(يتبع) عباس العزاوي

أقدم تأليف في الحديث النبوي

صحيفة همّام بن منبّه ومكانتها في تأريخ علم الحديث

تمهيد

لا يعرف قدر الشيء إلا مالكه . وغير المسلمين لا يقدرون الحديث النبوي وما يتعلق به من أصول الرواية والدراية حق قدره . لأنهم لم يعنوا بأحاديث أنبيائهم كما عني المسلمون بحديث نبيهم لذلك كان أكبر همهم عدم العناية بالحديث الاسلامي والطعن في صحته جهلاً وحسداً .

وليس عجباً أن العرب لم يعتنوا في جاهليتهم بالتدوين والكتابة بخلاف عنايتهم بها بعد أن أسلموا وآمنوا بالله وحده ؛ ولكن الذي يدعو الى العجب أن الأمد الذي انقضى بين جاهليتهم وبين اعتنائهم بأصناف العلوم كان من أقصر ما عرفه التأريخ الإنساني لمثل هذا التطوّر السريع حتى إن ذلك ليدهش المؤرخ . فلم يكن في مكة ، لما بعث النبي ﷺ ، إلا بضعة عشر رجلاً يقرأون ويكتبون . وعددهم في المدينة المنورة أقل من ذلك . وصارت العربية من أغزر لغات العالم علماً وأدباً منذ القرن الثاني للهجرة . فكيف كان هذا ؟

بدأت الحكومة الإسلامية في السنة الأولى للهجرة ولم تشمل حينئذ إلا جزءاً من المدينة المنورة ؛ أما سائرها فكان في أيدي اليهود أو العرب المشركين . وكان في جزيرة العرب مئات من القبائل ، أي مئات من « الدول المستقلة » لا تخضع واحدة لأخرى . ولم تشتمل الحكومة الاسلامية قبل هدنة الحديبية في أواخر السنة السادسة للهجرة إلا على بضع مئات من الأميال المربعة من الأرض .

ولكن هذه الدولة الاسلامية كانت قد امتدت عند وفاة النبي ﷺ ، بعد خمس سنوات ، الى مساحة تنيف على مليون من الأميال . وما انقضت بعد ذلك خمس عشرة سنة حتى دخل الجند الاسلامي في خلافة سيدنا عثمان (سنة ٢٦ هـ) الأندلسَ من جهة على ما روى الطبري [١] ، بعد أن اخضعوا جميع شمالي إفريقية وتجاوز جيحون الى ماوراء النهر من جهة ثانية [٢] ؛ أما في الجنوب فقد بلغت هذه الجنود ، منذ خلافة سيدنا عمر الفاروق على ما روى البلاذري [٣] ، موانئ تانه (بمباي) ودَيبل (كراتشي) ، وفي الشمال أرمينية وما وراءها [٤] .

ولم يكن عند العرب حينئذ عدد ولا عدّة كما كان عند من ناوشوهم من الروم والفرس وسائر العجم . وكذلك لم يعرفوا فنون الحرب والقتال المعروفة عند أعدائهم . وفوق هذا كله ، لم يخرجوا من بيوتهم وأخبيتهم لمجرد النهب والغارات الجاهلية ، بل لتكون كلمة الله هي العليا . فعاداتهم الطبيعية وتربيتهم الإسلامية هي التي ساعدتهم على الوصول إلى غايتهم . ففتوحات السيف وفتوحات القلم ليست لديهم إلا مظهر أمر واحد وداعٍ واحد .

ولسنا بصدد الكلام على سياسة السيف وكيفية نشأتها وارتقائها ؛ فلنقصر الكلام على سياسة القلم والعلم في فجر الاسلام .

اهتمام النبي بنشر التعليم :

من المعروف أن نبي الإسلام كان أميًا ، وقد شهد بذلك القرآن فقال : «ما كنت تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون» . وأول وحي أوحي اليه اشتمل على أمر الله أن : «اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علَق . اقرأ

(١) تاريخ الطبري ، ص ٢٨١٧ وما بعد (طبع اوربا) .
(٢) فتوح البلدان للبلاذري (طبع اوربا) ص ٨ - ٤٠ ، ووافقه تواريخ أهل الصين.
(٣) فتوح البلدان ص ٣٤٨ .
(٤) تاريخ الطبري ، ص ٢٨٢٧ (في السنة ١٩) .

وربك الأكرم الذي علّم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم» . فالأمر بالقراءة وتمجيد أوصاف القلم والكتابة ، هذا ما شرع به الاسلام لمتبعيه . فكان سيدنا محمد «في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم» ، فينوّر أذهانهم كما يصفي أخلاقهم في الوقت نفسه . وكذلك كان يأمر بكتابة آيات القرآن وسوره المنزلة الى ذلك الزمان .

فلم يسمعه إلا قليل من أهل بلده ، وبدأوا يؤذونه ومن تبعه في الله . فلما بلغ سيل المحن الزُّبى ، هاجر مع من استطاع الى المدينة ووضع هناك أساس دولة . فنزلت سورة البقرة في أول ما نزل بعد الهجرة ، ونزل فيها آية المداينة المعروفة :

« يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدَين الى أجل مسمى فاكتبوه ... واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ... ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألاّ ترتابوا » الآية .

فلم يزد إلا اعتناء بالكتابة والعلم .

وأول ما بدأ به الرسول من العمل كان بناء المسجد النبوي وجعل في هذا المسجد صُفّة ليقيم فيها طلاب العلم . وعين أساتذة يعلمون فيها الكتابة والقراءة ومسائل الدين الى غير ذلك فكان عبد الله بن سعيد بن العاص يعلمهم الخط [1] . وكذلك روي عن سيدنا عبادة بن الصامت أنه أمره النبي ﷺ أن يعلم الناس الكتابة ويقرئهم القرآن في الصفة [2] .

ولم يمض على ذلك سنة حتى كانت وقعة بدر : زاد عدد المسلمين فيها ثلاثة أضعاف عدد العدو ، وأسروا عدداً كثيراً منهم . ومن غريب ما عومل به

(١) استيعاب ابن عبد البر ٣٩٣٢ ، التراتيب الادارية للكتاني ٤٨/١ . وقال : « وكان كاتباً محسناً » . راجع أيضاً الاصابة ترجمة الحكم بن سعيد بن العاص .
(٢) الكتاني ٤٨/١ عن سنن أبي داود .

الأسرى أنه أذن لمن كان منهم كاتباً ان يعلم كل واحد منهم عشرةً من صبيان المسلمين الكتابة والقراءة ، فداء لنفسه [١] وقد بوّب بعض قدماء المحدّثين هذه الواقعة فعنونها «جواز المعلم المشرك» . وحقّ له . ولم يكن هذا حادثَ حدث ، بل كان مطابقاً لسياسة مستمرة في نشر التعليم . وكثيراً ما كان يقول النبي «بعثت معلماً» [٢] . وكان يأمر الصبيان أن يتعلموا من جيرانهم [٣] وأن يتدارسوا في مسجد حارتهم [٤] . وذكر البلاذري [٥] «أنه كان بالمدينة تسعة مساجد فكانوا يصلون فيها ويجمعون مع رسول الله» . ويروى أن أهل جُواثا (في منطقة عُمان والبحرين) بنوا مسجداً فكان أول مسجد بعد ما كان في المدينة . وكان قد كتب اليهم أن «خطوا المساجد كذا وكذا وإلا غزوتكم» [٦] . وكذلك لما بعث عمرو بن حزم رضي الله عنه عاملاً الى اليمن ، كتب له أوامره وفيها أوامر لنشر التعليم [٧] . وذكر الطبري [٨] في أحوال سنة ١١ أن النبي ﷺ كان قد بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه الى اليمن ناظراً للتعليم فكان يتنقل من عمالة الى عمالة ويراقب المدارس .

ولم يكتف بتعليم الرجال ، بل اعتنى بالنساء كما اعتنى بالرجال . فأم المؤمنين حفصة بنت عمر كانت كاتبة في حياة النبي على مارواه ابو داود . ولا نحتاج الى تفصيل طويل لهذه الناحية سوى أنه كان من نتائج هذه السياسة في شأن تعليم

(١) طبقات ابن سعد ١/٢ ، ص ١٤ ، روض الانف للسهيلي ٩٢/٢ ، مسند ابن حنبل ٢٤٧/١ .

(٢) ابن ماجة ، باب فضل العلماء : مختصر بيان العلم لابن عبد البر ، ص ٢٥ .

(٣) الكتاني ٤١/١ عن الاصابة ومجمع الزوائد .

(٤) ابن عبد البر ، ص ١٤ .

(٥) أنساب الاشراف (مخطوطة القاهرة) ٤٢٠/١ .

(٦) راجع كتابي الوثائق السياسية رقم ٧٧ .

(٧) الوثائق السياسية ، رقم ١٠٥ ، عن ابن هشام والطبري .

(٨) تاريخ الطبري (طبع اوربا) ص ١٨٥٢ — ١٨٥٣ ؛ ١٩٨٣ .

النساء أن المسلمات أصبحن فيما بعد يبارين الرجال في ميادين شتى من العلم . ويرى القارئ أن بين السماعات التي توجد على المخطوطة الدمشقية من صحيفة همام ابن منبه ، التي نحن بصددها ، سماعاً على معلمة وهي ام الفضل كريمة بنت ابي الفراس نجم الدين القرشية الزبيرية . بمنزلها وكذلك كتاب الأموال لأبي عبيد ، الذي هو في الأمور المالية الدقيقة من موارد الدولة ومصارفها ، يبتدئ بعد البسملة ، بهذه الكلمات : « قرئ على الشيخة الصالحة الكاتبة فخر النساء شهدة بنت أبي نصر احمد بن الفرج بن عمر الإبري الدينوري بمنزلها ببغداد » . ولا نحتاج للقرون الابتدائية إلا أن ترجع الى أسانيد الرواة من كتب الحديث للصحابيات والتابعيات ومن تبعهن .

تدوين الحديث :

فهذه نماذج من أثر السياسة النبوية في أمر العلم عامة . أما الحديث فهو ما يهمنا خاصة . ومرادي بالحديث حديث الرسول ، وهو يحتوي على أقواله كما يحتوي على ذكر ما فعله بنفسه او قرر ما فعله غيره من أصحابه فلم ينكره ، فهذا التقرير والتصديق ، له مكانة قانونية ، كأنه فعله الذي قرّره .

والأمر الوحيد الذي يشغلنا هنا هو مسألة الثقة بكتب الحديث ، لاغير . فان الكتاب الذي تنشره اليوم ، أعنى صحيفة همام بن منبه ، هو أيضاً تأليف جمع فيه أحاديث النبي ﷺ .

من المستحيل البديهي أن يكتب ويدوّن جميع ما قال النبي أو فعله أو قرره ، فهذا من وظائف الملائك « كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون » . وكذلك لن يصح القول أنهم لم يكتبوا شيئاً ، فان الحقائق على خلافه . وعلى كل مادونته هذه الأمة الأمية وما كتبته من أحاديث نبيها يفوق بكثير ما كتبت أمم أخرى عن أنبيائهم ، كما فاقت عليها ، في إبان أمرها ، في أمر فتوح البلدان ونشر الدين في القارات .

. ولا بأس أن تشكك تشكيك سائل ونرتاب في هذا الأمر فلا نقرر إلا مالا مجال لنا لإنكاره . فماذا كتبوا من الأحاديث في أول أمرهم ؟

الحديث المكتوب في العهد النبوي :

(أ) لما هاجر المسلمون من أهل مكة إلى المدينة ، أقاموا هناك أساس مملكة ودولة مدينة (Cité - Etat) وكان يشاور النبي ﷺ أهاليها وسكانها من المهاجرين والأنصار واليهود وسائر من لم يسلم حينئذ من عرب المدينة ، فسجل دستور دولة — وهو أول دستور مملكة كتب ودون في العالم بأجمعه[1] — وذكر فيه حقوق الحاكم والمحكوم عليه وواجباتهما . فبدأ :

« هذا كتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . إنهم امة واحدة من دون الناس . . . » الخ[2] .

فيقول « هذا الكتاب » ، ولا بد أن يكون مكتوبا محرراً . وكرر خمس مرات في نفس الدستور كلمة « أهل هذه الصحيفة » . وقال كذلك « لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم » . وقال « إن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة » ؛ ولكن يفصل حدود الحرم اليثربي . قال ابن حنبل في مسنده[3] : « عن رافع بن خديج . ان المدينة حرم حرّمها رسول الله ﷺ وهو مكتوب عندنا في أديم خولاني » . وكان من واجب السياسة أن يحدد حدود المملكة وأرض دولتها فأرسل من يبني أعلام الحدود كما روى المطرزي في « ما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة »[4] فقال : « عن كعب

(١) الوثائق السياسية ، رقم ١ ، عن ابن هشام وابي عبيد وغيرهما . راجع مقالتي « اول دستور مسجل في العالم » في تقريرات مؤتمر دائرة المعارف بحيدر آباد .
(٢) الوثائق السياسية رقم ١ .
(٣) ج ٤ ، ص ١٤١ ، رقم الحديث ١٠ .
(٤) مخطوطة مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت .

ابن مالك قال : بعثني رسول الله ﷺ أعلم على أشراف مخيض وعلى الخفيا وعلى ذي العشيرة وعلى تيم » الخ .

(ب) وكذلك أمر النبي ﷺ في أوائل الهجرة باحصاء المسلمين . فقد روى البخاري في صحيحه[١] أن النبي عليه السلام قال : « اكتبوا لي من تلفظ بالاسلام من الناس فكتبنا له ألفاً وخمس مائة رجل » ذكرانهم وإناثهم وصغارهم وكبارهم . فكان إحصاء النفوس هذا أيضاً مكتوباً . والعدد الذي بلغ يدل أنه كان من السنة الاولى للهجرة .

(ج) بدأت الوثائق السياسية والمعاهدات الرسمية من قبل الهجرة ولا يهمنا ههنا اعطاء حبرون لتميم الداري قبل الهجرة ولا كتاب أمان لسراقة بن مالك المولجي أثناء سفر الهجرة . ويظهر[٢] أنه كان قد عاهد قبيلة جهينة في السنة الأولى للهجرة ولكن لم يصل إلينا نصه . أما معاهدة بني ضمرة ، فقد عقدت في صفر سنة ٢ فيما رواه السهيلي[٣] ، ونصها : « هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة » الخ . ومثلها تسلسلت ودامت باقي حياته ﷺ . ومن المعروف كتاب المراوضة[٤] زمن الخندق (سنة ٥) مع بني فزارة وغطفان ، والتحاجج والخلاف على كتابة بعض الكلمات والشرائط في هدنة الحديبية[٥] وكيف أمر النبي عليه السلام الكاتب ، وهو علي بن أبي طالب ، أن يمحو بعض ما كتب . وذكر المؤرخون[٦] في غزوة تبوك أن اكيدر الحيري ،

(١) باب كتابة الامام الناس .

(٢) سرية حمزة إلى سيف البحر عند ابن هشام وغيره : « فحجز بينهم مجدي بن عمر الجهني وكان موادعا للفريقين » .

(٣) الوثائق السياسية ، رقم ١٥٦ .

(٤) الوثائق السياسية رقم ٨ .

(٥) انظر المراجع ، الوثائق السياسية رقم ١١ .

(٦) الوثائق السياسية ، رقم ١٩٠ .

صاحب دومة الجندل ، تعاهد مع المسلمين وكان النبي عليه السلام ، لما كتب عهده «ختمه بظفره» [١] . وكان من تقاليد أهل الحيرة ، وأكيدر منهم ، أن يمضوا معاهداتهم بظفرهم – لا بإبهامهم – فكانوا يختمون بظفرهم فيظهر خط مثل شكل هلال صغير . ونجد هذه العادة هناك من قديم الزمان فبقي أثرها وذكرها في معاهداتهم التي كتبت زمن الجاهلية ، على لبنات الطين وعثرت عليها في الأزمنة الحديثة [٢] .

(د) وكذلك كتبه التبليغية الى قيصر وكسرى والمقوقس والنجاشي وغيرهم لا يعقل الا أن تكون محررة مكتوبة . وقد بقي بعضها الى هذا الزمان مثل كتابه الى المقوقس والنجاشي والمنذر بن ساوى (بحثت فيها في مقالات خاصة [٣]) . وذكر ابن عساكر في تأريخ دمشق [٤] أن أبا العباس عبد الله بن محمد كان قد اشترى معاهدة أيلة من أهلها بثلاث مائة دينار كأثر مبارك من الآثار النبوية .

(هـ) وكثيراً ما احتاج النبي عليه السلام أن يكاتب عماله في أنحاء جزيرة العرب ، يبلغهم أوامره . وكذلك كتبوا اليه وسألوه أشياء في معضلات الحوادث فأجابهم بالكتابة . وقد تواتر الذكر في كتب الحديث أن النبي عليه السلام كتب [٥] مسائل الزكاة الى عماله ، وتوفي قبل أن تنفذ اليهم ، فعمل بها الخلفاء بعده .

---

(١) طبقات ابن سعد ١/٢ ، ص ١٢٠ . ونقله الكتاني (١٧٩/١) . أيضاً عن الاصابة في ترجمتي وهب بن اكيدر ، واكيدر بن عبد الملك .

(٢) Meissner, Babylonien u. Assyrien, I, 179; O. Krückmann, Neue Babylonische Recht - u. Verwaltungstexte, 37/28; Ch. Edwards, The Hammurabi Code, p.. II .

(٣) بالهندية في تأليفي « رسول أكرم كى سياسى زندكى » ، الباب « مكتوبات نبوى كى دو اصول » والباب « مكتوب نبوى بنام نجاشى » .

(٤) الطبعة الجديدة ٤٢٢/١٢ (تحقيق المنجد) .

(٥) سنن الدارقطني وابي داود والطبراني والدارمي وكنز العمال وغير ذلك .

والغرض من هذه الأمثلة أنه لا بد أن يكون قد كتب مثل هذه الأحاديث (الوثائق الرسمية) في حياته ﷺ فان المطلوب منه لا يحصل الا بالكتابة. وقد جمعت ما وجدته في الكتب، في تأليفي (الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة) وفيه أكثر من مائتين وخمسين للعهد النبوي خاصة. وقد أضفت اليها أربعين أخرى تقريباً للنشرة الثانية التي تحت الطبع. وهناك أمثلة أخرى من كتابة الحديث.

الكتابة الاتفاقية:

روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ خطب خطبة في مكة عام الفتح في حقوق الانسان: «فجاء رجل من أهل اليمن ـ وهو ابو شاه ـ فقال: اكتب لي يا رسول الله. فقال: اكتبوا لأبي فلان ... قال: كتب له هذه الخطبة». (باب كتابة العلم).

وروي عن عتبان بن مالك الأنصاري أنه سمع يوماً كلاماً للنبي عليه السلام فأعجبه. فكتبه ليحفظه [1].

نعم هذه حوادث اتفاقية وليس بجميع ما روي مثلها في التأريخ للعهد النبوي.

الكتابة بالجد والاهتمام:

(أ) روى الترمذي [2] أن صحابياً من الأنصار حضر الى النبي عليه السلام وشكا سوء حفظه، وتأسف وتحير كيف يعمل في المواعظ والحكم التي يسمعها كل يوم منه. فقال له: «استعن بيمينك»، أي اكتب. فلا بد أن يكون قد كتب بعد ذلك. ولكن لا نعرف تفاصيل أخرى لهذا.

(١) نقله الاستاذ محمد زبير الصديقي، كأنه عن الاصابة.
(٢) في كتاب العلم كما ذكره زبير الصديقي.

(ب) روي [١] مثله عن عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي . فلما أمره النبي ﷺ أن يكتب ما يشاء ، تعجب وقال : «أكتب كل ما أسمع منك ؟ قال : نعم . قلت : في الرضا والغضب ؟ قال : نعم فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقاً . وفي البخاري [٢] عن وهب بن منبه عن أخيه ـ وهو همام ، صاحبنا ـ قال : «سمعت أبا هريرة يقول : ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب . تابعه معمر عن همام عن ابي هريرة » . وكان عبد الله بن عمرو سمى مجموعته هذه «الصحيفة الصادقة» . ويقال إن فيها ألفاً من الأحاديث [٣]. وبقيت في عائلته فكان حفيده عمرو بن شعيب يحدث على أساسها ويروي أحاديثها [٤] . ورحم الله ابن حنبل فانا نجد هذه الصحيفة محفوظة في ضمن مسنده الجليل ، فصانها من إتلاف الحدثان .

(ج) وكان أبو رافع ، مولى رسول الله وخادمه ، استأذنه أن يكتب أحاديثه فأذن له [٥] .

(د) وأهم من هذا كله أنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه . وكان أبواه قد أمراه حين الهجرة ، أن يخدم النبي ﷺ في بيته فبقي لم يفارقه ليلاً ولا نهاراً الى أن توفاه الله بعد عشر سنوات ؛ وعاش أنس بعده طويلاً . وكان رأى وسمع ما لا يتيسر لغيره . وروى الدارمي أن أنساً كان دائماً يعظ بنيه : «يا بَنِيّ قيدوا هذا العلم» . وروى الدارمي أيضاً : «رأيت أبان يكتب عند أنس» .

---

(١) ابن سعد ، ابن حنبل ، ترمذي وآخرون .
(٢) باب كتابة العلم .
(٣) زبير الصديقي عن اسد الغابة .
(٤) تهذيب التهذيب لابن حجر ٤٨/٨ ـ ٥٥ ، رقم ٨٠) .
(٥) زبير الصديقي عن تهذيب التهذيب ٤٤٠/٣ ابو رافع او رافع .

كيف لا وقد عُني هو بنفسه ان يكتب الحديث أكثر من غيره . فقد روى جماعة مثل الحاكم في المستدرك وغيره ، عن سعيد بن هلال :

« قال : اذا أكثرنا على أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه فأخرج الينا مجالاً عنده ، فقال : هذه سمعتها من النبي ﷺ فكتبتها وعرضتها عليه » .

فكان لا يكتفي أن يكتب ما سمع أو رأى ، بل كان أيضاً يعرضه على صاحبه ويصحح اذا مست الحاجة .

فهذه من الحوادث التي نقلت عن الصحابة وهي تدل على أنهم كانوا يكتبون لأنفسهم الحديث النبوي في حياة نبيهم .

تأليف كتاب على يد صحابي :

من المعلوم أن عمرو بن حزم رضي الله عنه أرسله النبي عليه السلام عاملاً الى اليمن وكتب له وثيقة عهد فيها عهده وأمره فيها أمره . فحفظ عمرو بن حزم هذه الوثيقة فلم يتلفها ثم جمع واحداً وعشرين كتاباً آخر كتبها النبي ﷺ ليهود بني عاديا وبني عريض ، لتميم الداري ، لجهينة وجذام وطيء وثقيف وغيرهم . فضمها في تأليف فكان أول مجموعة للوثائق السياسية الاسلامية للعهد النبوي . وقد رواها عنه ابو جعفر الديبلي (البا كستاني) من محدثي القرن الثالث للهجرة . ونقله ابن طولون ذيلاً لتأليفه « إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين » (مخطوطة من يد المؤلف في خزانة المجمع العلمي بدمشق ، وقد طبع بعدُ) .

تدوين الحديث في عهد الصحابة :

وفي المصادر روايات كثيرة عن الصحابة تدل على أنهم كتبوا الأحاديث بأيديهم أو أملوها على تلامذتهم . ولو أن هذا حدث بعد وفاة النبي فان شاهدي الوقائع أنفسهم لا يحول جيل بينهم وبين تدوين ما وعوا وما حفظوا .

(أ) فروى الامام مسلم [١] في صحيحه أن جابراً رضي الله عنه ألف كتاباً في الحج - لعله اشتمل على ذكر حجة الوداع وأحاديث أخرى وردت في مسائل الحج - وكانت له حلقة درس في المسجد النبوي ، فكتب وهب بن منبه ، صاحب التصانيف التأريخية ، أحاديثه من املائه [٢] . وروى البخاري [٣] عن قتادة ، التابعي الشهير أنه قال : « لأنا بصحيفة جابر أحفظ مني من سورة البقرة » . وكذلك يروى عن تلميذ آخر له ، وهو سليمان بن قيس اليشكري ، أنه كتب ما روى جابر من الأحاديث [٤] . وقد درس على جابر آخرون وكتبوا عنه صحيفته ورووا عنه [٥] .

(ب) كانت أم المؤمنين عائشة تقرأ ولا تكتب . وروي أن ابن اختها (عروة بن الزبير) صنف ما قد حوى روايات عائشة وغيرها وقد ضاع كتابه زمن فتنة الحرة فكان يقول فيما بعد : « لوددت أن كنت فديتها بأهلي ومالي » [٦] . ولعائشة الصديقة تلامذة آخرون . منهم عمرة بنت عبد الرحمن ، كانت قد ربتها من طفولتها نحن لا نعرف هل كتبت عمرة شيئاً بيدها أم لا ، ولكن كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز الى عامله في المدينة ابي بكر بن محمد بن عمر بن حزم - وكان ابن اخت عمرة - « أن يكتب له من العلم ما عند عمرة بنت عبد الرحمن والقاسم بن محمد » [٧] . وكان القاسم هذا ، ابن أخي عائشة الصديقة ، وكان يتيماً فحضنته وربته وكان من كبار العلماء . « وعن أبي عيينة : كان أعلم الناس بحديث عائشة : عروة وعمرة والقاسم » [٨] .

(١) نقله الاستاذ مناظر أحسن كيلاني « تدوين حديث » ١٠١/١ .
(٢) تهذيب التهذيب ، ترجمة وهب .
(٣) التاريخ الكبير للبخاري ١٨٢/٤ .
(٤) تهذيب التهذيب ٢١٥/٤ ، رقم ٣٦٩ .
(٥) المصدر السابق ، وايضا مناظر احسن ١٠١/١ .
(٦) تهذيب التهذيب ١٨٣/٧ ، رقم ٣٠١ .
(٧) نقله مناظر احسن عن ابن حجر والبخاري .
(٨) تهذيب التهذيب ١٨٢/٧ .

(ج) ويروى أن ابا بكر الصديق رضي الله عنه جمع أحاديث النبي عليه السلام في كتاب وقد بلغ عددها خمسمائة حديث . ثم أتلفه خشية أن يكون كتب شيئاً لم يكن حفظه تماماً[١] .

(د) سأل ابو جحيفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال : « قلت لعلي : هل عندكم كتاب ؟ قال : لا إلا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم وما في هذه الصحيفة . قال ، قلت : فما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر »[٢] . يريد بالعقل ، المعاقل والديات . ولعله أراد دستور المدينة الذي كتبه النبي عليه السلام في السنة الأولى للهجرة[٣] ، وأكثره يتعلق بالمعاقل . والله أعلم .

(هـ) أما عبد الله بن ابي أوفى رضي الله عنه فكان أيضاً يكتب الأحاديث . ويظهر أنه كان يدرس بالمكاتبة كما نرى في عدة أبواب من صحيح البخاري : فقد روي عن موسى بن عقبة ، صاحب المغازي الشهيرة ، «عن سالم ابي النضر مولى عمر بن عبيد الله ، وكان كاتباً له ، أن عبد الله بن ابي أوفى كتب فقرأته ـ وفي رواية : كتب اليه عبد الله بن ابي أوفى حين خرج الى الحرورية فقرأته فاذا فيه ـ أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو ، انتظر حتى مالت الشمس . ثم قام في الناس فقال : أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية . فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف . ثم قال: اللهم منزل الكتاب ، ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم »[٤] .

(و) وكان سمرة بن جندب رضي الله عنه جمع أحاديث فورثه ابنه

(١) نقله زبير الصديقي عن طبقات الحفاظ ، ٢/٥ .
(٢) صحيح البخاري باب كتابة العلم ، وباب فكاك الاسير .
(٣) الوثائق السياسية رقم ١ .
(٤) صحيح البخاري باب لا تمنوا لقاء العدو ، وباب اذا لم يقاتل أول النهار ، وباب الصبر عند القتال .

سليمان بن سمرة . وفي لفظ ابن حجر : «روى عن أبيه نسخة كبيرة»[١] .

«وقال ابن سيرين : في رسالة سمرة إلى بنيه علم كثير»[٢] .

(ز) أما سعد بن عبادة الأنصاري ، فكان «كاملاً» من كتاب أهل الجاهلية[٣] . وكان عنده صحيفة جمع فيها الأحاديث النبوية . وكان ابنه يروي منها[٤] .

(ح) لا ندري اذا كان ابن عمر رضي الله عنهما كتب الأحاديث بنفسه ولكن نجد رواية سليمان بن موسى في طبقات ابن سعد «أنه رأى نافعاً مولى ابن عمر يملي عليه ويكتب بين يديه» . إن نافعاً كان من كبار العلماء وأرشد تلامذة ابن عمر ، الذي صحبه ثلاثين سنة . ولا بد أن يكون قد حوى جميع علم استاذه الجليل فقد كان ابن عمر يقول : «لقد منّ الله علينا بنافع»[٥] .

(ط) أما ابن عباس رضي الله عنه، فهو اشهر من ان نحتاج الى تفصيل حياته العلمية . فقد تواتر عنه أنه لما توفي ، ترك حمل بعير من تصانيفه . وروى الترمذي[٦] عنه عن مولاه وتلميذه عكرمة «أن نفراً قدموا على ابن عباس من أهل الطائف بكتب من كتبه فجعل يقرأ عليهم» . وروى الدارمي وابن سعد وغيرهما عن تلميذ آخر له ـ وهو سعيد بن جبير ـ أنه كان يكتب ما يملي عليه ابن عباس رضي الله عنهما من الأحاديث . فاذا نفد القرطاس احياناً أثناء كتابته ، كتب على لباسه ونعله حتى على كفه ، ثم نقله في الصحف اذا رجع الى بيته . فلما توفي سيدنا ابن عباس ، ورث كتبه ابنه علي ، فبقي علمه بعده وتسلسل .

(١) تهذيب التهذيب ١٩٨/٤ .
(٢) تهذيب التهذيب ٢٣٦/٤ ، رقم ٤٠١ .
(٣) تهذيب التهذيب ٤٧٥/٣ ، رقم ٨٨٣ .
(٤) الترمذي في كتاب الاحكام ، ذكره مناظر أحسن .
(٥) تهذيب التهذيب ٤١٣/١٠ ، رقم ٧٤٢ .
(٦) في كتاب العلل ، ذكره مناظر أحسن .

صحابة آخرون :

(ي) كتب الاستاذ عبد الصمد صارم في تأليفه بالهندية « عرض الأنوار المعروف بتأريخ القرآن » (طبع دهلي ١٣٥٩ هـ) بعض ما يتعلق ببحثنا [١] . فنقل عن الجامع الصغير أن الأحاديث التي كان جمعها عبد الله بن مسعود كانت عند ابنه ؛ ورأى ذكر كتاب سعد بن عبادة في مسند ابن حنبل ؛ ونقل عن أسد الغابة أن سعد بن الربيع بن عمرو بن ابي زهير الانصاري جمع بعض الأحاديث ؛ وعن تهذيب التهذيب لعبد الله بن ربيعة بن مرثد ؛ وعن البيهقي أن النبي ﷺ كتب لسيدنا ابي بكر الصديق احكام الحج (كأنه في السنة التاسعة للهجرة) ؛ الى غير ذلك .

أبو هريرة :

(ك) أما ابو هريرة الدّوسي اليمني رضي الله عنه ، « فقال البخاري : روى عنه نحو ثمانمائة رجل او اكثر من اهل العلم من الصحابة والتابعين وغيرهم » [٢] ويقال إنه سمي أبا هريرة لجودة حفظه كما أن الهرة لا تنسى ما عرفت من الأمكنة . وروى البخاري في صحيحه [٣] : « عن ابي هريرة ، قال : إن الناس يقولون : أكثر ابو هريرة ، ولولا آيتان في كتاب الله ، ما حدثت حديثاً . ثم يتلو : (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات) إلى قوله (الرحيم) . إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق ؛ وإن إخواننا من الانصار كان يشغلهم العمل في أموالهم ؛ وإن ابا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه يحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون » .

(١) راجع ص ١٧٣ وما بعده . مع الاسف لم اجد فرصة كي أرجع إلى الاصول التي ذكرها واحقق رقم الجلد والصفحات .

(٢) تهذيب التهذيب ٢٦٥/١٢ ، رقم ١٢١٦ .

(٣) باب حفظ العلم.

فما روي من جودة حفظه أن مروان بن الحكم امتحنه مرة فطلبه فجاء . وكان مروان امر كاتباً له أن يجلس وراء الستر . فطفق مروان يسأل ابا هريرة ، فيحدث عما علم . ويقول الكاتب : « فجعل يسأل وانا اكتب حديثاً كثيراً . ولم يشعر ابو هريرة رضي الله عنه ما وقع وراء الستر ؛ فراح . ثم طلبه مروان مرة اخرى . ويقول الكاتب : « فتركه سنة ثم ارسل في طلبه وأجلسني وراء الستر فجعل يسأل وأنا انظر في الكتاب . فما زاد ولا نقص »[1] . فيدل هذا لا على جودة حفظ ابي هريرة ، بل على أن عدداً من رواياته كانت قد كتبت وقوبلت عليها بأمر مروان .

وروي أن ابا هريرة اري ابن وهب مرة كتبه[2] . وروى الدارمي تدويناً آخر لروايات ابي هريرة فقال : « عن بشير بن نهيك ، قال : كنت اكتب ما اسمع من ابي هريرة . فلما اردت ان أفارقه ، اتيته بكتابه ، فقرأته عليه وقلت له : هذا ما سمعت منك . قال : نعم » .

وروى ابن عبد البر ما يكاد يتعلق بأواخر عمر ابي هريرة ، فروى عن ابن لعمرو بن أمية الضمري ، قال :

« تحدثت عند ابي هريرة بحديث . فأنكره . فقلت : إني قد سمعته منك . فقال : إن كنتَ سمعته مني فهو مكتوب عندي . فأخذ بيدي الى بيته فأرانا كتباً كثيرة من حديث رسول الله ﷺ فوجد ذلك الحديث . فقال : قد أخبرتك : إن كنتُ حدثتك به فهو مكتوب عندي » . (جامع بيان العلم ١/٧٤) .

ولأبي هريرة رضي الله عنه تلامذة آخرون . منهم همّام بن منبّه صاحب الصحيفة التي نحن بصددها . وهي من أقدم ما دوّن في الحديث ، وحفظته لنا خزائن الكتب .

---

(١) كتاب الكنى للبخاري ص ٢٣ ، ذكره مناظر احسن .
(٢) فتح الباري ١/١٨٤ ، ذكره زبير الصديقي .

همّام بن منبّه :

قال ابن حجر في تهذيب التهذيب [1] ما نصه : همّام بن مُنبّه بن كامل بن شيخ اليماني ابو عقبة الصنعاني الأبناوي ـ والأبناء هم أهل فارس توطنوا قبل الاسلام في بلاد اليمن بعدما فتحها كسرى ـ روى عن ابي هريرة ، ومعاوية ، وابن عباس ، وابن عمر ، والزبير ، وعنه اخوه وهب بن منبه ، وابن اخيه عقيل ابن معقل بن منبه ، وعلي بن الحسن بن آتش ، ومعمر بن راشد . قال اسحاق ابن منصور عن ابن معين : ثقة . وذكره ابن حبّان في الثقات . وقال الميموني عن احمد : كان يغزو ، وكان يشتري الكتب لأخيه وهب . فجالس ابا هريرة فسمع منه احاديث وهي نحو من اربعين ومائة حديث بإسناد واحد . وأدركه معمر ، وقد كبر وسقط حاجباه على عينيه ، فقرأ عليه همام ، حتى اذا ملّ ، أخذ معمر فقرأ الباقي . وكان عبد الرزاق لا يعرف ما قُرئ عليه مما قرأ هو . قال ابن سعد : مات احدى وثلاثين ـ (أي بعد المائة) ـ وقال البخاري : قال علي : سألت رجلاً قد لقي همام بن منبه : متى مات همام ؟ فقال : مات سنة اثنتين . قال ، وقال ابن عيينة : كنت أتوقع قدوم همام عشر سنين . قلت : وقال ابن سعد [2] ، والخليفة وابن حبان : مات سنة إحدى او اثنتين وثلاثين . وقال العجلي : يمانيّ ، تابعي ، ثقة » . انتهى ما قال ابن حجر العسقلاني .

وقال صاحب كشف الظنون : « الصحيفة الصحيحة للشيخ همام بن منبه الصنعاني المتوفى سنة ١٣١ . وهي التي كتبها عن ابي هريرة » .

فكان همام قد جالس ابا هريرة مدة ، وسمع منه أحاديث وكتبها في مجموعة سماها « الصحيفة الصحيحة » ، على ما روى في كشف الظنون ، كأن هذا على

(١) ٦٧/١١ ، رقم ١٠٦ (راجع أيضا ٥٧٤/١) .
(٢) راجع طبقات ابن سعد ٣٩٦/٥ .

مثال « الصحيفة الصادقة » لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما . فصحيفة همام ، رواها تلميذه معمر عنه . ثم عبد الرزاق عن معمر . ثم هلم جرا . وعلى هذا تكون هذه الصحيفة قد دونت في اواسط القرن الأول للهجرة ، لأن ابا هريرة توفي سنة ٥٨ هـ .

وقد نقلها ابن حنبل في مسنده (ج ٢ ص ٣١٢ – ٣١٩) بتمامها . ونقل البخاري عدداً كثيراً من احاديثها في صحيحه ، في أبواب شتى[1] . سوى ما تواتر رواية هذه الصحيفة على حدة نسلاً بعد نسل . وقد عثرنا على مخطوطتين منها ، تحتويان على إسنادين مختلفين . سنفصل ذكرهما فيما سيأتي :

لا يمكن مقابلة الصحيفة بما نقل منها البخاري في صحيحه فانه فرّق أحاديثها في أبواب متفرقة . أما ابن حنبل فنقلها برمتها كما هي . فاذا قابلنا الباب المتعلق من مسند ابن حنبل مع المخطوطتين لدينا ، وجدنا الفروق الآتية :

١) يتفق المسند مع المخطوطتين ولا يختلف في ترتيب الأحاديث إلا مرتين أو ثلاث . وهذا بلا زيادة كلمات ولا نقصانها . (راجع الصحيفة في الأحاديث رقم ١٣ ، ٩٣ ، ١٢٦ ، ١٣٨) .

٢) نجد في مسند ابن حنبل حديثاً واحداً لا نجده في المخطوطتين لدينا (راجع رقم ١٤/ب) . ومن المعروف أن في النسخة المطبوعة من المسند أغلاط طبع كثيرة . ولا يذكر ابن حنبل حديثاً (رقم ٥) نجده في كلتا المخطوطتين .

٣) تكرر كلمة « وسمي الحرب خدعة » في حديثين في مخطوطتي الصحيفة (رقم ٢٩ ، ٤٠) أما ابن حنبل فلا يذكره إلا مرة واحدة (٤٠) .

٤) تغير بين المصدرين بعض عوارض الرواية مثل « عزّ وجل » بدل « تعالى » بعد ذكر اسم الله ؛ أو « النبي » و « أبو القاسم » بدل « رسول الله » ؛ أو اشياء

(١) جلد اول ، ص ٣٤ ، ٣٩ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٩١ . جلد رابع ٥٦ ، ٦٣ ، ٨٦ إلى غير ذلك (من طبع مصر ١٣١٣ هـ) .

ما يوجد مثلها عادة بين مخطوطتين من كتاب واحد • وقد أثبتناها في الحواشي • وليس فيها ما يبدّل المفهوم أو يغير المراد •

فاذا لم يتغير تأليف همام بن منبه المتوفى سنة ١٣١ الى زماننا هذا (سنة ١٣٧١) بعد كثرة ما تناولته الأيدي ونقله الناقلون والرواة والمؤلفون ، فلا مجال لانكار صحة ما مضى قبل همام من لدن النبي ﷺ الى أن رواه ابو هريرة • وليذكر أن الأحاديث المذكورة في صحيفة همام ، قد رواها غيره ايضاً كما وجدناها في مسند ابن حنبل والبخاري وسائر كتب الحديث المتداولة ، بعضها عن ابي هريرة وبعضها عن غيره من الصحابة •

وصف المخطوطتين :

إن مخطوطة برلين ، رقمها (1384 We 1797) وكانت في مكتبة الدولة Staatsbibliothek في عاصمة المانيا • (وهذه المخطوطات محفوظة في هذا الزمان في مدينة تيوبنغن Tübingen) • فهذه المخطوطة في مجموعة رسائل ، تبتدئ صحيفة همام بن منبه فيها من الورقة (٥٤) وتنتهي بالورقة (٦١) وتنقص في أثنائها ورقتان • حجمها ١٧٫٥ X ١٢٫٥ سنتمتراً • وفي كل صفحة (١٩) سطراً • ويبدأ كل حديث فيها بكلمة « وقال » بالمداد الأحمر • أنا كنت نقلتها بخطي ، وهذا ما أثبتُ في آخر نقلي : « نقله لفظاً لفظاً من الأصل المحفوظ في خزانة الحكومة البروساوية في برلين يوم عرفة ويوماً قبله سنة ١٣٢١ من الهجرة وقابله من الأصل المنقول عنه بحسب الاستطاعة ، محمد حميد الله » • وهذه النسخة من أوائل القرن الثاني عشر للهجرة •

فلما رجعنا الى بروكلمان ، أسفنا لما وجدنا فيها من الأغلاط الفاحشة • فلا يذكر بروكلمان هذه الصحيفة تحت اسم همام بن منبه فلما أطلنا البحث ، عثرنا عليها بالمصادفة ، فانه ينسبها الى « عبد الوهاب بن محمد بن اسحاق بن منده المتوفى

١٠٨٣/٤٧٣» . ثم يقول : «من تأليفه صحيفة همام بن منده (كذا) المتوفى ٧٤٨/١٥١ (كذا) عن ابي هريرة المتوفى ٦٧٨/٥٨» . وليس هذا في الطبعة الأولى ، بل في ضميمة الكتاب وفي ضميمة الضميمة للجلد الأول . فقال «همام بن منده» ، ولم يرد إلا «همام بن منبه» . وكذا سها في تأريخ وفاته (الصحيح أنه ١٣١ ، لا ١٥١) ، كما سها سهواً فاحشاً في عزوه الى عبد الوهاب ابن منده ، وليس هناك إلا راو في عصر من العصور .

مخطوطة دمشق :

أما مخطوطة دمشق فهي تفوق اختها تفوّق نور الشمس على ضوء القمر المستعار . وهي محفوظة في خزانة الكتب الظاهرية . ودلني عليها الأستاذ محمد زبير الصديقي (من جامعة كلكته) . وأما صورتها الشمسية فقد حصلت عليها من الأستاذ صلاح الدين المنجد . وكلاهما يستحقان شكري وشكر من سيستفيد من قراءة هذه الصحيفة .

وهي ايضاً ضمن مجموعة رسائل . تمتاز بأنها كاملة وأقدم المخطوطتين كتابة . فهي من القرن السادس من الهجرة . وكذلك هي أصل النسخة التي استعملت للدرس والسماع وثبت الاجازات مراراً عديدة . وقد درس فيها ابن عساكر ، صاحب تأريخ دمشق فيمن درس . وخطها جميل ، غير أن الناسخ اهمل نقط الحروف في اكثر الأحيان . وسطورها في كل صفحة إما ٢١ او ٢٢ او ٢٣ . وحجم صورتها الشمسية كحجم النسخة الألمانية . وهذه النسخة المكتوبة بدمشق ، من زمن حروب الصليبيين . ونرى في سماعاتها ما كانت من عادات الدرس الاسلامي وآدابه عند المحدثين في تلك الأزمنة من الحروب والفتن . ولسنا بصددها الآن .

وفي كلتا المخطوطتين كتب الناسخ بعض اختلافات الرواية على الهامش فقال إما « أوْخَر » أو « أوخَر » ؛ وكذلك « تركتكم : تُركتم » ، « يحيّونك :

يجيبونك » ، « فزادوا : فزادوه » ، « بطعامكم : بطعامه » ، « حين : حينئذ » .
ونرى بعض هذه الاختلافات ، التي لا تغير مفهوم الحديث البتة ، في مسند ابن حنبل أيضاً . ولعلها من زمن معمر ، وهو لم يسمعها تماماً من همام ، كما نقلنا فيما مضى عن ابن حجر ، بل قرأها هو عليه حين كان همام قد ملّ وتعب . والدرس الشفاهي كان أعظم وسيلة لصحة ما كتب .

فالحديث النبوي مبني على عمودين : الكتابة والسماع ، كل واحد منهما يعاضد الآخر . فلو قابل احد هذا الحزم والاحتياط في حفظ الحديث المحمدي وصحته مع ماوقع لحديث أنبياء آخرين قبل الاسلام ، وكذلك مع ما هو حال « التأريخ » في عصرنا الحاضر من أكاذيب الصحف وتدليسات الوثائق الرسمية ، وفكر تفكيراً سليماً ، لوضح له فضل الحديث ، وما فاق به المحدثون من لدن عصر الصحابة الى العصور المتأخرة التي أبقى الدهر من آثارها الأصلية . والفرق بين حديث المسلمين وحديث غيرهم مثل ما بين السماء والأرض ، وشتان مابينهما ، لا يشوبه أكاذيب الأعداء ولا جهل الأصدقاء .

وها كم فيما يلي « الصحيفة الصحيحة » لهمام بن منبه رحمه الله تعالى . وقد أضفنا اليها الأرقام على الأحاديث لتسهيل المراجعة :

(يتبع) محمد حميد الله

شيخ الإسلام ابن تيمية

— ٤ —

علاوة ثالثة

ترجيحه لمذهب السلف في أمر المعتقد

تمهيد

يظن بعض الناس أن دعاة الاصلاح والتجديد ، لأس الدين والتوحيد ، على أساس الكتاب والسنة ، وما كان عليه سلف هذه الأمة ، إنما يحاولون إحياء الدين وإماتة ماعداه من علوم السلف وحضارتهم ، أو عدم الانتفاع بما تدعو اليه الحاجة من مخترعات الغربيين ومدنيتهم ، إن تعجب فعجب هذا الزعم الباطل ! إن سلفنا الصالح الذين نهتدي بهديهم ، ونقفو أثرهم ، قد جعلهم الله هداة للناس في الدين والدنيا ، وأورثهم أرض كثير من الأمم القديمة وما عليها من علوم وآداب وصناعة وعمران ، ونحن نتلو أخبارهم ، ونقفو آثارهم ، وان لم نبلغ شأوهم ، ونستفيد من مستحدثات الأمم المعاصرة ، كما استفاد سلفنا من مزايا الشعوب والأمم الغابرة .

انا نحاول ان نكون أمةً ذات مدنية عربية اسلامية ، لا شرقية ولا غربية ، أساسها الأخلاق والفضائل ، وميزانها إقامة العدل بين الخلائق ، وهذا الطراز الممتاز من المدنية نقتبسه من نور العصور الذهبية للإسلام . ولقد ذاق الناس من ظلم المدنية الحديثة ماجعل أشد الناس ايمانًا بها من قبل ، أشدهم بغضًا لها ، وكراهية للمستبدين الظالمين من أهلها .

ولقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية ينصر مذهب السلف الصالح بأدلة عقلية ونقلية ، ويحاول إرجاع الناس اليه بكل الوسائل ، ويرى رأي إمام دار الهجرة مالك بن أنس من أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، وهو رأي كل حكيم عليم بداء الأمة ودوائها قديماً وحديثاً ، وقد ألف كتباً كثيرة كان معظمها يحوم حول هذه القضية ، وعقدت له عدة مناظرات في مصر والشام من أجلها ، وقد أثرنا بعضها من قبل . وله رحمه الله في باب التوحيد الخالص المجرد عن شوائب الوثنية والبدع والزوائد ، كتب ورسائل ، بعضها طبع وبعضها لمّا يطبع ، ونقتصر الآن على ذكر ثلاثة منها مطبوعة : (١) كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكري ، وهو علي بن يعقوب بن جبريل البكري الشافعي المصري (٦٧٣ — ٧٢٤) وترجمته في الشذرات (ج ٦ ص ٦٤) وهو ردّ على مسألة الاستغاثة بالمخلوقين ، وقد لخصه ابن كثير في تاريخه . (٢) كتاب الرد على الاخنائي المسمى بقاضي القضاة علم الدين بن شمس الدين (٦٦٤ — ٧٣٢) وترجمته في الشذرات أيضاً (ج ٦ ص ١٠٣) واسمه الرد على الاخنائي واستحباب زيارة خير البرية « الزيارة الشرعية » وهما مطبوعان معاً بمصر سنة ١٣٤٦ . (٣) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ، وهو مطبوع بمصر أيضاً سنة ١٣٢٧ هـ .

وفي طلائع الكتاب الأول مباحث جليلة في مدوني التفسير والحديث والسير والتاريخ ، والجرح والتعديل ، وذكر طائفة من الكتب المعتمدة ؛ وبيان ما اتسع فيه الكذب من فضائل الأعمال والأشخاص والأماكن والزمان ، وما سمعه شيخ الاسلام من جهالات بعض القضاة والمفتين والمدرسين وما رآه منهم . وقد حقق فيه أن لفظ (الاستغاثة في الكتاب والسنة وكلام العرب ، انما هو مستعمل بمعنى الطلب من المستغاث به ، وأكثر ما يقال : يا غياث المستغيثين ، ومعناه المدرك عباده في الشدائد اذا دعوه ، ومريحهم ومخلصهم ، فلا يجوز للانسان الاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله . (قال) : ولو كانت الاستغاثة

بعد الموت ثابتة ثبوتها في الحياة لطلب من النبي (ﷺ) أن يقوم بالإمامة في الصلاة ، والإمارة في الغزو ، وإرسال البعوث ، وعقد الألوية ، والشعائر في الحرب ، وإقامة الحدود ، وإيصال الحقوق ، وقسم المواريث والغنائم ، والفيء والصدقات ، وتعليمهم ما يؤمرون به مما في القلوب من المعارف والأحوال ، أو ما يقوم بالأبدان من الأقوال والأعمال ، وإفتائهم فيما ينوبهم من المسائل ، والحكم بينهم فيما يتنازعون فيه من القضايا ... فهذه الأمور التي كان مأموراً بها أمر إيجاب أو استحباب ، وكانت حقاً عليه للخلق انتهت بموته فلم يبق عليه منها شيء ، كما انتهى حق الله الذي أمره به [1] .

وأقول تأييداً لما ذكره شيخ الإسلام : ان الصحابة الكرام ، قد تناظروا بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ، في أمر الخلافة ، وفي جمع القرآن ، وفي المعارك الدامية كوقعة الجمل وصفين والنهروان ؛ وتناظر الشيخان في قتال مانعي الزكاة ، وفي إرسال جيش أسامة ، ولم يستغيثوا به في هذه الشدائد ، ولا استفتوه في شيء منها ، وكل هذا معلوم من الدين والتاريخ بالضرورة ، ومن العقل والحس والوجدان بالبداهة ، فيجب رد ما يتجدد من الوقائع والحوادث الى الوحي المنزل ، وما عرف من سنن الصدر الأول للإسلام . ولو كان ترك وسائل النصر والظفر ، والاستنصار بغيره تعالى مفيداً لنا في شيء ، لكنا اليوم أسعد الأمم حالاً ، وأنعمها بالاً ، وأوفرها عزة وثروة وقوة ، ولكن تلك الخطة المعارضة للشرع والطبع والحس التي سلكها أولئك الناس لم تزد الأمة إلا نكالاً ووبالاً ، «قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخشون عذابه ، ان عذاب ربك كان محذورا» [2] .

---

(١) ملخصه من ص ٨٣ و ٩١ و ١١٠ منه .
(٢) الاسراء : (٥٦ و ٥٧) .

ثم إن هذا المؤلف (البكري) قد جرى على عرف بعض العلماء المتأخرين الذين جعلوا الاستغاثة به (ﷺ) وبغيره في معنى التوسل الى الله تعالى بجاهه وبحقه ، كالسبكي في شفاء السقام ، والقسطلاني في المواهب ، والسمهودي في خلاصة الوفا ، وابن حجر المكي في الجوهر المنظم وغيرهم . والمراد أنهم يسألون الله تعالى بحقه وجاهه أن تقضى حوائجهم ، وسيأتي بحث ذلك . أما الاستغاثة بأهل القبور أنفسهم بمعنى طلب الغوث منهم – أي زوال الشدة ، وتفريج الهم والكرب ، وقضاء سائر الحوائج ، فهذه استغاثة شركية ، لا تدخل في دائرة الأسباب والمسببات بحال ، بل هي توسل الغلاة والجهال في الحضر والسفر ، والبر والبحر ، والعسر واليسر ، والفرج والشدة ، ونحن نجل أهل العلم والعقل والإيمان ، عن الوقوع في مثل هذا الطغيان والهذيان .

وفي الكتاب الثاني لشيخ الإسلام (قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة) ما ملخصه: لفظ التوسل يراد به ثلاثة معان (أحدها) التوسل بطاعته (ﷺ) فهذا فرض لا يتم الإيمان إلا به . (والثاني) التوسل بدعائه وشفاعته ، وهذا كان في حياته ، ويكون يوم القيامة . (والثالث) التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته ، والسؤال بذاته ، فهذا هو الذي لم يكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه ، لا في حياته ولا بعد مماته ، لا عند قبره ولا غير قبره ، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم ، وهذا هو الذي قال ابو حنيفة وأصحابه انه لا يجوز ، ونهوا عنه حيث قالوا : لا يسأل بمخلوق[1] اه . .

أقول إن التوسل في لغة الصحابة هو عبارة عن أقوال وأفعال وأحوال لم تجر سنة الله في صدورها عن غير الأحياء بين أظهر الناس ، كتوسل عمر بالعباس في الاستسقاء ، فهو طلب للسقيا والدعاء والصلاة على طريقة معهودة في الشرع ، معروفة في كتب الحديث والفقه ، ومنها أن يخرج المتوسل به الى المصلى

(١) ص ١٢ و ٣٠ و ٥٥ و ٥٧ و ١٧٦ منه .

ويخرج الناس معه ، فيستسقي ويدعو مستقبلاً القبلة ، ويحوّل رداءه ويصلي ركعتين ، ويخطب خطبتين ، أو نحوها من الهيئات الثابتة ، كما يعلم ذلك من سَبْر الأحاديث الصحيحة الواردة في الاستسقاء ، والتوسل به للسقيا على تلك الهيئة أو نحوها لا يمكن أن يكون من غير الأحياء .

ثم ههنا مسألة مهمة وهي أن حقوق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وصلاح الصالحين ، ليست من أعمال السائل التي يستحق عليها الجزاء ، ولا رابطة بينها وبين إجابة سؤله ، فاذا قال الداعي : أسألك بحق فلان الصالح أن تقضي حاجتي فمعنى ذلك : اقض حاجتي لكون فلان صالحاً ، فأي مناسبة بين قضاء حاجتك وصلاحه ؟ واذا قلت بجاه فلان اغفر لي ، كان المعنى : طلب المغفرة لكون فلان ذا جاه ، وأي مناسبة بين جاهه ومغفرة ذنبك ؟ فصلاحه أو جاهه ليس منفياً عنه لا في حياته ولا عند ربه ، ولا هو محل نزاع ، ولكن ليس من عملك الذي تستفيد أنت منه ، وتستحق الجزاء عليه ، وانما العامل هو الذي يجني ثمرة عمله في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : « مَن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

ولو كان التوسل بعمل الصالحين يفيد المتقاعسين عن العمل لهان الأمر علينا معشر المسلمين ، إذ كان يمكننا أن نقول مثلاً : اللهم أزل ضعفنا ، وأمّن خوفنا ، وانصرنا على عدونا بجاه سلفنا الصالح الذين جاهدوا في سبيلك لإعلاء كلمتك ، ففتحت لهم فتحاً مبيناً ، ونصرتهم نصراً عزيزاً ، ربنا هب لنا من الملك والسلطان ، والعلم والعرفان ، والحضارة والعمران مثل ما وهبت لهم ، أفترى أنه تفيدنا هذه التوسلات بجاه أسلافنا وقوتهم ، وسعة سلطانهم ، واستبحار عمرانهم ، ونحن قد تداعت علينا الأمم فجعلتنا مغنماً ، ونهباً مقسماً ! لا لا ، وانما ننهض ونجدد اذا اهتدينا بهديهم وكان لنا مثل عملهم .

قال الامام ابن القيم رحمه الله : «وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في

الدنيا والآخرة ، وحصول الشر في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال ترتيب الجزاء على الشرط ، والمعلول على العلة ، والمسبب على السبب ، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع » . وقال أيضاً : وهكذا شأن التوسل الديني الأخروي . وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة ، فرب الدارين واحد ، وحكمته واحدة ، لا يناقض بعضها بعضاً ، ولا يبطل بعضها بعضاً اهـ .

قلت : ويشهد له قوله تعالى : « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » فهو توسل الى الله تعالى بالإيمان والاتباع . ومن أفضل أنواع التوسل ماجعله الله تعالى دعاء المؤمنين ، ورتب عليه غفران الذنوب ، وتكفير السيئات ، والوفاة مع الأبرار ، فقال عز من قائل : « ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار » وقال جلت حكمته : « الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار » فهذه الآيات الكريمة قد أرشدتنا الى التوسل اليه تعالى بما شرعه من الإخلاص في الدعاء له وحده ، والإيمان بما أنزله من عنده ، واتباع الرسول على الوجه الذي جاء به من عند ربه ، فتأمل كيف جعل ذلك سبباً لمغفرة الذنوب ، والوقاية من النار ، والنظم في سلك الأبرار ، وأين هذا التعليم الإلهي ، والتوسل الشرعي ، من المعامل التوسلية التي أنشأها المبتدعة لأنفسهم ولغيرهم ، وهم يصدرون منها كل حين من التوسلات المبتدعة أنواعاً منوعة ما أنزل الله بها من سلطان « قل أأنتم أعلم أم الله » ؟

وأما الكتاب الثالث — وهو الرد على الإخنائي — المسمى بقاضي القضاة ، فسببه أن الإمام ابن تيمية قد أرسل اليه بعض أصحابه جزءاً أخبر أنه صنفه بعض القضاة ، قد تكلم في المسألة التي انتشر الكلام فيها وهي السفر الى غير المساجد الثلاثة كالسفر الى (مجرد) زيارة القبور هل هو حرام أو مباح أو مستحب ،

«وهي المسألة التي أجبت فيها من مدة بضع عشرة سنة بالقاهرة ، فأظهرها بعض الناس في هذا الوقت ظناً أن الذي فيها خلاف الإجماع ، وأن السفر لمجرد قبور الانبياء والصالحين هو مثل السفر المستحب بلا نزاع ، وهو السفر الى مسجد نبينا محمد (ﷺ) المتضمن لما شرعه الله من السفر الى مسجده والصلاة فيه والسلام عليه ومحبته وتعظيمه ، وغير ذلك من حقوقه (ﷺ) في مسجده المؤسس على التقوى» اهـ .

أرسل اليه بعض أصحابه هذا الجزء وأقسم عليه ليكتبن شيئاً يظهر فيه جهل مثل هؤلاء الذين يتكلمون في الدين بغير علم ، وليس في الفتوى القديمة التي اطلع عليها القاضي (وهي منشورة في هذا الرد) تحريم زيارة قبور الأنبياء ولا غيرهم ، ولا كان السؤال عن هذا ، وانما فيه الجواب عن السفر الى القبور ، وكتب الشيخ وفتاويه مشحونة باستحباب الزيارة ، وفي جميع مناسكه يذكر استحباب الزيارة . قال ابن تيمية : وأما من كان قصده السفر الى مسجده وقبره معاً فهذا قد قصد مستحباً مشروعاً بالإجماع» ... والجواب في السؤال كان عمن سافر لا يقصد الا زيارة القبور ، لا يقصد سفراً شرعياً كالسفر الى مكة (أي المسجد الحرام) والى مسجد النبي (ﷺ) والمسجد الأقصى .

أقول : إن هذا الموضوع بأقسامه الثلاثة : الزيارة ، وشد الرحال ، والتوسل ، قد شغل الناس قروناً طويلة ، وملأ مئات المصنفات وألوف الصفحات ، وكنت قدمت اقتراحاً الى مؤتمر العالم الاسلامي الذي انعقد بمكة (١٣٤٤ هـ = ١٩٢٦م) قرّبت فيه بين المذاهب المختلفة في المسائل الثلاث ، ووافق عليه الأعضاء المؤتمرون جميعاً ، وخلاصته :

١ — ان الزيارة الشرعية للأموات من دون شد الرحال ، ليس فيها مطعن ولا مقال ، وقد كان النبي يزور سكان البقيع ، وشهداء أُحد ، ثم قلت : إن هذا العصر عصر تآمر ملل ، واتفاق دول ، تخالف مصلحتنا معشر العرب

والمسلمين ، وإن كثيراً من العوام والغلاة ، كلما أعوزهم كشف البلاء ، أو تحقيق الرجاء ، تركوا ما أمر الله به من إعداد القوة ، والأخذ بوسائل الدفاع ، ولجؤوا الى قبور بعض الصالحين ، يستنجدون بهم للدفاع عنهم ، وبذلك قضي على كثير من بلاد المسلمين ، فدرءاً لهذه المفاسد الدينية والدنيوية ، نوضح للناس أن دعاء غير الله بكشف الضر ، يعدُّ عبادة لذلك الغير «فلا تدعوا مع الله أحداً» وفي الحديث (إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله) فيستفاد من ذلك أن ليس في الإسلام إلا الأخذ بالأسباب المشروعة في جميع المهات ، والاستعداد لجميع الطوارئ والحادثات بقدر الاستطاعة .

٢ — إن مسألة شد الرحال إلى المساجد الثلاثة مفروغ منها ، وإن السفر الى ما عداها من المساجد ، أو لمجرد زيارة القبور ، لم يعهد في الصدر الأول ، ولم يقع من الأئمة الهداة ، وهل زيارة قبر النبي مشروعة وحدها فتشدّ الرحال اليها كأداء العبادة في مسجده ؟ أم هي مشروعة تبعاً لأداء العبادة في المسجد ؟ في المسألة قولان ، ويوفق بينهما بأن الصلاة في مسجد النبي وزيارته متلازمان ، بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر ، كمسألة الفقير والمسكين والإيمان والإسلام عند الفقهاء فلا يذكر أحدهما إلا ويراد معه الآخر ، وأن تكون النية موجهة عند شد الرحال إلى أداء العبادة في المسجد ، ومعها زيارته ﷺ .

٣ — إن من استقرأ النصوص ، وسبر غورها ، ظهر له منها أن التوسل اليه تعالى بالكلم الطيب ، والعمل الصالح هو المشروع ، وأنه هو الذي تنال به خيرات الدنيا والآخرة ، فرب الدارين واحد ، وحكمته فيهما واحدة كما قال ابن القيم ، وفي طليعة كتابه : (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) تحقيق بديع لهذا البحث ، وقد أورد له القواعد والشواهد الشرعية من القرآن العظيم الذي أيد العقل والحس والفطرة وطبيعة البشر في ذلك ، ولما كان بعض ظواهر النصوص يوهم شمول التوسل بالذات والجاه أيضاً ، كانت المسألة خلافية ،

وكان فيها قولان لمثل الإمام أحمد بن حنبل ، وقد ورد : « اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاي هذا » رواه احمد وابن ماجه ، وفي سنده عطية العوفي ، وهو ضعيف كما قالوا ، ولكن معناه صحيح ، لحق السائلين عليه الإجابة ، وحق الماشين الى المساجد الإثابة ، « وقال ربكم : ادعوني استجب لكم » فالسائلون يسألونه تعالى تحقيق ما وعدهم به ، وقد تفضل بجعله حقاً لهم عليه ، وتحقيق وعده هو من صفاته تعالى الفعلية ، وليس ذلك من محل النزاع في شيء .

ومن المؤسف جداً عدم الاهتداء بهدي الأنبياء والصالحين ، والاكتفاء بتشييد القبور ، وجعلها كالقصور والقلاع ، والصلاة عندها ، والطواف حولها ، ونذر النذور لسدنتها ، ويرحم الله حافظاً القائل :

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم وبألف ألف ترزق الأموات

من لي بحظ النائمين بحجرة قامت على أحجارها الصلوات

والواجب يتقاضى علماء الدين الخالص ، والعاملين للمدنية الصحيحة ، أن يتعاونوا على إنشاء معاهد علمية ، في الأقطار الشرقية والغربية ، تدعو الى الله على بصيرة ، وتصحح العقائد والعوائد ، وتزيل المهالك والمفاسد ، وتعيد عهد الأئمة ، وتجدد معالم الأمة .

وسنصل البحث بما حققه شيخ الإسلام : من وحدة الأديان ، وأخوة الرسل الكرام ، إن شاء الله .

(يتبع) محمد بهجة البيطار

التعريف والنقد

حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول

شكري فيصل : دكتور في الآداب

مطابع دار الكتاب العربي بمصر ١٣٧١ — ١٩٥٢

يرى الدكتور شكري فيصل ان كل دراسة للمجتمع الإسلامي في نشأته ونموّه يجب أن تقوم قبل كل شيء على دراسة الفتوحات ورصد معالمها الظاهرة والباطنة .

من هذه الزاوية نظر في حركة الفتح الإسلامي وعلى هدّى منها عمل كتابه الذي عُني فيه بالفتوح من الوجه الآتي : من حيث أنها سبب في نشأة المجتمعات الجديدة وطريق للتعرف الى معالم هذه المجتمعات وسبيل بعد ذلك الى دراسة اللغة والأدب دراسةً لا تحيا جذورها على السطح الأعلى من الأرض ولكنها تنفذ ما استطاعت البعيدَ العميق .

أجتزئ في هذه السطور بالدلالة على روح الكتاب أما خصائصه فلا يتيسر الوقوف عليها إلا بعد مطالعته .

لقد مشى بنا الدكتور شكري فيصل في الفتح الإسلامي مشياً وئيداً فجعل فتوح الشام والعراق ومصر قسماً وجعل ما وراء مصر قسماً وما وراء العراق قسماً فكان لنا بعد الانتهاء من كل فصل من هذه الفصول صورة واضحة لحركة الجيوش وتعاقبها وأمدادها ولما تمكنت منه وما ارتدّت عنه ولغلبتها واستقرارها في خاتمة الأمر .

ليس من الضروري بعد هذا كله أن نقف على فتح كل قطر على حدةٍ لأن غايتنا التعريف بالكتاب لا التحليل ولا التركيب ، ولكن لا نجد لنا مندوحةً

عن الإشادة بالنهج العلمي الذي نهجه المؤلف فيه ، انا نرى الفكر الرياضي مفقوداً في أكثر كتبنا وأعني بهذا الفكر الرياضي تسلسل المباحث وربط بعضها ببعض ربطاً منطقياً حتى لا يركب بعضها بعضاً واذا كان الفكر الرياضي مفقوداً في أكثر كتبنا فان كتاب الدكتور شكري فيصل ينعم به نعمة كبيرة وحسب صاحبه هذا الفضل .

لقد حاول أكثر المؤرخين في مؤلفاتهم أن يأخذوا بأيدينا في مسالك الجيوش فوقفنا على حركات الجيوش وسكناتها واطلعنا على عَددها وعُددها ورأينا بأعيننا هزمها وانهزامها وشهدنا أكثر من ذلك الروح الخفية التي تدفعها الى الفتح والتوسع في الآفاق والخلاصة رأينا المثل الأعلى الذي يمشي بها وقد دلنا على هذا المثل الأعلى عبد الله بن الزبير في خطبة من خطبه في فتح افريقية اذ قال : فبتنا وباتوا ، وللمسلمين دويّ بالقرآن كدويّ النحل ، وبات المشركون في خمورهم وملاعبهم ، فهذا الدويّ بالقرآن هو الذي دفع المسلمين الى فتوحاتهم فكان لهم أملان : أمل في الدنيا وأمل في الآخرة .

هذا كله اهتدى اليه المؤرخون ولكن الشيء الذي لا نزال نجهل أكثره أو أقله انما هو حالة بلاد العدو النفسية في تلك الفتوح ، فنحن نعلم في هذا العصر ان للحالات النفسية أثراً كبيراً في الحروب ، في الهزم والانهزام فالعُدد وحدها لا تفسر لنا هذا الهزم وهذا الانهزام فلا بدّ من الوصول الى أعماق النفوس حتى نعلم حالاتها في مثل هذه الحروب فكيف كانت حالات بلاد العدو النفسية في فتوح المسلمين ، لا شك في أن جيوش المسلمين انتفعت بضعف هذه الحالات بقدر انتفاعها بقوة رجالها وشدة ايمانهم فالتاريخ لا يزال غامضاً في هذا المعنى فهو لم يفسر لنا الحالات النفسية في الجيوش المنهزمة وفي بلادها وهذا عنصر ذو شأن في عصرنا هذا في تحليلات الحروب .

واذا كان يجدر بنا الإشادة بكتاب الدكتور شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي فانا نشيد به لأنه لم يهمل في بعضه هذا العنصر العظيم .

المجتمعات الاسلامية في القرن الأول

شكري فيصل

مطابع دار الكتاب العربي بمصر ١٣٧١ — ١٩٥٢

خرج التأريخ على مختلف أشكاله عن أن يكون مجرد حكايات وروايات وانما هو إحياء لصور ماضية ، صور حروب ، صور جماعات ، صور مجتمعات وما شابه ذلك ، واذا لم يشتمل التأريخ على مثل هذا الإحياء كان جامداً ، فاذا روى لنا الفتوحات فانا لا نكتفي برؤية جيش يزحف الى جيش أو جند يغلبون جنداً وانما نريد أن نرى العوامل النفسية في الغلبة والانكسار حتى نرى بأعيننا صوراً ناطقة بلحمها ودمها وروحها ، فالشيء الذي تشتد الحاجة الى معرفته في عصرنا هذا ، عصر التحليل والتركيب ، انما هو صورة المجتمعات الاسلامية بعد فتوحات الإسلام ، كيف كانت الطبقات في البلاد التي استولى عليها المسلمون ، كيف كانت لغاتهم ، كيف امتزج المسلمون بهذه الطبقات أو كيف امتزجت الطبقات بالمسلمين ، وما هو أثر التفاعل في هذا الامتزاج ، كيف خالطت لغة العرب اللغات الجديدة في البلاد التي غلب عليها العرب ، ما الذي استفادت من هذه اللغات أو ما الذي استفادت اللغات منها ، هذا ونظيره هو الذي يعنينا أمره في عصرنا هذا ، انا نريد أن نرى جماعات ناطقة تشهد حياتها ونسمع كلامها ، نريد أن ينفض المؤلف التأريخ من مذاقته حتى نعيش مع أهله في مجتمعاتهم ونسمع كلامهم .

هذا ما بذل مجهوده فيه الدكتور شكري فيصل في كتابه : المجتمعات الاسلامية في القرن الأول .

في كتابه : حركة الفتح الإسلامي درس هذه الحركة حتى يصل الى معرفة نتائجها في المجتمعات الاسلامية وفي اللغة والأدب .

وفي كتاب : المجتمعات الاسلامية أحيا لنا هذه النتائج فبيّن كيف أدّت فتوحات المسلمين الى انشاء مجتمعات جديدة وما هي الأطوار الجديدة التي دخلت فيها لغة العرب وأدبهم بعد الفتح ٠

واذا شئنا أن نعرف شيئاً من مظاهر هذا الكتاب فانا نكتفي بأن نقول ان المتعارف ان مجتمعات الجاهلية كانت عبارة عن عصبيات متناحرة تقوم على خلاف القبائل وانقسامها وان هذه القبائل كانت وكأنما كل واحدة منها أمة مستقلة الا أن الدكتور شكري فيصل لم يذهب هذا المذهب فقد قرّر ان مجتمعات الجاهلية لم تكن على هذه الصورة من الجمود والتشتت ولم تكن القبائل تعيش في هذا التباعد وانما كانت هناك حركة تسوق القبائل وتقرّب بينها ٠

من الصعب أن نحيط في هذه الكلمة المختصرة بروح كتاب الدكتور فيصل من مجامع نواحيه ، من الصعب أن نحيط بآثار الفتوح الإسلامية في المجتمعات واللغة والأدب ، انا نعرف أن اللغة العربية بعد أن خرجت من بيئتها لم تكن ملك العرب وحدهم كما يقول « دوزي » في معجمه وانما أصبحت ملك الولايات التي استولى عليها العرب فامتزج العرب بأهل تلك الولايات فكان لهذا الامتزاج أثر في العرب أنفسهم وفي لغتهم فاقتبس العرب عن المغلوبين من أهل الشام وفارس والقبط والبربر والاسبانيين والترك طائفة عظيمة من المفردات ، انتقل العرب من البدو الى عالم كانت آفاقه جديدة فاتصلوا بمدن ورثت أشياء كثيرة من الحضارات القديمة كحضارة الرومانيين وحضارة الفرس فأثر هذا الانتقال في ثقافتهم فدرسوا فنون المغلوبين وعلومهم وأدت هذه الدراسة الى انقلاب في أفكارهم وأخلاقهم ولغتهم ذاتها ٠

وضّح الدكتور فيصل في كتابه آثار هذا الانقلاب في مجتمعات المسلمين ولغتهم وأدبهم ففي كل عصر كان ناس يحرصون على مجتمعاتهم القديمة ولغتهم القديمة وناس يذهبون مذاهب جديدة ، ففي القرن الأول من الاسلام حاول

بعض الشعراء أن يحرصوا على الروح الجاهلية في شعرهم كما حاول بعد ذلك علماء اللغة أن يحرصوا على وحدة لغتهم الا ان الفتوحات أثرت في الأدب وفي اللغة وليس بقليل أن نشهد عواقب هذه الآثار فنرى كيف استفاض اللحن في كلام الناس.

لقد استطاع الدكتور أن يصور لنا في مؤلفه العظيم هذا العالم الجديد الذي تصارعت فيه بعد الفتوحات الإسلامية لغة العرب ولغات ثانية ومجتمع العرب ومجتمعات ثانية حتى كدنا نرى آثار هذا التنازع بأعيننا فكأنا عشنا بين ظهراني الإماء والعبيد والزنوج والأنباط الذين خالطوا العرب فتعلموا لغتهم وجمعوا بينها وبين عجمتهم، ولكن لغة العرب بعد الفتوح غلبت على كل اللغات التي مرّت بها فلم تستطع لغة واحدة منها أن تستأصل العربية .

أفلا يحق لنا بعد هذه الصور الناطقة التي ازدحمت في كتاب : المجتمعات الاسلامية في القرن الأول أن نثني على صاحبه أجمل الثناء وأن نشيد بفضله ومجهوده .

شفيق جبري

مخطوطات يمانية

في خزانة كتب الإمام يحيى

أهدى الى خزانة المجمع العلمي العربي حضرة الأمير سيف الإسلام عبد الله (مجلداً من فهرس كتب المكتبة العامة بجامع صنعاء) وقد رأينا أن ننشر هنا طائفة من أسماء مخطوطات نراها قمينة بالذكر . جديرة بالنشر . ونعتمد في أكثر ما نذكره من المخطوطات على ما عثرنا عليه في مجاميع الفهرس .

مجموع (رقم ٩) فيه رسائل مخطوطة للعلامة الأمير محمد بن اسماعيل (المتوفى سنة ١١٨٢ هـ) كتبت في حياته منها :

رسالة في تحقيق مدة الحمل وأقوال العلماء في ذلك .

بحث في جواز الضرب على التهمة .

مجموع (رقم ١١) فيه رسائل مخطوطة للسيوطي منها :

طي اللسان عن ذم الطيلسان .

إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب .

رسالة التبري من معرة المعري .

رسالة الطرطوث في البرغوث [1] .

اتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء .

الباحة في السباحة

نزهة العمر في التفضيل بين البيض والسمر .

الأوج في خبر عوج .

مجموع (رقم ١٢) فيه رسائل مخطوطة لمحمد بن عبد القادر الأهدل منها ثلاث رسائل في موضوع الصندوق الناطق . اثنتان منها للأهدل والأخيرة للهذلي الشافعي:

(١) غاية الانتصار لكون الصندوق الناطق ليس من الأسحار .

(٢) أنوار الهدى في حكم صندوق الصدا .

(٣) فتاوى الفلاح على ما في فتوى حِلّ الصندوق والاسترواح .

(٤) رسالة للأهدل تتضمن جواب سؤال في مسألة الحوايل [2] التجارية .

مجموع مخطوط (رقم ١٧) فيه مقصورة ابن دريد الصغرى ؟

مجموع مخطوط (رقم ٢٨) فيه غاية النفع في نشر فضائل الزرع لشهاب الدين الرملي .

مجموع مخطوط (رقم ٣٢) فيه كتاب التعاليق في علم النجوم .

---

(١) الطرطوث أهملته المعاجم فلعل صوابه الطرثوث بالثاء وهو نبت يؤكل كذا في اللسان .
(المغربي)

(٢) المراد بالحوايل التحاويل وهي الحوالات التجارية المعروفة بين التجار أما الصندوق الذي ألفت فيه الرسائل الثلاث فالمراد به ما يسميه العامة (صندوق العجايب) وهو معروف وكاد ينسخ استعماله أو المراد به صندوق الاذاعة (الراديو) المعروف في عصرنا هذا . والمخطوط الذي فيه هذه الرسائل قديم فيكون (الأهدل والهذلي) قديمين . واسرة الأهدل مشهورة بالشرف في بلاد اليمن وقد ترجم صاحب خلاصة الأثر لعدة رجال منها منهم (محمد بن عمر بن عبد القادر الأهدل) توفي سنة ١٠٣٢ هـ فلعله مؤلف الرسالتين . (المغربي)

مجموع مخطوط (رقم ٣٥) فيه نبذة في علم الصياغة رواها احمد بن يوسف الأموي عن بني أعماس .

مجموع مخطوط فيه (فلك القاموس في اللغة) وهو شبه مقدمة للقاموس المحيط تأليف السيد عبد القادر بن احمد .

مجموع مخطوط (رقم ٥٠) فيه : بحث في الرعد والسحاب للسيد محمد الأمير . وجواب سؤال في بيع النساء له وسؤال في ملك الكفار على المسلمين له .

مجموع مخطوط (رقم ٦١) فيه : قصيدة خالد بن صفوان التي سمتها العرب العروس مع شرحها الرسالة الحاتمية في ما أخذه المتنبي من كلام الحكماء وأدخله في شعره .

مجموع مخطوط (رقم ٨٤) فيه : كتاب الإعلام بوفيات الأعلام للذهبي .

مجموع مخطوط (رقم ٨٨) فيه : رسالة صفة حل الزئبق ونحوه .

قراضة الذهب في الأدب المنتخب .

المستقصى من الأمثال للزمخشري تاريخ نقله سنة ٩٦٧ .

أنوار المباني المنتظمة ببدائع المعاني . الملتقطة من شرح ابن جني لديوان المتنبي .

مجموع مخطوط (رقم ٩١) وفيه : عجالة الجواب في الرد على شيعة معاوية الكلاب للسيد صلاح الأخفش .

شرح قصيدة الصاحب ابن عباد التي مستهلها :

« قالت أبا القاسم استخففت بالغزل » الخ . للقاضي جعفر بن احمد بن عبد السلام .

مناظرة المأمون في أمير المؤمنين علي عليه السلام منقولة (من الصوارم المنتضاة في المناقب المرتضاة) .

هذا ما استحسنا ذكره من رسائل المجاميع المخطوطة وباقي الرسائل بل سائر ما في مجلدة الفهرس كلها كتب دينية في الحديث والفقه والعقائد والمناظرات التي يظهر من اسمها أنها مهاترات لا فائدة ترجى من وراء نشرها سوى تكرار القول وترديد الجدل . هذا في مخطوطات الفهرس أما مطبوعاته ففيها النفائس ولكن لا حاجة لنا في ذكرها كما لا يخفى .

المغربي

التعريف بابن خلدون

ورحلته غرباً وشرقاً

تأليف عبد الرحمن بن خلدون عارضه بأصوله وعلق حواشيه السيد محمد بن تاويت الطنجي وهو بنحو (٤٥٩) صفحة من قطع الوسط ، نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة سنة ١٩٥١ .

أجمع العلماء على إجلال ابن خلدون وانه أحد أفراد قلائل من بين علماء الأمة ولذا عني العلماء بسيرته كما عنوا بأبحاثه وآرائه ليصوروا للناس شخصيته . وهذا مازين للسيد الطنجي العناية بهذا الفصل من تاريخ ابن خلدون ونشره في كتاب مستقل بعد أن عارضه بأصوله وعلق حواشيه . وهذا الفصل من كتاب العبر هو أبعد من أن يعرفنا بابن خلدون لأن التعريف يشمل سيرته الفذة وتحليل شخصيته بصفته عالماً ولا نجد هنا إلا نبذاً من حياته ورحلاته .

كان لابن خلدون قدرة فائقة بالحكم على الأشياء فلم يكتف كغيره بالنقل عن المتقدمين بل جمع ما أخذ منهم وكون من ذلك كله رأيه ، وأراد ابن خلدون أن يقدم للناس سيرته مجردة من كل تعليق ليترك لغيره حسب مذهبه رأيه عن أخلاقه وشخصيته ، والناس قلما يركنون للتراجم التي يصنفها أصحابها لأنفسهم ، وهم أحد رجلين اما معجب بنفسه فيبالغ بقدره أو متواضع فينقص من شأنه . وأما ابن خلدون فقد اعتمد الصدق والبساطة فيما كتبه من سيرته وسجل بها على نفسه بعض هنات خلقية قد يعاب بها ويؤاخذ عليها ولولا اعترافه لما اكتشفت للناس وسلم من لسانهم .

ونشكر ناشر هذا التعريف على عنايته بتحقيقه ووضعه حواشيه ونشره على الصورة التي يريد مؤلفه أن يكون .

دولة بني قلاوون في مصر

الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص ، تأليف الدكتور محمد جمال الدين سرور مدرس التاريخ الاسلامي بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، جاء في نحو (٤٠٠) صفحة من القطع الوسط ، نشرته دار الفكر العربي في عام ١٩٤٧

عرفنا شغف مؤلف هذا الكتاب باستقصاء تاريخ مصر الاسلامية من بحثه السابق عن عصر الظاهر بيبرس الذي كشف به عن صفحة لا تخلو من أسباب العظمة والمجد ، وعزز ولعه بدراسة ثانية عن مصر في عهد أسرة قلاوون ولا تقل هذه الدراسة عن الأولى شأناً ، فقد استعرض المؤلف في كتابه شؤون مصر الداخلية والخارجية والاقتصادية في عهد هذه الاسرة وأشاد في مناقبها دون أن يبدي رأيه في مساوئ حكمها . ولو أراد منصف أن يحاسب هذه الأسرة بحسب الوقائع التي بسطها المؤلف والحوادث التي سردها في كتابه لخفت موازينها وتضاءلت معها جميع حسناتها . ولا يجد القارئ في سيرتها الا سلسلة من الغدر والمؤامرات والاغتيالات والتنافس على الحكم واستباحة الأموال وهتك الأعراض واهمال شؤون الدفاع عن البلاد حتى طمعت بها أضعف الدويلات والامارات ، ولولا انشغال أوربا وقتئذ بحروب المئة سنة لكانت مصر وبلاد الشام لقمة سائغة للأعداء .

وقد عثرت على بعض أخطاء مطبعية لم يشر اليها المؤلف في جدول التصحيحات رأيت التنبيه اليها ومنها :

صفحة	خطأ	صواب
١٠٥	مثالث المشركين	مثالب المشركين
١٣٣	الى الجيل الأحمر	الى الجبل الأحمر
١٣٥	بعدبتين	بعذبتين

صفحة	خطأ	صواب
١٣٩	الجنخان	الوق خان او الوغ خان
١٨٣	وليكف الكف العادية	وليكف أكف العادية
١٨٥	قدمنه في عنقه	فدمه في عنقه
٢٠٣	سنة ١٣٠٥	سنة ١٣٠٣
٢٢١	صراي	سراي وتسمى أيضاً بنجه سراي (راجع حوادث سنة ٧٣٠ من تاريخ ابن كثير) ٠
٢٢٩	اطنه	اذنة أو ادنة
٣١٦	ويتسلون منه أمراساً	ويفتلون منه أمراساً

وكان على المؤلف أن يذكر أسماء الأعلام الافرنجية بالحروف العربية أيضاً وأن يعرب أسماء الكتب التي نقل عنها لأن أكثر القراء لا يعرفون اللغات الغربية ولا الحروف اللاتينية ٠

وحبذا لو اقتدى مؤرخو بقية الأقطار العربية بمؤلف هذا الكتاب وأفردوا لكل عهد دراسة مستقلة لأنه يتعذر على الفرد أن يحيط بدقائق تاريخ أمة في جميع عهودها ويعالجها معالجة عصرية ٠

جعفر الحسني

تاريخ السلالة الحمدانية في سورية والجزيرة

تأليف ماريوس كانار (الجزء الأول)

منشورات كلية الآداب بالجزائر سنة ١٩٥١ ، في ٨٦٢ صفحة

Histoire de la Dynastie des H'amdanides de Jazîra et de Syrie-tome Premier Publications de la Faculté des lettres d'Alger, Alger 1951, 862 Pages.

نشر الأستاذ ماريوس كانار هذا الكتاب إثر جهود طويلة آتت أكلها اليوم بعد دراسة عشرين عاماً في الموضوع ، سافر لأجلها المستشرق فتعرف الى الأرض والتربة والكتب والمخطوطات والخزائن ، وأكب فيها على تفهم العصر الحمداني من نواحيه المختلفة ، فجمع له مايستطيع الدارس جمعه من مصادر ومراجع ووثائق .

وقد بدأ بجمع المصادر العربية المتعلقة بالعصر الحمداني فوفق إلى اصطياد مخطوطاته ومطبوعاته ونشرها على الناس سنة ١٩٣٤ في كتاب قيم عنوانه : « نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار الأمير سيف الدولة الحمداني » . وهو ما يزال مرجعاً لكل باحث عن حياة الأمير وعصره في مختلف نواحيه السياسية والتاريخية والأدبية .

ثم عكف بعد ذلك على دراسة النصوص اليونانية والأجنبية الأخرى التي عاصرت الأمير أو جاءت بعده فتحدثت عن حروب العرب ضد الروم والبلغار والروس والأرمن ، ووصفت المعارك ورسمت حياة العرب وأسهبت في ذكر المواقع والأماكن والقصور والآثار . وهذا ثمين كذلك لا يقل فائدة عن المصادر العربية المخطوطة والمطبوعة ؛ وقد صدر في أجزاء ثلاثة في اللغة الفرنسية بالاشتراك مع غيره من الباحثين والمؤرخين بعنوان « العرب والروم » . وهذا الكتاب

يعرض علينا آراء الطرفين المتحاربين والأمتين المتغالبتين ، وبمناقشة هذه الآراء تتجلى الحقيقة التاريخية .

ولما تقدم الى الجامعة برسالة الدكتوراه منذ عامين جعل من النصوص الأولى والنصوص الأخرى ميداناً لبحثه ودرسه فكانت الرسالة في جزءين ، صدر منها الجزء الأول وهو في قرابة تسعمائة صفحة ، خصه بدارسة الناحية الجغرافية والتاريخية للأقاليم التي كانت مسرحا لحوادث الحمدانيين ، وجعل الثاني لرسم الحياة السياسية والادارية والاقتصادية والأدبية في المملكة الحمدانية ؛ وهذا لم يصدر بعدُ .

أما الأول فقد بدأه بتعريف المصادر العربية التي تحدثت عن العصر والحمدانيين تعريفًا دقيقًا جامعاً لم تندّ عنه مخطوطة أو صحيفة أو نقش على حجر ، حتى لم يترك فيه قولاً لقائل ، وتعريفه أقرب الى تحليل الكتاب كله وبيان فائدته وأسلوبه وطريقة بحثه . ثم عقب على ذلك بتحليل المصادر الأجنبية التاريخية والأدبية نقربها من القارئ وعرّفه بقيمتها ونفعها .

وبعد تحليل المصادر شرع في رسم الأقاليم فوصف الجزيرة وأقسامها وقراها ومدنها وأنهارها في تفصيل وايضاح ؛ ثم تطرق الى العراق وانتقل الى الثغور والعواصم كما تحدّث عنها العرب لعهدهم والروم لزمانهم ، وذلك كله في قرابة ثلاثمائة صفحة . ووقف بعد ذلك عند الحمدانيين يبيّن تاريخ أسرتهم ونشأتهم وما كان لهم من ثورة وأمجاد في بغداد والموصل وما وقع لهم من طموح في الاستيلاء على ارمينية وبلاد الروم ، الى أن بلغ بهم حلب تتصدى لحكمهم فيها وحروبهم ضد المصريين أو ضد القبائل المغيرة ، ولم يقف عند سيف الدولة بل جعل كتابه في الحديث عن الأسرة الحمدانية كلها ، فبحث في سعد الدولة ثم في ابنه سعيد الدولة ، فنقل لنا حوادث مئة وخمسين عاماً من تاريخ هذه السلالة إلى ان انقضى حكمهم . وذلك في قرابة أربعمائة صفحة .

وختم كتابه في تفصيل الحروب التي دارت بين الحمدانيين والروم فنظر فيها من جانبين وعرض لها من ناحيتين ووقف بينهما وقفة المؤرخ العالم فاستغرق قرابة مئتي صفحة ختم بها الجزء الأول .

ولعلنا بهذا التحليل السريع رسمنا هيكل الكتاب ولم نعرض للتفصيل والمناقشة فذلك لا تكفيه صفحات النقد والتقريظ وإنما يحوجنا الى كتاب في الموضوع ، فصدور هذا البحث يعدّ عند المؤرخين من علماء المشرقيات حدثاً في الكشف عن عصر تلاحم فيه الشرق والغرب قبل الحروب الصليبية فكان تمهيداً لها وتجربة في جسّ النبض ـ كما يقولون ـ :

ويجب أن نشهد بفضل الأستاذ ماريوس كانار على الحمدانيين فقد بسط السبيل للباحثين ليعتمدوا على المصوّرات والوثائق والمخطوطات التي جعلها بين أيديهم عربية كانت أو أجنبية يفيدون منها حين يبسطون القلم في الحديث عن عصر الحمدانيين سواء فيهم الأدباء والمؤرخون ، فقد عرض المؤلف للدواوين والكتب والأحجار فناقش ما تقدمه من عون وما تسديه من يد في إيضاح العصر والتعريف به .

فالكتاب جدير بالدرس والتقدير ، جدير بالترجمة والنقل ، وهو من دعائم الكتب التي صدرت فى السنوات الأخيرة عن تاريخ بلادنا وجغرافية أرضنا وفائدة دواويننا وأدبنا ؛ وهو يضيف يداً الى أيادي المخلصين من المستعربين الذين يريدون من بحوثهم وجه الله والحقيقة في حياد علمي وتثبت مدرسي . فللأستاذ ماريوس كانار أوفر الشكر على ما قدم ويقدّم في سبيل الفكر والتاريخ .

دمشق : الدكتور سامي الدهان

اكسير المحققين في القرن العشرين

تأليف : المحامي موسى نجيب برنس — بيروت

الكتاب : يقع هذا الكتاب في سبعين ومئتي صفحة من القطع المتوسط يضاف اليها ما يقرب من مئة صفحة استغرقها اهداء الكتاب ثم التعريف به مع عدة مقدمات كتبها بعض رجال القانون والطب الشرعي في بيروت الى جانب ترجمات لها باللغة الايطالية أو بها وبالفرنسية .

والنسخة التي نكتب عنها تحمل تاريخ ٢٧ ايلول ١٩٥١ تحت جملة « طبعة استثنائية » صادرة عن مطابع الدنيا في بيروت بحرف صغير وعلى ورق جيد .

المؤلف : كاتب أديب واسع الاطلاع ، ولا أشك أنه خطيب ، أو يجيد المرافعة أمام القضاة . وهو يقدم اليوم كتابه الأول الى الخزانة الحقوقية بعد أن قدم الى الخزانة الأدبية عام ١٩٤٨ كتيباً باسم « جولة في ربوع أدونيس » قدم له ميخائيل نعيمة .

الموضوع : موضوع الكتاب جزء من بحث عظيم الشأن جديد في اللغة العربية ، رغم أن الفكرة فيه تطرق اليها فقهاء المسلمين وأولوها عنايتهم وبحثوها بحثاً مستفيضاً أخذوه من العقل والشرع ، وهذه الفكرة هي « صحة الاقرار » ، أما هذا الكتاب فيدور على « انتزاع الاقرار » وقد قسمه المؤلف الى ثلاثة أبواب : بحث في الأول منها عن « مدى سلطة المحقق في الحصول على اقرار الظنين » وعن « قيمة الاقرار في الدعاوى الجزائية » وفي الباب الثاني بحث عن « التحقيق الجزائي من الناحية العلمية » وفي الباب الثالث بحث عن المخدر المسمى « مصل الحقيقة » فأطلق عليه بالنسبة لرجال التحقيق الجنائي اسم « الاكسير » هذه اللفظة

التي تدل على «ماء الحياة» او على تلك المادة السحرية التي حلم بالحصول عليها قدماء الفلاسفة ورجال الكيمياء •

يعرض المؤلف لعصور الارهاب والتعذيب التي مر بها العالم ويقول : (وظل التعذيب في الغرب احدى الوسائل التي كانوا يلجأون اليها في حمل المتهم على الاقرار ، ومنذ عهد الثورة أخذ تنظيم التحقيق يتطور بفضل الوعي العام وانتشار الثقافة ، فوجد في العالم من أهل الفقه والمعرفة من جعلوا المتهم أمانة في عنق المحقق وأوصوا به خيراً كما كان هناك من حاول فتح الباب في وجهه ، فاستعان بالمحامي لدى الشدة) •

ثم يستمر المؤلف في حديثه عن الارهاب والتعذيب وكيف تطور مع المدنية الحديثة فأخذت صور العنف والاكراه المادي تختفي وراء الأساليب العصرية التي هي ـ على حد تعبيره ـ ذات صبغة شيطانية توصلت البشرية معها الى مشاهدة ما هنالك من المآسي المروّعة التي ارتكبت في أحضان ما يعرف اليوم باسم « جنون الاتهام الذاتي » حتى لكأن الانسان قد أمسى وهو أشد ما يكون فرحاً وسروراً لرؤيته نفسه يحفر قبره بظلفه •

ويحدثنا المؤلف مطولاً عن تلك الأساليب قائلاً : (لقد راحت الكيمياء والكهرباء وعلم الجراحة تقوم مقام رجل التحري صاحب الزنود المفتولة والسياط المجدولة) الى أن يقول : (وهكذا انتقلنا من الضرب بالسياط الى الصدمة الكهربائية ، من عذاب الوقوف أياماً والأيادي مكبلة بالأصفاد الى الاغراق في المغاطس المثلجة) الى أن يحدثنا عن الدكتور جاك لي الطبيب الذي اعترف بأنه قد وفق بفضل المبضع الى استئصال فكرة الاجرام من المجرمين ، فيهاجمه بعنف وجميع القائلين بنظريات مكافحة الاجرام بالعمليات الجراحية مستشهداً بقول أحد القضاة البلجيكيين : (اننا اذا لم نرد المبضع الى مكانه فنحن سائرون على شفا الهاوية) •

ثم يحدثنا المؤلف عن المستحضرات الكيماوية الحديثة «التي تذل العنفوان البشري» و «تغمز من قناة الحرية الفكرية» و «تفقد الانسان سيادته حتى على ضميره» فيحدثنا مثلاً عن «الاكتودرون» و «المورفين» و «المسكالين» و «السكوبولامين» و «الباتوتال» وكلها من أنواع المخدرات التي استعملت في الغرب في سبيل أخذ اقرار المتهمين وهم فاقدوا الارادة بتأثيرها .

والمؤلف وهو يذكر آخر المستحضرات المعروف باسم ـ مصل الحقيقة ـ يسميه باكسير المحققين ـ الاسم الذي توج به كتابه ـ وهو ينادي بوجوب تحريم استعمال هذا المخدر لا لأنه ، من الوجهة الانسانية أشد وقعاً على الكرامة الذاتية من التعذيب المادي ، بل لأنه من الوجهة العلمية لا يمكن الركون الى نتائجه ، لأن الباطن الانساني ـ كما يقول ـ عبارة عن بيئة يرتع فيها جنباً الى جنب كثير الحقائق والخيالات فلا يمكن الوثوق عند فقدان الارادة من كون الحقائق وحدها هي التي تجري على لسانهم .

ويتهكم المؤلف بنفر من العلماء يدعون بان «التحليل بالمخدر» انما هو أسلوب لمعرفة الحقائق بدون تعذيب يتم به أسلوب «التحليل النفسي» الذي تمت له السيادة في علم الاجرام الحديث ، ويرد عليهم قائلاً بأن التحليل النفسي يرمي الى معرفة المركبات العاطفية المكبوتة منذ عهد الطفولة ، بينما التحليل بالمخدر هو انتهاك لحرمة الضمير الانساني ، ويؤيد المؤلف رأيه بآراء كثير من العلماء والفلاسفة ويستشهد بالأستاذ كولينيون البلجيكي اذ خطب في مؤتمر ليبج فقال : (كفى ! كفى ! ان في تصرف المحققين انتهاكاً فاضحاً لحرمة الباطن المقدس ! قفوا أيها المحققون عند العتبة من هيكل الاقداس ، ولا تدنوا من كعبة الانسانية الحرام .. ! ان اقتحامكم باطن هذا المقدس الرهيب ، اعني به هذا الكائن المعبر عنه بلفظ «انا» لمو جريمة أشد هولاً مما تدعون التفتيش عنه) .

ثم يختم المؤلف كتابه بفذلكة يعرض فيها رأيه صريحاً واضحاً ويقول في الرد على بعض المجددين الذين يرون في استخدام «التخدير» لكشف الجرائم خدمة للمجتمع :
(كلا ! بل الف كلا ! ان واجب كل منا ان يحول دون تطبيق مثل هذه الأساليب الجائرة حتى ولو اتهمنا بالرجعية والتأخر ، لأن هناك معارضة مقدسة تقاوم كل تقدم جائر ورقي مزيف) .

نقد الكتاب : لا يمكن تصنيف هذا الكتاب ـ على جلال موضوعه ـ بين الكتب العلمية ، ولا هو من كتب القانون ، وأقرب الأوصاف له ـ على ما نرى ـ انه من كتب الأدب القانوني ، كمذكرات رجال القانون وكتب المرافعات والقضايا الشهيرة والصور القضائية ، والذي نظنه ان المؤلف استوحى كتابه من مرافعة عدها للدفاع عن متهم سبق اقراره بالجريمة فاستطاع بما أوتيه من حجة وسعة اطلاع الى انقاذ موكله ، مما جعله يفكر في الدفاع عن كل المتهمين الذين ينتزع الاقرار منهم انتزاعاً ، فعمد الى تأليف هذا الكتاب يهاجم فيه الأساليب المختلفة لانتزاع الاقرار ، وفي مقدمتها أساليب التخدير الحديثة ، فكان كتابه ـ رغم التقسيم الذي فرضه على نفسه ـ مجموعة مرافعات منسجمة في أسلوبها متحدة في هدفها وقد صيغت كلها صياغة أدبية تعتمد على أسلوب الخطابة في التكرار والاعادة حيناً وفي التهويل والتحذير أحياناً كثيرة .

ان أسلوب الكتاب في جملته حسن رغم ما فيه من تكرار واسهاب في كثير من مقاطعه ، ورغم بعض التعابير الضعيفة ، او التشابيه غير الدقيقة التي يحويها مثل : « كأنما يغرف من بحر الدعاية غرف المعدم الجائع » أو « نوع من البراز » .

ولغة الكتاب تكاد تكون عالية لولا ما يشوبها من أغلاط شائعة كقول المؤلف : « الغير مشروع » و « تبرئة الغير مسؤولين » .

ومما لا نقر المؤلف عليه اتباعه نسقاً قديماً في تصوير الأسماء الأعجمية يبعدها عن لفظها الأصلي وعما الف الناس كتابته في العصر الحديث كقوله : « جونيف »

و « لياج » و « غرينبارغ » و « امبريار » و « فيبار » و « البنـالين » .

ومما أخذناه على المؤلف أنه في الفصل الذي عرض فيه آراء بعض علماء الغرب في ضرورة قبول مبدأ شرعية استعمال المخدر ضمن قيود وشروط تمنع الافتئات على كرامة الانسان ، كاد يضعف ايمانه بوجوب تحريم جميع الأساليب التي تمكن الانسان من السيطرة على ضمير أخيه الانسان رغم ارادته ، اذ رأيناه وكأنه انساق مع أولئك العلماء في امكان التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ، ولكن المؤلف يعود الى حماسه وايمانه في نهاية كتابه ليعلن ضرورة تحريم استعمال المخدر في جميع الحالات وهو يهيب بالشرق ورجاله الى التساند في الدفاع عن كرامة الانسان والوقوف في وجه الأساليب التي أخذ رجال الغرب ومفكروه في الشكوى منها وذلك قبل أن يتشوه وجه الشرق اذا أخذ بها .

عدنان الخطيب

تاريخ مدينة دمشق

تصنيف الحافظ علي بن الحسن المعروف بابن عساكر المتوفى سنة (٥٧١)

مطبوعات المجمع العلمي العربي (المجلدة الأولى) بتحقيق الأستاذ صلاح الدين المنجد

في نحو ٩٠٠ صفحة

يعد تاريخ ابن عساكر أكبر تاريخ في العربية . وموضوعه تاريخ مدينة دمشق وتراجم من دخلها أو سكنها أو اجتاز بها أو باحدى ضواحيها .

ودمشق أول عاصمة للدولة العربية متوسطة بين بلاد المغرب : أندلس وتونس ومراكش ومصر ، وبين بلاد المشرق : العراق وايران وما الى ذلك من أقطار الإسلام . كما يعد مسجدها (الجامع الأموي) أحد عجائب الدنيا . لذلك كانت مركزاً مهماً يمر بها أو يقصد زيارتها أكبر عدد من أعلام العرب والمسلمين .

ترجم ابن عساكر لهؤلاء وجمع فيهم أكبر نصوص موثوق بها فكان تاريخه أعظم مجموعة تاريخية أثارت اعجاب العلماء واكبارهم .

وحينما جرى الحديث في هذا التاريخ واستعظامه بحضور علامة مصر ومحدثها « الحافظ المنذري » أخرج مجلداً وأراه للحاضرين وقال في مؤلفه : ما أظن هذا الرجل الا عزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه وشرع في الجمع من ذلك الوقت ، والا فالعمر يقصر عن أن يجمع فيه الانسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبه ٠

وعلق القاضي ابن خلكان على كلام أستاذه المنذري بقوله : ولقد قال الحق ٠ ومن وقف عليه عرف حقيقة هذا القول ٠ ومتى يتسع للانسان الوقت حتى يصنع مثله ٠ وهذا الذي ظهر هو الذي اختاره وما صح له هذا الا بعد مسودات ما كاد يحصرها العدّ ٠

يحمل هذا التاريخ نحو عشرة آلاف ترجمة لمشاهير الاسلام وفيه السيرة النبوية مفصلة وسيرة الخلفاء الراشدين ممن دخلوا دمشق أو بعض أعمالها في الجاهلية أو الاسلام وفيه تراجم الخلفاء الأمويين وقوادهم وعلمائهم وتراجم غيرهم من العراقيين والحجازيين واليمنيين ممن ضمتهم صفين وفيه نصوص مشبعة عن العهد الأموي والبلاد الأندلسية وفتوحها وادارتها وقوادها مما يندر وجود مثله في غيره ٠

وقد ترجم لأشهر خلفاء بني العباس كهارون الرشيد والمأمون والمعتصم والمتوكل وأشهر علماء ذلك العصر كالأوزاعي والشافعي وابن حنبل واصحاب الكتب الستة وترجم للجاحظ وأمثاله ، وأشهر قواد ذلك العصر كأبي مسلم الخراساني وطاهر ابن الحسين واحمد بن طولون وولده خمارويه وكبار الشعراء كأبي نواس والبحتري وابي تمام وغيرهم ٠

ويأتي في تراجم هؤلاء وأمثالهم بنصوص تتعلق بهم وذلك عن مصادر أصبحت مفقودة يصلح كثير منها أن يكون كتاباً مستقلاً لغزارتها وكثرة مادتها ٠

وفي سنة (١٣٢٩ هـ) قصد أستاذنا المرحوم الشيخ عبد القادر بدران طبع هذا التاريخ فاصطدم بعقبات جمة أعظمها كثرة الخطأ في النسختين المخطوطتين بالمكتبة الظاهرية بدمشق فعمد الى اختصاره وتهذيبه ليبتعد عن الخطأ الذي

فيها وليحذف ما لم يظهر له معناه ولم يهتد الى صوابه . ومع ذلك فلم يسلم ما طبعه منه من الخطأ الكثير والتحريف . وقد طبع من هذا المختصر سبعة أجزاء كانت سبباً لتعريف العلماء والباحثين قيمة هذا التاريخ .

وظل العلماء ينتظرون طبعه طبعة علمية تجعلهم يثقون بما فيه من نصوص . وكانوا ينتظرون أن يقوم بهذا العمل المجمع العلمي العربي لأن اسم الكتاب : «تاريخ مدينة دمشق» وقد حقق المجمع العلمي حسن ظن العلماء به فألف لجنة من علماء دمشق وأدبائها لتحقيقه وأتى بأجزاء كثيرة مصورة من هذا الكتاب من خارج دمشق وعهد بتحقيق الجزء الأول منه الى الأستاذ صلاح الدين المنجد فقام بتحقيق ما أسند اليه خير قيام ، وبذل جهداً كبيراً في معرفة اصطلاحات المؤلف وشيوخه ورجال أسانيده التي يسوقها في أول الخبر أو الحديث . وذلل صعاباً جمة يفيد منها كل من سيحقق بعده في هذا التاريخ . وقد وضع في أوله مقدمة تبلغ ستين صفحة ضرب بها مثلاً حياً للمحققين والناشرين وضع فيها ترجمة حافلة للمؤلف على الطرق الحديثة ضمنها كل ما يتعلق بالمؤلف كما ضمنها شجرة نسب بني عساكر ومخططاً للعالم الاسلامي أشار الى المدن التي رحل اليها المؤلف لطلب العلم وسماع الحديث ثم ترجم للتاريخ نفسه فحلله تحليلاً دقيقاً وقارن بينه وبين تاريخ بغداد للخطيب . وبين مواطن النقد في كلا التاريخين ثم ذكر مختصرات تاريخ ابن عساكر والذيول التي وضعت عليه وأماكن النسخ المعروفة منها في خزائن العالم ثم وضع فهارس في آخر الكتاب .

وبعد هذا كله فقد توج هذا الجزء في أوله بكلمة ومقدمة للأستاذ الجليل رئيس المجمع العلمي العربي فزادته رونقاً وكمالاً .

فالى المجمع العلمي العربي ، والى الأستاذ المنجد نزف تهانينا على النجاح الذي أصابه هذا العمل العلمي الكبير وقد ظهر ذلك في أول جزء منه . والرجاء أن يطرد العمل في اخراج بقية الأجزاء .

محمد أحمد دهمان

آراء وأنباء

أعضاء المجمع العلمي العربي

في سنة ١٣٧٢ هـ — ١٩٥٣ م

١	الأستاذ محمد كردعلي (رئيس المجمع)	دمشق
٢	الدكتور اسعد الحكيم	〃
٣	الأمير جعفر الحسني	〃
٤	الدكتور جميل صليبا	〃
٥	〃 حسني سبح	〃
٦	الاستاذ خليل مردم بك	〃
٧	〃 سليم الجندي	〃
٨	〃 شفيق جبري	〃
٩	〃 عارف النكدي	〃
١٠	الشيخ عبد القادر المغربي (نائب الرئيس)	〃
١١	الاستاذ عز الدين التنوخي	〃
١٢	〃 فارس الخوري	〃
١٣	〃 محمد البزم	〃
١٤	الشيخ محمد بهجة البيطار	〃
١٥	الدكتور مرشد خاطر	〃
١٦	الأمير مصطفى الشهابي	〃
١٧	الدكتور منير العجلاني	〃
١٨	الاستاذ هنري لاوست	〃
١٩	الشيخ عبد الحميد الكيالي	حلب
٢٠	الدكتور عبد الرحمن الكيالي	〃
٢١	الاستاذ عمر ابوريشة	حلب
٢٢	الشيخ محمد زين العابدين	〃
٢٣	البطريرك مار اغناطيوس افرام	حمص
٢٤	الأستاذ محمد سليمان الأحمد (بدوي الجبل)	اللاذقية
٢٥	الشيخ سعيد العرفي	دير الزور
٢٦	الاستاذ أنيس المقدسي	بيروت
٢٧	〃 بشارة الخوري	〃
٢٨	الدكتور صبحي المحمصاني	〃
٢٩	〃 عمر فروخ	〃
٣٠	الشيخ فؤاد الخطيب	〃
٣١	الفيكونت فيليب دي طرازي	〃
٣٢	الدكتور نقولا فياض	〃
٣٣	الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف	زحلة
٣٤	الشيخ احمد رضا	جبل عاملة
٣٥	الشيخ سليمان ظاهر	〃 〃
٣٦	الأب أ. س. مرمرجي الدومنكي	القدس
٣٧	الاستاذ محمد الشريقي	عمان
٣٨	الشيخ رضا الشبيبي	بغداد
٣٩	الاستاذ طه الهاشمي	〃
٤٠	〃 عباس العزاوي	〃

٤١	الشيخ كاظم الدجيلي	بغداد
٤٢	〃 محمد بهجة الاثري	〃
٤٣	الدكتور مصطفى جواد	〃
٤٤	الاستاذ احمد حامد الصراف	〃
٤٥	〃 كوركيس عواد	〃
٤٦	الدكتور داود الچلبي	الموصل
٤٧	الاستاذ احمد امين	القاهرة
٤٨	〃 احمد حسن الزيات	〃
٤٩	الدكتور احمد زكي	〃
٥٠	الاستاذ احمد لطفي السيد	〃
٥١	〃 خليل ثابت	〃
٥٢	〃 خير الدين الزركلي	〃
٥٣	الدكتور طه حسين	〃
٥٤	الاستاذ عباس محمود العقاد	〃
٥٥	الدكتور عبد الوهاب عزام	〃
٥٦	الشيخ محمد الخضر حسين	〃
٥٧	الاستاذ محمد لطفي جمعة	〃
٥٨	الأمير يوسف كمال	〃
٥٩	الأستاذ عبد الحميد العبادي	الاسكندرية
٦٠	〃 حمد الجاسر	الرياض
٦١	〃 حسن حسني عبد الوهاب	تونس
٦٢	〃 مارسه	〃
٦٣	〃 عبد الحي الكتاني	فاس
٦٤	〃 محمد الحجوي	مراكش

٦٥	الاستاذ عباس إقبال	طهران
٦٦	〃 عبد العزيز الميمني الراجكوتي	عليكر
٦٧	〃 أ· كي	فرنسا
٦٨	〃 ماسه	باريس
٦٩	〃 دوسو	〃
٧٠	〃 كولان	〃
٧١	〃 ماسيتيون	〃
٧٢	〃 هبس	سويسرا ـ زوريخ
٧٣	〃 كرينكو	كمبردج
٧٤	〃 ا· ج· اربري	〃
٧٥	〃 ه·ا·ر·جيب	(اوكسفورد)
٧٦	〃 الفرد غليوم	لندن
٧٧	〃 اميليو غارسيا غومز	مدريد
٧٨	〃 فرنسيسكو جبرآلي	روما
٧٩	〃 بروكلمن	المانية
٨٠	〃 هارتمان (ريشار)	برلين
٨١	〃 ه· ريتر	فرنكفورت
٨٢	〃 سترستين	السويد ـ اوبسالا
٨٣	〃 استروب	كوبنهاغ ـ الدانيمارك
٨٤	〃 بدرسن	〃 〃
٨٥	〃 موجيك	فينا
٨٦	〃 ماهلر	بودابست
٨٧	〃 كرسيكو	كانتازولو ـ فنلاندة
٨٨	〃 فيليب حتي	اميركة ـ پرنستون
٨٩	〃 سعيد ابو جمرة	ساناباولو ـ البرازيل

أعضاء المجمع العلمي العربي الراحلون

١	الشيخ طاهر الجزائري	دمشق	٢٦	الاستاذ حسن بيهم	بيروت
٢	« سليم البخاري	«	٢٧	الأب لويس شيخو	«
٣	الاستاذ مسعود الكواكبي	«	٢٨	الشيخ عبد الله البستاني	«
٤	« الياس قدسي	«	٢٩	الاستاذ جبر ضومط	«
٥	« أنيس سلوم	«	٣٠	« عبد الباسط فتح الله	«
٦	« جميل العظم	«	٣١	الشيخ عبد الرحمن سلام	«
٧	« مالنجو	«	٣٢	« مصطفى الغلاييني	«
٨	« سليم عنحوري	«	٣٣	الاستاذ عمر الفاخوري	«
٩	« عبد الله رعد	«	٣٤	« بولس الخولي	«
١٠	« رشيد بقدونس	«	٣٥	« امين الريحاني	لبنان
١١	« اديب التقي	«	٣٦	الامير شكيب ارسلان	«
١٢	الشيخ عبد القادر المبارك	«	٣٧	الشيخ ابراهيم منذر	«
١٣	السيد محسن الأمين	«	٣٨	الاستاذ جرجي يني	طرابلس الشام
١٤	الاستاذ معروف الأرناؤط	«	٣٩	« نخلة زربق	القدس
١٥	الأب جرجس شلحت	حلب	٤٠	الشيخ خليل الخالدي	«
١٦	« جرجس منش	«	٤١	الاستاذ عبد الله مخلص	«
١٧	الاستاذ قسطاكي الحمصي	«	٤٢	« محمد اسعاف النشاشيبي	«
١٨	الشيخ كامل الغزي	«	٤٣	الشيخ سعيد الكرمي	طول كرم
١٩	الاستاذ ميخائيل الصقال	«	٤٤	الاستاذ محمود شكري الآلوسي	بغداد
٢٠	الشيخ بدر الدين النعساني	«	٤٥	« جميل صدقي الزهاوي	«
٢١	« راغب الطباخ	«	٤٦	« معروف الرصافي	«
٢٢	« عبد الحميد الجابري	«	٤٧	« طه الراوي	«
٢٣	الدكتور صالح قنباز	حماة	٤٨	الاب انستاس ماري الكرملي	«
٢٤	الشيخ سليمان احمد	اللاذقية	٤٩	الشيخ احمد الاسكندري	القاهرة
٢٥	الاستاذ ادوار مرقص	«			

٥٠	الاستاذ احمد زكي	القاهرة
٥١	〃 احمد شوقي	〃
٥٢	〃 حافظ ابراهيم	〃
٥٣	〃 اسعد خليل داغر	〃
٥٤	السيد محمد رشيد رضا	〃
٥٥	الاستاذ مصطفى صادق الرافعي	〃
٥٦	〃 احمد كمال	〃
٥٧	〃 احمد تيمور	〃
٥٨	〃 مصطفى لطفي المنفلوطي	〃
٥٩	الدكتور يعقوب صروف	〃
٦٠	الاستاذ اوجيفيو غريفيني	〃
٦١	〃 رفيق العظم	〃
٦٢	〃 داود بركات	〃
٦٣	الدكتور امين المعلوف	〃
٦٤	الشيخ عبد العزيز البشري	〃
٦٥	الدكتور احمد عيسى	〃
٦٦	الشيخ مصطفى عبد الرازق	〃
٦٧	الاستاذ انطون الجميل	〃
٦٨	〃 خليل مطران	〃
٦٩	〃 ابراهيم عبد القادر المازني	〃
٧٠	الأمير عمر طوسون	الاسكندرية
٧١	الشيخ محمد بن ابي شنب	الجزائر
٧٢	الاستاذ رينه باسه	〃
٧٣	〃 ميشو بللير	طنجة
٧٤	〃 زكي مغامز	الاستانة
٧٥	الحكيم محمد أجمل خان	الهند
٧٦	الاستاذ فران	باريس
٧٧	〃 كليمان هوار	〃
٧٨	〃 بوقا	〃
٧٩	〃 جويدي	ايطاليا
٨٠	〃 نللينو	〃
٨١	〃 هومل	المانيا
٨٢	〃 ساخاو	〃
٨٣	〃 هورروفيتز	〃
٨٤	〃 مارتين هارتمان	〃
٨٥	〃 ميتفوخ	〃
٨٦	〃 مونته	سويسرا
٨٧	〃 سنوك هوغرنيه	هولاندة
٨٨	〃 اراندونك	〃
٨٩	〃 هوتسما	〃
٩٠	〃 مرجليوث	انكلترا
٩١	〃 بفن	〃
٩٢	〃 براون	〃
٩٣	〃 بوهل	كوبنهاغ ـ الدانيمارك
٩٤	〃 اغناطيوس غولدصيهر	بودابست
٩٥	الشيخ ابو عبد الله الزنجاني	زنجان
٩٦	الاستاذ ماكدونالد	اميركا
٩٧	〃 هرزفلد	〃
٩٨	〃 آسين بلاسيوس	(مجريط) اسبانيا
٩٩	〃 لويس	(لشبونة) البرتغال
١٠٠	〃 موزل	تشكوسلوفاكية
١٠١	〃 كوفالسكي	بولونية
١٠٢	〃 كراتشكوفسكي	لينتغراد

تراكيب ومفردات غير فصيحة

من يستمع الى اذاعات المذياع ويتلو صحف الأخبار يسقط كل يوم على ألفاظ وتراكيب تكاد تكون جديدة لم يسبق القدماء استعمالها ولا عرفتها العربية فيما وصل الينا من دواوينها ومعجماتها وشعرها ونثرها . كلمات وتراكيب يستعملها بعض الكتاب وهي مرتجلة أو معربة عن اللغات الافرنجية تعريباً سقيماً فلا تلبث الصحف أن تتناقلها ، وربما سرت الى أقلام من كانوا على شيء من الفصاحة من دون أن ينتبهوا من أين أتتهم ، يستعملونها وهم لا يعرفون الا أن فلاناً من الصحافيين استعملها وهم لا يلزمون أن يبحثوا في أصلها لأن ذلك ليس من شأنهم .

ومما كثر استعماله : « وجهة نظر » تركيب افرنجي محض ترجمة : Son point de vue و « نظروا المسألة على ضوء ما لديهم من المعلومات » وهذا الضوء أيضاً مما سرى من لغة الافرنج ، وكذلك « مشبع بالاتفاق » . ومما كثر ترداده بأخرة « الامكانيات » ولعلها ترجمة Les possibilités الفرنسية كثرت كثرة زائدة كما كثرت منذ مدة لفظة « الميل والميلان » وهذه وان كانت عربية لكن الأذواق مجتها لكثرة ما استعملت في السياسة وفي غيرها من الموضوعات . وكلمة الامكانيات القبيحة كان الأولى اختيار صيغة أخرى للتعبير عن هذا المعنى فيقال : الامكان ، واللغة متسعة بفضل الله بألفاظها وتراكيبها على ما لا يكتب فيها بحسب اللغة من لغات العالم .

وقد وقع كثير من مثل هذا التركيب لا يحضرني منه الا « تربيوية » نسبة الى التربية ، نسبة تنافي القواعد وعلى سقمها سرت الى كتب التعليم المعتمدة في مدارس مصر والشام والعراق والسبب في سرايتها على ما أقدر ان أول من استعملها اعجمي عن اللغة حاول أن يتعرب ويعرب وكان على رأس بعض وزارات المعارف فحمي بمنصبه هذه اللفظة السمجة وما استطاع العارفون انكارها عليه

مخافة أن ينقم منهم . وهذا الرجل هو الذي اخترع ـ جزاه الله خيراً ـ لفظة القبتاريخية للتعبير عما قبل التاريخ .

ومن الجديد «لم يطلب أي شيء منه» ، «لم تكن له أية فرصة للعمل» ، وكلمة أي في هذا الموضع لم تعرف في كلام فصيح ويمكن اسقاطها ويصح المعنى بدونها ، «حول وضع فلان» ، «تحوم حوله الشبهات» ، و«يبحث حول المسألة» ، والأولى «في وضع فلان» ، و«يبحث في المسألة» وهي تغني عن هذا التركيب العجيب ونظنه من استعمالات الفرنج تعريب Autour de وليس من تراكيب الفصحاء في شيء . ومنها قولهم «هذا لا يصح اطلاقاً» لعلهم يقصدون مطلقاً وهذه كثرت في كلام المصريين . ومن جديدهم «يهدف الى» يقصدون يرمي الى أو يقصد الى ومعنى يهدف الى باللغة العربية يقرب ، وفي الأساس : يهدف الى الخمسين أي يقترب منها ، ومنه «التضحية» «ضحى بنفسه» تعريب Sacrifice و Se sacrifier وهما من تعابير الافرنج ، ومنها «كوسيلة لتحقيق المطالب» «كخبير مالي» ، «الاعتراض على اسمه كرجل» ، «لا أستطيع كرجل قانون» ، وكل هذه الكافات من مواضعات الفرنج يمكن الاستغناء عنها أو استعمال صيغ أخرى لا تخل بالمعنى المراد ، ولا يعمد الى هذه الصيغ التي ماشمت روح العربية . «المعروفين في حقول الأدب والمال» وهذه الحقول ما عهد استعمالها عند الفصحاء . «اشتعلت بلدة كذا ابتهاجاً بالحدث الجديد» من أسمج الاستعارات . «هائجة ضد شركة كذا» ، «الدعوى المرفوعة ضد النائب» والأولى هاج على ومرفوعة على . «قرار هام» و«حدث هام» وليس لهذا اللفظ أثر في اللغة على ما عرفنا والأولى أن يقال مهم . «الأمر الذي لا يتفق» والأولى : مما لا يتفق . «مدير عام مصلحة الحجر الصحي» الأولى مدير الحجر الصحي العام وهذه تكثر في عبارات المصريين ولفظة «مصلحة» لا أثر لها في اللغة بهذا المعنى والأولى أن يقال دائرة أو ديوان . «اتخذت الأمم المتحدة قرارات في صالح البلاد المستعمرة» وهذا الصالح غير صالحة في الاستعمال ، والأولى الاستعاضة عنها بمصلحة .

وشاع كثيراً هذا التركيب الجديد « وضع النقط على الحروف » والأصل فيه على حرف I وفي اللغة الافرنجية : Mettre les points sur les I أي وضع النقاط على حرف (I) أي أفصح بصورة صريحة ودقيقة معاً بحيث لم يترك سبيلاً الى الشك ٠

من السلطات المحدثة « بسبب ارتقاء رصيده من حوادث السرقة » استعارات بعيدة عن مناحي البلغاء ٠ « يدر عليه أرباحاً خيالية » ترجمة Fabuleux أي فاحشة لا تصدق ولفظة فاحشة أو مفرطة تقوم مقامها ٠ « يكون المجلس مشكلاً » الأولى مؤلفاً والتشكيل بهذا المعنى لم ترد في المعاجم ٠ « القضاء على أي حركة تهدف الى تقدم الافريقيين » الأولى اصلاح هذه الجملة هكذا : القضاء على كل حركة يقصد بها تقدم الافريقيين ، أو ما هذا معناه ٠ « يأمل بدوره تلبية هذه الدعوة » تركيب ما شم رائحة العربية ، « كان الجو مفعماً بروح الوطنية الديمقراطية الحقة التي أضفاها الرئيس بوداعته وبشاشته » واذا أريد إصلاح الجملة على المناحي العربية فيقال : تجلى ، بدون جو مفعم ، وبدل أضفاها أفاضها ٠ « ذلك العاقل دوماً » انها ترجمة حرفية Il est toujours sage وهي ترجمة رديئة ويستعاض عن « دوماً » بدائماً أو أبداً أو نحو ذلك ٠ « طريقة التقدمية » و « التقدمية » بشعة وان كان لفظ التقدم عربياً ٠ « نوعاً ما » ، « قريته الجديدة النموذجية » ، « ازدهرت البلاد صناعياً وتجارياً وزراعياً » ، « تؤمن ربحاً » أي تضمنه ٠ « كانت مرغوبة » أي مرغوباً فيها ، « تفكيراً جدياً » ، « تعمل جدياً » أي بجد ، « أخذ من الباقي وسطياً » ، « استدامة هذه النفقات » يريد دوامها ومعنى استدام حلق الطائر في الجو وهو غير المراد هنا ٠ « دوائر متضخمة بالموظفين » الأولى غاصة ، « كان معبياً اجتماعياً واقتصادياً » ، « حاز على » ، « الحائز على شهادة كذا » ، وحاز لا يتعدى بعلى فيقال حائز الشهادة ٠ الى غير ذلك ٠

هذا بعض ما يرتكبه كتاب لا يطلب منهم أن تخلو كتابتهم من كل عيب

وخصوصاً من يطلب منهم الاسراع في نقل أفكارهم وأفكار غيرهم من رجال الصحافة . ولكن مثل هذه الألفاظ سرت الى أقلام من وقع الاجماع على أنهم سادة رجال الأدب وسدنة هياكل البيان . أخذوها في الحداثة ولم يحسنوا التفلت من سلطانها بعد تمكنهم من الآداب . فتراهم يقولون « يلعب الشعر دوره » ، « يلعب موضوع الفكاهة دوره » ، « لعب دوراً كبيراً » ، « لعب البيان دوراً كبير الخطر » ، « هيأته للدور الذي لعبه » كأن اللغة ضاقت حتى يلجأ مثل هذا العالم الى لفظة الدور أو هذا التعبير الافرنجي المحض وعندنا عشرات من تعابيرنا ما تقابله به ويغنينا عن هذا التركيب الافرنجي .

وجاءنا السيد الكاتب بألفاظ افرنجية لها أيضاً ما يقابلها كقوله اللغات « الكلاسيكية » أي الأمهات او الراقية ، وقوله « السيكولوجي » و« البيداجوجي » الخ وكله مما لا يصعب عليه أن يورد ما يقابله من الفصحى .

أما بعد فقد كان العلامة الشيخ ابرهيم اليازجي عليه الرحمة من أول من انتبه من علماء اللغة المعاصرين الى ما يقع للصحف من هفوات لغوية في الألفاظ والتراكيب فكتب مقالات سماها « لغة الجرائد » ثم جعلها في كتاب برأسه فتداولته الأيدي وانتفع به الكتاب والمؤلفون . وتعاور هذا الموضوع علماء اللغة فنهم من أقرّ الشيخ اليازجي على رأيه في سقم بعض الألفاظ والتراكيب بجملتها ومنهم من نقد بعضها وخرّج لها التخاريج كما فعل صديقنا العلامة سليم الجندي . ولا أعرف اليوم غير مجلة واحدة تعاني هذا الموضوع اللغوي الجليل .

ويا حبذا لو تفضل بعض اخواننا من المعنيين بالبحث في اللغة وتمييز بهرجها من صحيحها وكتبوا لنا رسالة ثانية في لغة الجرائد لهذا العهد وما جد فيها من تراكيب وألفاظ . فاللغة عرضة أبداً لدخول الجديد عليها مما لم يعهد استعماله وسيطرد ذلك ما دام العلم يسير سيراً سريعاً والأفكار تتسع فتمس الحاجة الى التعبير عنها وتصويرها حتى تؤدي المراد منها . واللغات كسائر ما في الكائنات تنمو وتذبل وتحتاج في نموها الى جديد وفي ذبولها الى ما يستعاض عنه ويكون على نضرة وجميل أرج .

محمد كرد علي

بين الفصحى والعامية

كتب الاستاذ محمد زكي عبد القادر في جريدة « الأخبار » المصرية تحت عنوان « نحو النور » ما يأتي :

« كم أشفق على هؤلاء التلاميذ ، وهم في مطلع مرحلة التعليم الابتدائي ، حين نفرض عليهم حفظ كلمات عربية صحيحة ، يصعب علينا نحن الكبار حفظها ، واليك بعض الكلمات المقررة على تلاميذ السنة الثانية الابتدائية في مادة المحادثة العربية أنقلها من الكتاب المقرر لهم :

الكنة = البلكونة . الدريئة = البرافان . الكلة = الناموسية .
المشوش = الفوطة . السكردان = البوفيه . الثجاج = السيفون .
الصيهور = المطبقية . الناجود = البرميل . الانبج = المانجو .

وأنا حين أنقل اليك هذه الأسماء ، أريد أن أصور لك ما يعانيه هؤلاء الصغار .

عيسى متولي

وأنا أقول لك ولوزارة المعارف وللمجمع اللغوي انها جريمة في حق اللغة العربية وفي حق الأولاد وفي حق الأجيال القادمة أن نتمسك بهذا السخف ، ونصر على أن نجد لكل كلمة أوربية أو امريكية اسماً عربياً صحيحاً لا يأتيه الباطل من أمام ولا من خلف ...

ولست أعرف بأي عقلية تفكر ؟ .. ان كل اللغات دخلت عليها كلمات وعبارات من اللغات الأخرى . واللغة العربية نفسها ليست خالصة ، فان فيها عدداً كبيراً من الكلمات الفارسية والهندية وليس في هذا ما يشينها ، فانها سنة التطور ، وحاجة الارتباط والتبادل بين الشعوب .

واللغات كالحضارات والعادات والتقاليد وككل مظهر من مظاهر النشاط الانساني لا يمكن أن تقف بمعزل عن التيارات العالمية ، لا بد ان تعطي وتأخذ ، وتندمج في غيرها ويندمج غيرها فيها .

وقد أخذت اللغات الأوربية كثيراً من الألفاظ اللاتينية ، وتكاد ترتد جذور التعبير الانساني بالكلام الى أصول واحدة . واللغة وسيلة للتفاهم وليست حلية للتفاخر . وعلى قدر سهولتها ووضوحها وليونتها يكون ذيوعها وانتشارها ، فلماذا نحاول أن نعقد لغتنا ونجعلها أضحوكة بينا نحن الذين نتحدث بها ؟ لماذا نحاول أن نجعل كلمة « الكنة » بدلاً من البلكونة ، وكلمة « السكردان » بدل البوفيه ، وكلمة « الثجاج » بدل السيفون ... أيها أبسط وأسهل وأقرب تعبيراً عن المقصود المفهوم ؟ أم نريد أن نتحدث بالألغاز ؟

ثم هل يحسب المجمع اللغوي المحترم بأعضائه الأعلام أن استعمال الكلمات وذيوعها وانتشارها يمكن أن يتم بقرارات ؟ لم يبق الا أن يصدروا مراسيم ويفرضوا عقوبات .

اني أحرض علناً أولادنا تلاميذ المدارس الابتدائية على الكف عن هذا الهذر السخيف ، وأحرض علناً المدرسين الأفاضل أن يكفوا عن ازعاج التلاميذ وافساد ذوقهم بهذه الكلمات الثقيلة السمجة .

أحرض هؤلاء وهؤلاء لا كرهاً في اللغة العربية ، ولكن حباً لها واشفاقاً عليها ، أن تنمو كراهتها في نفوس الصبيان وهم يرونها تصر أن تسمي « السيفون » وهو لفظ رقيق باسم « الثجاج » وهو لفظ ثقيل ... سامح الله المجمع اللغوي ، ولكن لا سامح وزارة المعارف التي أقرت هذا السخف .

محمد زكي عبد القادر

وجاء في الجريدة نفسها بتعليق المعلق الأول ما يلي :

« اطلعت على كلمتكم الخاصة بتعريب الكلمات الأجنبية الى عبارات عربية يصعب على الصغار كما يصعب على الكبار استيعابها . وهذا الوضع خطأ كبير يرجع باللغة العربية الى الوراء . وأرى أن يتبع أولو الأمر في تعريب الكلمات الأجنبية ما يتفق مع ألفاظها الافرنجية . فهذا يرقى باللغة العربية الى مستوى اللغات الأخرى . وليس في ذلك بدعة فالقرآن الكريم نفسه يحوي عشرات

الكلمات الأعجمية عربها التنزيل ، كما أخذ الافرنج عن العرب كثيراً من ألفاظهم العربية الخاصة بالتشريع البحري وقت الحروب الصليبية . ويشهد بذلك علماء القانون البحري في أوربا ونذكر من ذلك على سبيل المثال كلمة Avarie بمعناها « عوار » و Amiral « أمير البحر » و Arsenal « دار صناعة » و Calphater « قلفتة » و Cable « حبل » و Corsaire « قراصنة » و Ancre « أنجر أي المرساة » . الى غير ذلك من الكلمات .

محمد كامل ملش

ترى هل يقتنع المجمع العلمي بهذا ويريح نفسه ويريحنا من هذا العبث الذى ينفق فيه الكثير من الوقت والجهد . ولست أعرف الاسبانية ، ولكنني حينما زرت مدريد في الشتاء الماضي وأنصتُ الى أحاديث الاسبانيين ، لاحظت أن لغتهم أخذت الكثير من الكلمات العربية . ولم تأخذ الكلمات فحسب ، بل أخذت أيضاً الكثير من التقاليد والعادات .

ان محاولتنا أن نعزل أنفسنا عن العالم محاولة تدل على ضيق الأفق ، وسوء التفكير .. ألا ينادي البعض اليوم بالعودة الى النظم التي كانت سائدة في عصور الاسلام الأولى ؟ أليست هذه ردة عجيبة في وقت يدعو فيه كل شيء للتحرر والتقدم ... وهؤلاء القائلون أنفسهم قد قدموا الدليل على أنهم لا يفهمون روح الاسلام ولا حكمة التشريع ، ولو رجعوا الى ما كان يجري في صدر الاسلام من قياس الأشياء بضروراتها ، ونسخ الأحكام ، وتيسير الأمر على الناس ، ولو وعوا أن الاسلام لم يقصد قط خلود حكم من الأحكام فيما عدا العبادات ، لأدركوا أي دين عظيم هذا الدين ، وأية شريعة سمحة هذه الشريعة .. ولكنهم بضيق التفكير وضآلة الفهم يجنون على الاسلام أعظم جناية ..

ليست اللغة اذن هي التي يصيبها شر الجامدين ، ولكنها أقدار البلاد ومصائرها أيضاً .. وقاها الله الشرين .

محمد زكي عبد القادر

هذا ما نشرته « الأخبار » وما نخال أن شفقة الناقد على صغار التلاميذ بفساد أذواقهم اذا استظهروا مثل هذه الكلمات الا شفقة في غير محلها ، ولم ندرك وجه الثقل في الألفاظ العربية وما كان ظاهر الخفة في المفردات الافرنجيـة ولا السر في تحسين هذه في ذوقه وتقبيح مرادفها من العربية .

وعندنا أن ذوق الطالب يستقيم اذا أكثر من تلقف ألفاظ عربية في دراسته الأولى فيألفها ذوقه وان رأى فيها شيئاً غريباً عنه ، يألفها أكثر من ألفاظ ما حبيت الى من حبيت اليه الا لاستحكام العامية فينا في معظم مظاهر الحياة ، على حين نزعم أننا دعاة تجدد وأباة جمود . وأغرب ما في الباب أن تصدر هذه النقدات من صاحب قلم ما زال مشرعاً في خدمة العروبة والمدنية .

وانا اذا اكتفينا بما ورثناه من عصر الانحطاط اللغوي من الألفاظ الفرنجية التي تسربت الى لغتنا على حين غفلة منا وتجافينا عن الأخذ باستعمال ما يضعه لنا مجمع اللغة العربية من الألفاظ فمعنى ذلك أننا ندعو جهرة الى زيادة نصيب العامية في كلامنا زيادة تخرجها مع الزمن عن جمالها واستقلالها فتصبح كلغة مالطة كل لفظة من لغة تخالف الأخرى . وعندها نندم لفتح الباب أكثر مما فتح للدخيل وتكثر الألفاظ الغريبة في لغتنا حتى تكاد لا تضبط ولا يوجب دخول ألفاظ من الفارسية والهندية في لغتنا قديماً ان نرحب اليوم بكل دخيل وهو يسري الينا بالألوف ، وهل من الحكمة أن نقرها كلها ولا نترك لأهل الرأي في اللغة أن يقروا الأصلح لسلامتها ودفع عادية الغريب عنها .

لا جرم أن الناقد الحصيف اذا أعاد نظره فيما كتب وتروى قليلاً في الرأي الذي سارع الى اصداره يشاطرنا رأينا في الاستعاضة عن الدخيل بما يسد مسده من لغتنا . وكنا نتوقع منه أن يثني على جهود مجمع اللغة العربية المصري في العناية بما أنشئ لأجله لسلامة اللغة ، لا أن يحمل عليه كما اعتادت بعض الصحف أن تضربه وتدميه منذ السنة الأولى لتأليفه مدفوعة بشهوة النقد أو من باب : خالف تعرف .

م . ك

فهرس الجزء الأول من المجلد الثامن والعشرين

صفحة

التعريف والنقد

آراء وأنباء

مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق

١ — محاضرات المجمع العلمي العربي (الجزء الأول)

٢ — نشوار المحاضرة للقاضي ابي علي المحسّن التنوخي (الجزء الثاني) بتحقيق المستشرق الأستاذ مرجليوث .

٣ — نشوار المحاضرة للقاضي ابي علي المحسّن التنوخي (الجزء الثامن) بتحقيق المستشرق الأستاذ مرجليوث

٤ — رسالة الملائكة لأبي العلاء المعري : بتحقيق الأستاذ محمد سليم الجندي

٥ — المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري : قدّم له الأستاذ خليل مردم بك

٦ — تاريخ حكماء الاسلام لظهير الدين البيهقي : بتحقيق الأستاذ محمد كرد علي

٧ — المستجاد من فعلات الأجواد للقاضي أبي علي المحسّن التنوخي : بتحقيق الأستاذ محمد كرد علي

٨ — كتاب الأشربة لابن قتيبة : بتحقيق الأستاذ محمد كرد علي

٩ — غوطة دمشق (الطبعة الأولى والثانية): تأليف الأستاذ محمد كرد علي

١٠ — كنوز الأجداد : تأليف الأستاذ محمد كرد علي .

١١ — ديوان الوليد بن يزيد : جمع وترتيب المستشرق الأستاذ ف. جبريالي. قدّم له الأستاذ خليل مردم بك

١٢ — ديوان ابن عنين : بتحقيق الأستاذ خليل مردم بك

١٣ — ديوان علي بن الجهم : حققه وجمع تكملته الأستاذ خليل مردم بك

١٤ — ديوان ابن حيّوس (الجزء الأول) بتحقيق الأستاذ خليل مردم بك .

١٥ — 〃 〃 〃 (الجزء الثاني) 〃 〃 〃 〃 〃

١٦ — ديوان الوأواء الدمشقي : بتحقيق الدكتور سامي الدهان

١٧ — تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (المجلدة الأولى) بتحقيق الأستاذ صلاح الدين المنجد .

١٨ — عثرات اللسان : تصنيف الأستاذ عبد القادر المغربي

١٩ — الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر النعيمي (الجزء الأول) :
بتحقيق الأمير جعفر الحسني
٢٠ — الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر النعيمي (الجزء الثاني) :
بتحقيق الأمير جعفر الحسني .
٢١ — الرسالة الجامعة المنسوبة للمجريطي (الجزء الأول): بتحقيق الدكتور جميل صليبا
٢٢ — « « « « (الجزء الثاني) « « « « «
٢٣ — الموفي في النحو الكوفي للسيد صدر الدين الكنغراوي الاستانبولي : شرح
وتعليق الأستاذ محمد بهجة البيطار .
٢٤ — طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب للسلطان الملك الأشرف عمر بن
يوسف بن رسول: بتحقيق المستشرق السويدي الأستاذ ك . و . سترستين
٢٥ — فضائل الشام ودمشق لأبي الحسن علي بن محمد الربعي : بتحقيق الأستاذ
صلاح الدين المنجد
٢٦ — تاريخ داريا للقاضي عبد الجبار الخولاني : بتحقيق الأستاذ سعيد الأفغاني
٢٧ — التبصر بالتجارة للجاحظ : بتحقيق الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب
٢٨ — فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (قسم التاريخ) وضعه
الدكتور يوسف العش
٢٩ — المنتقى من أخبار الأصمعي للإمام الربعي
٣٠ — تكملة إصلاح ما تغلط به العامة للجواليقي
٣١ — بحر العوام في ما أصاب فيه العوام لابن الحنبلي الحلبي
(٢٩–٣١) بتحقيق الأستاذ عز الدين التنوخي
٣٢ — الرسالة النباتية : للأمير مصطفى الشهابي
٣٣ — المسكرات ومضارها النفسية والاجتماعية : للدكتور أسعد الحكيم
٣٤ — الفيلسوف صدر الدين الشيرازي : أطروحة الأستاذ ابي عبد الله الزنجاني



١ نيسان سنة ١٩٥٣		١٧ شهر رجب سنة ١٣٧٢

محمد عبده

(١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥ م)

ولد محمد عبده سنة ١٢٦٦ هـ وأبوه عبده خير الله من سكان قرية «محلة نصر» بمركز شبراخيت من عمل البحيرة في مصر، وأمه السيدة جنينة. كان والده من صغار الفلاحين وبذكائه وحسن تدبيره ملك بأخرة اربعين فدانًا. وكان كريمًا يقري الضيوف ويؤوي الغرباء، وكانت منزلة أمه بين نساء القرية لا تقل عن منزلة زوجها، عرفت بذكاء الفؤاد، ورقة القلب، وبر المعوزين والبائسين.

تعلم محمد القراءة والكتابة في منزل والده وأتم حفظ القرآن على حافظ خاص في عامين ولما يتجاوز العاشرة. وأراد ابوه أن يتعلم ولده تجويد القرآن فأرسله الى الجامع الأحمدي بطنطا فقضى في تجويده سنتين، ثم بدأ في هذا المسجد بتلقي النحو فصرف في تعلمه سنة ونصف سنة فما أفلح، وعزم أن يترك طلب العلم ويرجع الى بلده يعمل في الزراعة لكن والده أدرك ما عليه ابنه من

الذكاء فلم يرض الا أن يعود الى الأخذ عن مشايخ طنطا ، فأطاع والده وأضمر الهرب وذهب يختفي عند خؤولة أبيه في « كنيسة اورين » من قرى شبراخيت .

ومن الغد جاءه أحد اخوال ابيه الشيخ درويش وكان على شيء من العلم يجيد حفظ القرآن وفهمه ويحفظ الموطأ وبعض كتب الحديث وينتحل التصوف ، فما زال بالفتى أياماً يقرأ له في كتاب تصوف ويشرح له حتى تألفه ورده الى حظيرة العلم « ولم يأت على الفتى اليوم الخامس من صحبة الشيخ الصوفي الا وقد انشرح صدره وأنست نفسه ، وانقلبت في عشرته قيم الأشياء ، فأصبح اللهو والزهو أبغض شيء اليه ، وأضحت المطالعة والمدارسة أحب شيء اليه » . وتزوج الشيخ وهو في السادسة عشرة وبعد أربعين يوماً أتت على زواجه أرسله أبوه الى القاهرة ليأخذ العلم في الأزهر . وكان من علمائه الجامدون ومنهم المتنورون في الجملة فآلى التلميذ على نفسه ألا يحضر درس من لا يفهم شرحه وتقريره . ولعل هذا التلميذ كان أول شيخ اعترض على طريقة مشايخ الأزهر في التدريس وظل على رأيه حتى أصلحها عندما بلغ أشده وأصبحت كلمته مسموعة .

كان الشيخ في المسامحة الصيفية يعود الى محلة نصر فيجد الشيخ درويشاً قد سبقه اليها فيأخذ في مدارسة الشاب ومحاسبته على ما حصل من العلوم ، ويحثه على النظر في المنطق والحساب . فاذا قال له الطالب هذه علوم لا تقرأ في الأزهر . قال له الشيخ : طالب العلم لا يعجز عن تحصيله في كل مكان . فيؤثر فيه بآرائه وارشاده .

قرأ الشيخ في الأزهر جميع الكتب المقررة في ثلاث سنين . ومضت سبع سنين رأى بعدها الشيخ الصوفي ان مريده كملت نفسه فأخذ يحثه على لقاء الناس ووعظهم ، وكان من قبل يشير اليه بالابتعاد عنهم ، فقال له بعد ذلك : الى متى هذه العزلة ؟ وما الفائدة من العلم ومن تحصيله اذا لم يكن لك نوراً تهتدي به ويهتدي به الناس ، ان من المكروه أن تستأثر بالفائدة دون أهل ملتك ،

وان من لم ينفع بما تعلم فقد أضاع أهم ثمرة تقصد من غراس النعمة ، فعليك أن تخالط الناس وتعظهم وترشدهم الى الطريق القويمة والسنة الصالحة » .

ودع المجاور الأزهري شيخه ومرشده في بعض السنين وبكى هذا بكاء شديداً ومات في السنة الثانية . وعاد محمد عبده الى القاهرة وفي نفسه أشياء من طريقة شيوخ الأزهر وشروحهم ومتونهم وحواشيهم وتقاريرهم على الشروح ، ورآها مما تضيع فيه الأعمار ولا ينتج عن تعليمها فائدة حتى قال : « كنت أسمع الشيخ وهو يدرّس فأحسبه يتكلم بلغة أجنبية » والطلاب يحفظون ما لا يفهمون وربما كان الأساتذة يلقون ما لا يصححون ولا يعلمون » .

وصف تلميذه الشيخ المراغي عصر محمد عبده وما فيه من انحطاط في السياسة والعلم والأخلاق فقال : « نشأ الشيخ في عصر من العصور القاتمة ، كل شيء فيه ممضّ مؤلم للنفوس الحرة والفطر الصادقة : الأمم الاسلامية تنحدر علمياً وسياسياً واجتماعياً الى أحط الدركات ، وليس لطالب الحرية العقلية بينها متنفّس ، والدين يفهمه الناس على غير وجهه ، واللغة العربية اختلطت بغيرها من لغات العجم ، والزلفى الى الله لها طرق لم يشرعها الله ، والزلفى الى الحكام لها طرق لا يرضاها ذو مروءة - ذهبت ريح المسلمين ، وتفلّت من أيديهم زمام الحياة العامة ، وتداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على القصاع ، وليسوا قلة بين الأمم ، ولكنهم كغثاء السيل .

« ذهب يتعلم فتعلم كما يتعلم غيره قواعد جافة ليس لها حياة تصلها بينابيعها من الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، ولا بأصولها من لغة العرب وأساليبهم وأدبهم ، وتعلم القواعد في مختصرات رضيها ذلك العصر المظلم ، لا تفهم الا بشروح وحواشي وصناعة خاصة ، فلا اللغة العربية بمسمدته على اجادة النظم والنثر والكتابة والخطابة ، وحاجة الحكومات والدول في التشريع والتنظيم ، ولا دراسة الكلام والمنطق بموصلة الى الاستدلال الصحيح الذي يطمئن اليه العاقل ، ويقنع الخصم

المحدث في الاجتهاد وتخير الأحكام لتطابق الأحكام حاجة العصر ، ولتلائم أصول الأمم وأحوال الأزمنة ، مبتدع مخالف لما أجمع عليه المحققون ، والداعي الى سيرة السلف الصالح داعٍ الى مخالفة سيرة العلماء المبرزين ، والداعي الى كتب الأولين مقصر عن فهم كتب المحققين المتأخرين ، والمنادي بأن كتب الفقه وكتب التفسير وكتب الحديث ملئت بمعلومات خاطئة ، وبأوهام وقصص لفقها من قبل علماء الاسرائيليات ، مخالف لما درج عليه صالحو هذه الأمة وجهابذتها .

«عاش الشيخ في هذه البيئة العلمية ضيق الصدر مرير العيش ، فمن من أصحاب الفطر الصادقة ، والنظر السليم ، يؤمن بالقرآن ويعتقد أن فيه هدياً وفيه شفاء ، وان شريعة محمد ﷺ عامة للأمم كلها وللعصور كلها ، يؤمن بأن هذه الدراسة الدينية والعربية تخرج للناس اماماً يهتدون بهديه ، ويشفي أمراض المجتمع في علمه وخلقه ونظامه ، ويضع له القوانين الصالحة والنظم اللائقة ؟» .

ثم قال : «عاملان من أقوى العوامل وقفا في طريق الشيخ ، عامل الحسد وعامل البيئة ، ومن المحال أن يوجد رجل كالشيخ في صفاته وعلمه لا يُحسد ، ولو أنه لم يُحسد ولو أنه لم يُرمَ بالكفر والضلال ، ولو أنه لم يشتد حساده ، ولم يُقاوم أشد المقاومة بسبب الحسد ، لما كان شيئاً يتحدث عنه ، ولما كان رجلاً من رجال التاريخ» .

قال وسبب ثالث له خطره «وهو بأن جهة من جهة ذات نفوذ (الخديوي) أظهرت عدم الرضا عن الشيخ وساعدت خصومه ، وأن جهة ذات نفوذ آخر (المحتلون) ساعدته وشدت أزره ، فظن القوم أنه رجل يريد افساد الدين وافساد العلم» ومن أشد مظاهر الحسد اذ ذاك ان عالماً من كبار العلماء كتب سلسلة مقالات في جريدة المؤيد يحرم فيها الحساب والجبر والهندسة والتاريخ في الأزهر ، لأن الشيخ كان أول المبشرين بتعليم هذه العلوم في الأزهر ، «وكاد العناد يكون كفراً» .

قال المراغي : ترك الشيخ بذور اصلاح التعليم الديني ، وتعليم علوم العربية ، وبذور اصلاح القضاء الشرعي ، وبذور اصلاح المجتمع الاسلامي والأمم الاسلامية ، وليس في رجال تفسير كتاب الله من يضارع الشيخ أو يقاربه في تطبيق آي القرآن على سنن الاجتماع ، وفي تصوير هدي القرآن ، وفي فهم أغراض الدين عامة . قال ودعته ليلة سفري الى السودان لتولي قضاء مديرية دنقلة (نوفمبر ١٩٠٤) فما قال لي : أنصحك أن تكون للناس مرشداً أكثر من أن تكون قاضياً ، واذا استطعت أن تحسم النزاع بين الناس بصلح فلا تعدل عنه الى الحكم ، فان الأحكام سلاح يقطع العلاقات بين الأسر ، والصلح دواء تلتئم به النفوس وتداوى به الجراح . قال وداعبني مرة اثر خروجي من امتحان شهادة العالمية قائلاً : هل تعرف تعريف العلم ؟ فقلت له : نعم ، وكنت أحفظ اذ ذاك أكثر تعاريف العلم ، فسردت بعضها ، فقال : اسمع مني تعريفاً مفيداً ، العلم هو ما ينفعك وينفع الناس . ثم سأل : هل انتفع الناس بعلمك ؟ قلت له : لا ، قال : اذاً أنت لست بعالم ، فانفع الناس بعلمك لتكون عالماً .

بقي محمد عبده في هذه البيئة العلمية المختلطة مضطرب البال حتى وافى مصر الامام جمال الدين الأفغاني سنة ١٨٦٩ ثم ذهب الى الاستانة وعاد الى القاهرة سنة ١٨٧١ فلازمه وتتلمذ له وقرأ الأفغاني لتلاميذه بعض الكتب العربية القديمة والكتب الأوربية المعربة في مختلف فروع الفلسفة والتصوف والتاريخ والسياسة والاجتماع فتفتحت عقولهم ومزقت حجب الأوهام عن عيونهم وأخذ يحثهم على الكتابة والخطابة . ولما قرأ محمد عبده «الحاشية على شرح العقائد العضدية» مال الى رأي المعتزلة دون رأي الأشاعرة فشاع ذلك في شيوخ الأزهر ، وفي يوم الامتحان لأخذ شهادة العالمية قاوموه مقاومة ظالمة ، ومنهم الشيخ عليش والشيخ الجيزاوي ، ومع أن رئيس لجنة الامتحان شيخ الأزهر يومئذ الشيخ العباسي ، وكان على جانب كبير من العلم وحب التجدد ، قال لأعضاء اللجنة

أثناء المداولة انه لم ير في حياته أحداً في ذكائه وتثبته من علمه ، وانه يستحق الدرجة الأولى ، بل لو كان فوقها درجة أعلى لاستحقها ، ومع ذلك لم تسمح اللجنة له الا بالدرجة الثانية وبعد ست وعشرين سنة من نيله شهادة العالمية ، عادت مشيخة الأزهر فصححت خطأها ونقلته الى الدرجة الأولى (١٩٠٤) .

ولم تحل درجات العالمية دون تدريس الشيخ في الأزهر وأكثر ما كان يدرس كتباً في المنطق والتوحيد والأخلاق . وفي أواخر سنة ١٨٧٨ عين مدرساً للتاريخ في « دار العلوم » ومدرساً للغة العربية في « مدرسة الألسن » وبعد قليل عزل عن التدريس في هاتين المدرستين على أن يقيم في قريته لا يبرحها الى الحواضر المصرية وذلك لتغيير خاطر أمير البلاد عليه ثم عفا عنه (١٨٨٠) وعين محرراً في جريدة « الوقائع المصرية » الرسمية ثم رئيس تحرير فيها فاستعان بقوة الحكومة على تحسين لغة الكتابة ولغة الجرائد ، وأخذت الجريدة الرسمية تخوض في موضوعات تثقف وتعلم فكان في هذه الصحيفة معلماً ومصلحاً ، نضى على الطريقة القديمة العقيمة في الانشاء وأبطل السجع والازدواج ، وعلّم الكتاب السلامة في التعبير وعدم التكلف .

كان الشيخ يرى في شخص رياض باشا رئيس الوزارة صورة حسنة لمستبد العادل « مستبد يكره المتناكرين على التعارف ، ويلجئ الأهل الى التراحم ، ويقهر الجيران على التناصف ، يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة ، ان لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة » .

وكان رياض يعاون الشيخ على مقاصده في الاصلاح ويستعين برأيه في بعض الشؤون . وسقطت وزارته بقيام الثورة العرابية ، وكان الشيخ يومئذ لا يقول بالثورة ويصرح ان الأمة غير مستعدة للحكم الدستوري وأن الواجب تعليمها وتهذيبها أولاً ويرى استشارة الأمة في بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات فقط تمهيداً لما يراد من تقييد الحكومة قال : « وليس من اللائق أن تفاجأ

البلاد يأمر قبل أن تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناشئ قبل بلوغ سن الرشد يفسد المال ويفضي الى المَلَكة» . وقال : «أخشى أن يجر هذا الشغب على البلاد احتلالاً أجنبياً يستدعي تسجيل اللعنة على مسببه الى يوم القيامة» .

واحتل الانكليز مصر وأرادوا القضاء على الحركة الوطنية وشلوا سلطة دار الندوة وعملوا على التفريق بين الخديوي والأمة فتحول حينئذ مقام عرابي من قائد جيش الى قائد مصر ، وحينئذ أصبح محمد عبده والبلاد المصرية قاطبة من أتباع احمد عرابي . ورأى الشيخ ما كان يراه كل وطني صادق ان واجبه يقتضيه أن يكون مع الأمة حيال الانكليز وعلى الخديوي الذي أصبح آلة في أيديهم ينفذون به أغراضهم . وأصبح الشيخ كما قال عميد الاحتلال روحاً مدبراً للحركة وأصبح العرابيون يلجأون اليه في كثير من أمورهم ، لا يبرمون أمراً دون استشارته . فكان موقفه من الثورة العرابية كما قال الرافعي المؤرخ : «موقف الوطني الذى يثور لكرامة البلاد واستقلالها فدافع عنها بكل ما لديه من حول وقوة واخلاص» .

اضطر الشيخ الى ركوب مراكب السياسة وما كان يود أن يدخل فيها ، زج فيها رغم ارادته ولذلك رأيناه يتخلى عن السياسة بعد أن صفا له الجو ولم يرض الدخول في غمارها بالفعل وانقلب معلماً ومرشداً ، أي انه شارك في السياسة بالقدر الذي أراده ثم نفض يده منها الا قليلاً .

ولما قبض على من عرف لهم أثر في الثورة كان الشيخ في جملتهم اتهموه بأنه أفتى بوجوب قتل الخديوي لخروجه على اجماع الأمة ، فغرّب من القطر المصري الى الشام ثلاث سنين ، ثم غادرها الى باريز لنشر مجلة «العروة الوثقى» مع صديقه وأستاذه السيد جمال الدين الأفغاني . وكانت العروة الوثقى جمعية سرية يقصد بها محاربة الاستعمار والمستعمرين وفي مقدمتهم الانكليز ، والغرض البعيد من الجمعية «اعادة الحكم الاسلامي وهداية الدين الى ما كان عليه من الطهارة والعدل

والكمال في العصر الأول ، بتأسيس حكومة اسلامية على قاعدة الخلافة الراشدة في الدين وما تقتضيه حالة العصر لمجد الاسلام في أمور الدنيا ، ويتبع هذا انقاذ المسلمين وغيرهم من الشرقيين من الاستعمار المذل لهم . وأما الغرض القريب فهو انقاذ مصر والسودان من الاحتلال » .

وضاق صدر المستعمرين من مقالات مجلة العروة الوثقى فمنع الانكليز دخولها الهند ومصر والسودان فلم تعش أكثر من ثمانية أشهر كانت مقالاتها ، ويكتبها محمد عبده بقلمه الساحر ويملي بعض آرائها السيد جمال الدين الأفغاني ، أشبه بدساتير للأمة اذا جرت على بعضها نجت مما هي فيه من الانحطاط ومن الذل الذي صارت اليه بفعل ملوكها وأمرائها وزعمائها . وذهب متنكراً من باريز الى تونس فمصر ثم عاد الى بيروت (١٨٨٥) واستدعي للتدريس في المدرسة السلطانية فوضع لها برنامجاً جديداً أخذ على عاتقه منه علوم التوحيد والمنطق والمعاني والانشاء والتاريخ الاسلامي والمعاملات من الفقه الحنفي وظهرت آثار تعاليمه في التلاميذ آخر السنة ، وأرشد المعلمين الى الطريق القويم في التدريس وتهذيب ملكات الطلاب وتثقيف أخلاقهم . وزار خلال ذلك بعض مدن الشام وأفاض على كل من لقيه غرفة من علمه وبيانه . وبورك له بوقته فعلق على كتاب « نهج البلاغة » وعلى « المقامات » للهمذاني وغير ذلك .

وعفي عن الشيخ فعاد الى وطنه فعين قاضياً في المحاكم الأهلية الابتدائية فقال حين سمع خبر تعيينه : ما خلقت لأكون قاضياً بل لأكون معلماً ، وقد جربت نفسي في التعليم فنجحت . وقيل ان عميد الاحتلال بعد مدة أراده على أن ينزع العمامة فيكون رئيس وزراء مصر فقال له : خلقت معلماً وأريد أن أموت معلماً . وترقى في القضاء حتى صار مستشاراً في محكمة الاستئناف ، وكان يود ألا يدخل فيه وينقطع الى التدريس مع انه كان يعلم أنه يرتقي في هذا السلك الى أعلى الدرجات وان مجال التدريس ضيق محدود وطلب ان يعود

الى مدرسة دار العلوم فأبى الخديوي أن يجيبه الى طلبه مخافة أن يلقن تلاميذه من أفكاره السياسية . ولما نصب الخديوي عباس على امارة مصر داخله الشيخ وأقنعه بضرورة اصلاح الأزهر ولكن دسائس شيوخه وغيرهم حالت دون انفاذ هذه الأمنية

وفي سنة ١٨٩٩ عين الشيخ مفتياً للديار المصرية فأصبح بحكم منصبه الجديد عضواً في مجلس ديوان الأوقاف الأعلى الذي أنشأه عميد الاحتلال للحد من تصرفات الخديوي في أموال الأوقاف ، وعين في الشهر الذي تولى فيه الافتاء عضواً في مجلس الشورى . ولم يلبث أن ظهرت المشادة بين الشيخ والخديوي فان هذا أراد أن يبدل مزرعة له بأراض للبناء في ضواحي الجيزة ووضع الثمن الذي راقه فأبى الديوان باشارة الشيخ الا أن تثمن أرض الخديوي وأرض الوقف ، فكان من ذلك أن خسر الخديوي خمسين الف جنيه ، وبذلك انتقلت العداوة التي نشأت بين مترجمنا والخديوي توفيق من أجل تقلبه في سياسته يوم الاحتلال الى ابنه عباس ، وظل هذا يحرض سفهاء الأفاقين على الشيخ ويحمل زبانيته من الجواسيس والكتاب على تسويد صحيفته في نظر الأمة ، ولكن الشيخ وجد له معتصماً من عميد الاحتلال فكان هذا ببعد نظره يدفع العوادي عنه ويوقيه غضب الأمير .

وكان أول ما ألم في ذهنه تفتيش المحاكم الشرعية ففتش كل أرجاء القطر ولم يدع محكمة مديرية او مركز الا شاهدها بنفسه وبحث أعمالها بحثاً دقيقاً ، وتعرف حال قاضيها من قوة أو ضعف ، وضبط العمل والاهمال فيه ، فوضع تقريره وصادف من وزارة العدل معاضدة على انفاذ أكثره ، فأخرج القضاء من دركات التدني التي كان غائصاً فيها . ثم استقال من ادارة الأزهر وظل على العناية بما يصلحه . ورضيت الحكومة أن تفتح مدرسة يتخرج فيها القضاة والكتاب والمحامون الشرعيون وبذلك أبقى للشريعة بعض بهائها الذي كان المشايخ الفقهاء السبب في ذهابه ، واضطرار الخديوي اسماعيل الى العمل بقوانين فرنسا

بعد أن اقترح على أهل الأزهر أن يؤلفوا كتاباً في الحقوق والعقوبات موافقاً لحال العصر فرفضوا لا تديناً بل عجزاً . ووضع لائحة لاصلاح المساجد ليكون أئمتها وخطباؤها من أهل العلم بالدين فعارضه الخديوي أيضاً لحنقه على الشيخ يوم عرض على الأوقاف استبدال أراضي البناء التابعة للأوقاف في الجيزة بمزرعة الخديوي المعروفة باسم مشتهر . قاوم الخديوي الشيخ في هذا المشروع أيضاً وغفل عن مصلحة المسلمين في تقريره وانفاذه وبذلك صح ما قاله ان مصيبة هذه الأمة بفساد أخلاقها أكبر من جميع مصائبها ، وقوله انه لم يعمل عملاً لمصلحة المسلمين ووجد له من يعارضه فيه من غير المسلمين ، لا من الافرنج ولا من القبط ، ولا من السوريين .

كانت طريقة الشيخ السير الى جانب الدين مع مراعاة أحوال الدنيا او تطبيق أمور العالم على الشريعة ولذلك كان في فتاويه يفتي على وجهين ، الوجه الأول : الفتوى الرسمية يتقيد فيها بمذهب الحنفي وغير الرسمية تختلف باختلاف طلب المستفتي فمن المستفتين من يسأل عن حكم الله تعالى «وعلى المفتي أن يجيبه بما يعلم من حكم الله تعالى في كتابه وما ثبت عنده من سنة رسوله ﷺ نصاً او اقتضاء» . وكانت عادة المفتين في مصر الوقوف عند حد فتاوى الحنفية ومذهب أبي حنيفة مذهب السلطان الذي كان يخفق علمه على القطر .

وكان للشيخ بحكم منصبه ما جعل منه أحسن أداة يستخدم في النهوض بالأمة شأن كل كفوء من الرجال لا يفلت من يده فرصة لنفع غيره . ومن ذلك انه لم يكتف باصلاح الأزهر واصلاح المحاكم الشرعية بل توفر مع أصحابه على انشاء جمعية سموها الجمعية الخيرية الاسلامية غرضها التعاون على تربية أولاد الفقراء والمساكين من المسلمين واعانة العاجزين منهم على الكسب . قال في احتفالها السنوي مرة : لم تنشأ الجمعية لأخذ الشهادات والاستعداد للوظائف بل من أهم مقاصدها أن تنزع من النفوس اعتقاد أن التعليم لا فائدة فيه الا

الاستخدام في الحكومة ، والجمعية توطن نفوس التلاميذ في مدارسها على أن يعمل الواحد منهم عمل أبيه باتقان ويعيش مع الناس بالأمانة والاستقامة ، فولد النجار يكون نجاراً ، وولد الحداد يكون حداداً ، وولد الفراش يكون فراشاً ، والتربية والتعليم يساعدان كلاً على اتقان عمله وصناعته فيكون اكثر كسباً لأنه أكثر اتقاناً للعمل مع الأمانة والاستقامة . وأصبح الشيخ في سنة ١٩٠٠ رئيساً للجمعية الى يوم وفاته ، فجمع لها من كرام المصريين أموالاً عظيمة ووقف عليها مزارع واراضي وأنتجت ما كان يعقد عليها أمله من الخير في تربية أبناء الفقراء تربية حرة طاهرة .

وهو الذي ألف شركة طبع الكتب فطبعت أسفاراً مفيدة واشترك في تصحيح عدة كتب قديمة ومنها المخصص لابن سيدة .

فطر الشيخ على بث العلم ، وكان معلماً في كل مكان دخله ، معلماً في الجريدة الرسمية ، ومعلماً في دار العلوم وفي مدرسة الألسنة ، ومعلماً كل يوم في دروسه في الأزهر منذ حداثته الى آخر أيامه ، ومعلماً في القضاء على اختلاف الدرجات التي تولاها ، ومعلماً في الافتاء وفي مجلس الأوقاف الأعلى وفي مجلس شورى القوانين وفي الجمعية الخيرية الاسلامية وفي غير ذلك من الأعمال بهمة تعلو على الهمم العالية . انتبه من نفسه الى فساد طريقة التعليم الأزهري وهو في العقد الثاني من عمره وظل طول حياته يحارب تدريس الحواشي والشروح والهوامش والتقارير ويقول ان أهل الأزهر يتعلمون كتباً لا علماً ، وغرامهم في حل عبارات المؤلفين والمهمشين والمحشين .

قاوم الجامدون من مشايخ الأزهر الشيخ وما كفوا عن مقاومتهم حتى أصبح غرة شاذخة في الاسلام وعندها خافوا على مناصبهم منه . فصانعوه وتألفوه .

قال له الشيخ البحيري مرة في مجلس ادارة الأزهر مدافعاً عن نفسه : « اننا نعلم الطلاب كما تعلمنا » . فقال الأستاذ : « وهذا الذي أخاف منه » .

قال البحيري مستنكراً : «ألم تتعلم انت في الأزهر وقد بلغت ما بلغت من مراقي العلم ، وصرت فيه العلم المفرد » . فأجاب الامام : « ان كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكره ، فانني لم أحصله الا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق به من وساخة الأزهر ، وهو الى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة » .

وشرح مرة طريقته في التدريس فقال ان الكتب لا تفيد القلوب العمي الا اذا صادفت قلوباً متيقظة عاقلة بوجه الحاجة اليها واذا وصل الى ايدي هؤلاء العلماء كتاب فيه غير ما يعلمون لا يعقلون المراد منه واذا عقلوا منه شيئاً يردونه ولا يقبلونه ، واذا قبلوه حرفوه الى ما يوافق علمهم ومشربهم .

قال ان الكلام المسموع يُؤثر في النفس اكثر مما يؤثر الكلام المقروء لأن نظر المتكلم وحركاته واشاراته ولهجته في الكلام ، كل ذلك يساعد على فهم مراده من كلامه ، وأيضاً يمكن السامع أن يسأل المتكلم عما يخفى عليه من كلامه ، فاذا كان مكتوباً فمن يسأل ؟ ان السامع يفهم ٨٠ في المائة من مراد المتكلم ، والقارئ لكلامه يفهم منه ٢٠ في المائة على ما اراد الكاتب . وعلى ذلك كنت أقرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الأزهر وبعض طلبة المدارس الأميرية ، وكنت أذكر كثيراً من الفوائد التي تحتاج اليها حالة العصر فما اهتم لها أحد فيما أعلم ، مع أنها كان من حقها ان تكتب ، وما علمت أحداً كتب منها شيئاً خلا تلميذين قبطيين من مدرسة الحقوق ، وكانا يراجعاني في بعض ما يكتبان وأما المسلمون فلا » .

وقال الأستاذ المراغي : كانت دروس الأستاذ كالغيث وكانت مثلاً عالياً في طريقة الالقاء والتفهيم وفي العبارات الفصيحة المتخيرة النافذة الى القلوب وكانت دائرة معارف يجد اللغوي فيها حاجته ، والفقيه رغبته ، والمتكلم بغيته ، ويجد علماء الاجتماع فيها تطبيق آي القرآن على معارفهم .

لم تترك واجبات المناصب وقتاً كافياً للأستاذ ينقطع فيه الى التعليم والتأليف واضطرته حالة الأمة الى الدخول في غمار الثورة العرابية وكذلك كان حاله بعد أن عاد الى مصر يتولى أعمال القضاء والافتاء · كان يكره السياسة ويقول انها ما دخلت في شيء الا أفسدته ، وفي كتابه الاسلام والنصرانية : « فان شئت أن تقول ان السياسة تضطهد الفكر أو العلم أو الدين فأنا معك من الشاهدين ، أعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ومن معنى السياسة ، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة ، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم او يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة ، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس » ·

وبعد فان تآليف الشيخ صغيرة الحجم جمة الفوائد وله تقارير في الاصلاح كان يقدمها الى الحكومة فتنفذها أو اكثرها ، وكتب أكثر ما كتب لدواع وبواعث دعته الى وضعها وما كان ينشرها الا بعد درس وتحقيق وبتمثلها في صدره أولاً شأنه في دروسه · نشأ نشأة صوفية على يد شيخه ونسيبه الشيخ درويش في قريته فكان من الطبيعي أن يكون اول تآليفه « الواردات » رجع عن بعض ما كان قرره فيها ، ورسالة في « وحدة الوجود » بين فيها مراتب الوجود وتعددها من وجوه نظامها العام ووحدتها من وجه آخر ، و « تاريخ اسماعيل » لم يطبع ، و « فلسفة الاجتماع والتاريخ » ، و « حاشية على عقائد الجلال الدواني » ، و « شرح نهج البلاغة » ، و « شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني » ، و « شرح البصائر النصيرية » ، و « نظام التربية والتعليم » ، و « رسالة التوحيد » ، و « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » ، و « تفسير سورة العصر » ، و « تفسير جزء عم » ، وأمتع تآليفه التي تجلى فيها علمه وبيانه « رسالة التوحيد » · هذا الى تقريره في اصلاح الأزهر وفي اصلاح المحاكم الشرعية ودفاعه عن الاسلام اذا طعن طاعن عليه ومنها ما كان ينشره في الصحف في آخر أيامه خلواً

من توقيعه أو يوعز الى خاصته ليكتبوا فكره ويقرهم عليه فينشرونه بأسمائهم .

حفلت حياة الشيخ بأمور كلها تدور على النهوض بالمسلمين وتثقيفهم ثقافة تجعل منهم أمة متحضرة ، ولذلك كان في بعض فتاويه يسير مع العقل ولا يحيد عن طريق السلف ، بدأ صوفياً وانتهى مجتهداً لا يقول الا بما يقول به علماء الظاهر أمثال الامامين ابن تيمية وابن قيم الجوزية . ولكم بورك له بساعات عمره ويحق ما وصفه قاسم أمين عندما قال : « يطالع ويتعلم ويعلم ويفتي ويجلس في جلسات مجلس شورى القوانين ومجلس الأوقاف الأعلى ويترأس على الجمعية الخيرية الاسلامية ويضع التشريعات للأزهر والمحاكم الشرعية ، ويمتحن طلبة العلم وتلامذة المدارس ويؤلف الرسائل الدينية وينشر المقالات الفلسفية ويدافع عن الدين اذا طعن عدو عليه ، ويراسل علماء المسلمين في جميع الأقطار التي يسكنونها ، ويفاوض رجال الحكومة لتنفيذ مقاصده . وكان مع كل ذلك يجد وقتاً ليزور أصحابه ويشاركهم في جميع أفراحهم وأتراحهم » ، قال انه وصل الى مقام الامامة بأوسع معانيها . وقالوا انه كان اذا دُعي الى حفلة عامة أو مأدبة خاصة وحالت صحته او قلة وقته دون الاجابة اليها يبعث بكتاب بقلمه فكان صاحب الدعوة بين عاملين في قبول دعوته او الظفر منه بكتاب اعتذار يقرؤه على أصدقائه وأهله ، وان فاته الاستمتاع بحديثه اذا حضر . وكان ما يكتبه في شكر المؤلفين الذين يهادونه بكتبهم سبباً في رواجها ، لأن الشيخ لا يقول جزافاً ، وكتبه من هذا القبيل كثيرة يتألف منها جزء لطيف .

حضرت دروسه في الرواق العباسي في الأزهر ، ومجالسه الخاصة في داره في عين شمس أو في دور بعض مريديه ، وسمعت بعض خطبه في الجمعية الخيرية الاسلامية فكنت أقول : سبحان من خصه من بين معاصريه ببلاغة اللسان وبلاغة القلم .

وصفه العلامة الشيخ ابرهيم اليازجي في مجلة «الضياء» بقوله : كان متوقد الفؤاد ، ثاقب البصيرة ، قوي الحجة ، ذرب اللسان ، بليغ العبارة ، اذا وقف للخطابة كان كأنما يتلو عن ظهر قلبه فلا يتوقف ولا يتلكأ ، ولا تجد في كلامه لفظة ركيكة ولا تركيبا سخيفاً ، حتى لو كتبت لفظه الذي يقوله على البداهة وجدته كأحسن ما ينشئ المترسلون من الفصحاء . وكان آية من آيات الله في قوة الحفظ وسرعة التناول حتى انه تعلم اللغة الفرنسوية وهو فوق الأربعين فلم يأت عليه الا أشهر حتى كان يجيد فهمها ، ثم كان يتكلم فيها كأحد أهلها ، ولم يرو مثل ذلك الا عن أستاذه السيد جمال الدين . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

كان الامام يتوخى في دروسه ألا تكون جافة اذا طال بحثه وتقريره فيشفعها في الحال بشيء من دعابته الحلوة يفرغ عليها من روحه الصافي ما يحبب الى النفوس الرجوع الى سماع ما يحاول القاءه عليهم من المسائل والمشاكل . وما حضرت له درساً ولا مجلساً ولا خطبة الا تمنيت لو يطول القاؤه أكثر مما طال ووددت ان أكون كلي آذاناً تسمع وقلوباً تعي وتفهم . وما شككت قط ان كل ساعة من ساعات حياته كانت نفعاً وخيراً ، وان كل من كتب له الاتصال به أفاد من علمه وتجاربه ونصائحه وهديه وتأثر به عقله وروحه .

عطف علي منذ تشرفت بالاجتماع اليه في القاهرة فقال في الملا من أصحابه انه قرأ ما كتبته الصحف في مشروع السكة الحجازية فما قدر جلالة الموضوع حتى نشرت في مجلة المقتطف مقالة فيه فاطلع فيها على ما لم يطلع عليه من قبل . فهيأ لي بهذه الشهادة سبيل التعرف الى طائفة من رجال مصر في العلم والقضاء والادارة والسياسة والأدب ، وهذا جل ما يتطلبه ناشئ مبتدئ من العون والتنويه .

قالوا ان الأستاذ تعلم اللغة الفرنسية وهو في الرابعة والأربعين لما اشتدت حاجته اليها أيام تقلد القضاء وشاهد رفاقه يستعينون في أحكامهم بالقانون الفرنسي

فما وسعه الا تعلم اللغة الفرنسية وأتقنها من دون كبير عناء في وقت قصير ، فكان يحضر في الصيف دروساً في هذه اللغة في كلية جنيف ويتمرن على الكلام فيها والفهم في السياحات وقد ساح في اوربا وافريقية وآسيا كثيراً . وأذكر أني صحبت أحد علماء المشرقيات من الألمان لزيارته في داره وكان الحديث بالفرنسية في موضوع التربية والتعليم فما غلط الأستاذ غلطة واحدة في الساعة التي قضيناها في حديثه وأبان عن بديهة مؤاتية دهش لها صاحبي الألماني وبقي أياماً يحدثني بأثر تلك الزيارة في نفسه .

ذكر السبب الذي دعاه الى تعلم الفرنسية قال : ثم ان الذي زادني تعلقاً بتعلم لغة اوربية هو اني وجدت انه لا يمكن لأحد أن يدعي انه على شيء من العلم يتمكن منه من خدمة امته ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي الا اذا كان يعرف لغة اوربية كيف لا وقد اصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوربيين في جميع اقطار الارض وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم او للخلاص من شر الأشرار منهم .
واخترع الأستاذ لنفسه طريقة تلقف اللغة الفرنسية فكان يتلو أمام استاذه قصة لاسكندر دوماس والمعلم يصلح له النطق ويفسر له الكلم ثم تعلم نحوها بالتدريج .

وكان الشيخ عملياً في تلقن العلم وتلقينه منذ حضر درس النحو في الجامع الأحمدي في طنطا وتأفف من طريقة تعليمه . كان في القضاء قاضي العدل والانصاف لا قاضي القانون والرسوم ، قال عن نفسه : « انني كثيراً ما أنظر في قضية فأستخرج من التحقيق الطويل وجوهاً كثيرة للحكم بالادانة مثلاً ، حتى اذا ما تمت المحاكمة وأردت النطق بالحكم تقوض كل ذلك البناء الذي كنت بنيته في ذهني من وجوه ترجيح الادانة وظهر لي بغتة أن المتهم بريء حقاً فأحكم بالبراءة » وكان يفضل أبداً ان يجري الصلح بين المتخاصمين حتى لا تتأصل العداوات بين الناس اذا فضت المحاكم الشجار بينهم .

كان الشيخ رأساً في كل ما عاني من أعمال المجتمع لا يلبث ان يظهر فضله الباهر في الأيام الأولى من توليه عملاً من الأعمال وتتخاذل قوة الأمراء والطغاة أمام عقله ، كان الخديوي عباس يبغضه لأنه لم يوافقه على مد يده الى الأوقاف ، ويشتد في مقاومته بكل ما تصل اليه قوته من ضروب المقاومة فاذا ما وقع في مأزق لا يتأخر عن دعوته لارشاده الى الطريق الواجب سلوكها علماً منه بسعة عقله وسعة علمه ، كان يبهج عليه العلماء والأدباء كل حين ويوم الجد لا يعتمد على غير رأيه وحكمه ، والشيخ بما عرف من كرم أخلاقه يتجاهل كل ما يصيبه من أذى مبغضه ٠

كان الشيخ كريماً يتصدق في السر وقد خص بعض اغاويچ المستورين برواتب يقبضونها من راتبه الكبير من الأوقاف وكان ينفقه كله في هذه الوجوه من البر ٠ كان نصير المظلومين والضعفاء ولطالما سعى لجلب الخير الى من كان يقذف فيه ويعاديه من دون سبب ، يقصد بذلك ان يعلمه ويعلم غيره كيف تكون الأخلاق الطاهرة وان هذا هدي الاسلام وطريقة صاحبه ٠

قيل انه نظم أبياتاً في مرضه الأخير أبان فيها عن غرضه من الحياة وهي :

ولست أبالي أن يقال محمد أبلَّ او اكتظت عليه المآتم
ولكن ديناً قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمائم
وللناس آمال يرجون نيلها اذا مت ماتت واضمحلت عزائم
فيا ربِّ ان قدرت رُجعى قريبة الى عالم الأرواح وانفضَّ خاتم
فبارك على الاسلام وارزقه مرشداً رشيداً يضيء النهج والليل قاتم

قالوا ان لسانه لم ينطلق بقول الشعر الا في آخر أيامه وفي الحبس لما سجن مع العرابيين ٠

أجاب الشيخ رجلاً من الشاميين هنأه بمنصب الافتاء ومما جاء في جوابه

يصف موقفه من الأمة المصرية : « أما قومي فأبعدهم مني أشدهم قرباً مني وما أبعد الانصاف منهم ، يظنون الظنون ، بل يتربصون بي ريب المنون ، تسرعاً منهم في الأحكام وذهاباً مع الأوهام ، وولعاً بكثرة الكلام ، وتلذذاً بلوك الملام ، أقول فلا يسمعون ، وأدعو فلا يستجيبون ، وأعمل فلا يهتدون ، وأريهم مصالحهم فلا يبصرون ، وأضع أيديهم عليها فلا يحسون ، بل يفرون الى حيث يهلكون ، شأنهم الصياح والعويل ، والصخب والتهويل حتى اذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل في مثلهم :

لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وان هانا

وأقول ولا من الخير .

« وانما مثلي فيهم مثل أخ جهله اخوته ، أو أب عقته ذريته ، او ابن لم يحن عليه أبواه وعمومته ، مع حاجة الجميع اليه ، وقيام عمدهم عليه ، يهدمون منافعهم بايذائه ، ولو شاءوا لاستبقوا باستبقائه ، وهو يسعى ويدأب ، ليطعم من يلهو ويلعب . على اني أحمد الله على الصبر وسعة الصدر اذا ضاق الأمر ، وقوة العزم وثبات الحلم ، وان كنت في خوف من حلول الأجل قبل بلوغ الأمل ، خصوصاً عندما أرى العمل في أرض ميتة لو ذابت عليها السماء مطراً ، لما أنبتت زرعاً ، ولا أطلعت شجراً ، أفزع لذكرى ذلك وأجزع ، ويكاد قلبي يتقطع ، ثم أرجع الى الله فأعلم انه مع الصابرين . وانه لا يضيع أجر العاملين ، فيثلج صدري وأمضي في جهادي الدائم ، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ...

« ليتني كنت أشكو الى الله جهل العالمين وحمق المتعلمين في مثل هذه الجاهلية التي بعث النبي لمحو أحكامها وازالة ايامها . تلك جاهلية كان الضلال فيها بعيداً ولكن كان فهم القوم جديداً لذلك عندما لاح لهم ضوء الهدى أبصروه ، وعندما قرع أسماعهم صوت الداعي أجابوه ، كان القرآن يصدع أفئدتهم فيلين من

شدتهم ، ويفلّ من شرّتهم ، ويفجر من صخر القسوة ينابيع الحنان والرحمة ، وما كان أهل العناد فيهم الا قليلاً عرفوا الحق فأنكروه ، وطائفة كانوا يفرون منه خوف ان يعرفوه ، ولو سمعوا لفهموا ثم لم يجدوا بداً من أن ينصروه . وان الجحود مع الفهم كاليقين مع العلم ، كلاهما قليل في بني آدم . أما اليوم فانما أشكو من قلة الفهم وضعف العقل ، واختلال نظام الادراك ، وفساد الشعور عند الخاصة ، فلا تجذبهم فصاحة ولا تبلغ منهم بلاغة ، وغاية ما يطلبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا ، وان يوصفوا بالعلم وان لم يعقلوا ، وان تقضى حاجاتهم اذا سألوا ، وان ترفع مكاناتهم وان تنزلوا ... »

وهذه من أجمل الصفحات التي كتبها الأستاذ الامام في النعي على قومه فساد الخلق والعناد على سماع الحق ولو كتب له أن يكتب كتاباً في حاضر المصريين لكان أجمل كتاب يصدر عن مثله .

رسم الأستاذ الامام ، وهو اللقب الذي أطلق عليه في أواخر أمره ، خطة لنفسه في الحياة منذ كان في العشر الثاني من عمره وبقي على تحقيقها لا يثنيه شيء عنها وما حاد عما رسم في الدرس والتدريس ولم يبرد غرامه بحمل النور الى العقول الى آخر ساعة ، وهذا قلما عهد في الشرق الاسلامي . ولا غرو ان اضطلع وحده بعمل مئات من أمثاله من المشايخ مجتمعين ذلك لأن أكثرهم يحصلون العلم ليعيشوا في الدنيا ويتولوا المناصب في الدول ، أما هو فتعلم العلم ومارسه لينفع به الناس في دينهم ودنياهم ، ويخرج من هذا الجسم المحنط ناشئة قوية تفيد الاسلام والمسلمين . كان مفرداً في أمته لم ينبغ فيها مثله منذ قرون ولعل القرون تتوالى حتى ينشأ رجل فذ من عياره يستوفي شروط الامامة وتعزف نفسه عن المطامع والمظاهر .

والسر في تفوقه على غيره انه كان من أول نشأته يستعمل عقله ويكره الجمود والمنجهية ، ويعرف وقته معرفة ثاقبة ويسير بما يلائمه وييسر على أمته . عرف ان الشريعة مرنة تصلح لكل زمان ومكان فانتفع ونفع بهذا الرأي ، وكان اذا جاءته المعضلات جرد لها من عقله مخارج لحلها بقانون الشريعة وقانون العقل معاً ، فقد سئل في ذبيحة النصارى فأحلها ، واستفتي في جواز لبس القبعة فأجازها ، وسئل في ايداع المال في صناديق التوفير فأفتى به . وفي تفسيره القرآن فسر أموراً غامضة لا يفهمها كل الناس وقربها من الأذهان فأقنع غير المتمتين كمسألة الجن والملائكة فسرها بما لم يسبق لمفسر على ما نظن . ومن قرأ دروس تفسيره يدرك انه عالم لا كالعلماء يقول أبداً : « لا امام سوى العقل » .

لم يخلف الامام مالاً تعيش به أسرته من بعده ، « عاش عظيماً فقيراً ومات فقيراً عظيماً » خلد اسماً يذكر بالاعجاب والتقديس كما ذكره الذاكرون .

محمد كرد علي

جزيرة العرب

قال صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي في الجزء الثامن والثلاثين من التذكرة قلت وقد أمرني المخدوم الناصري بنظم حد جزيرة العرب في شهر ربيع الآخر من شهور سنة خمسين وسبعمائة :

جزيرة هذه الأعراب حدت بحد علمه للحشر باق
فأما الطول عند محققيه فمن عدن الى ريف العراق
وساحل جدة ان سرت عرضاً لأطراف الشآم على اتفاق

بعض اسرار اللغة العربية

أو

تصويب لهجة من اللهجات العامية

للغة العامية جوانب مختلفة من البحوث . ومن طريفها أن العرب لم يورثونا ألفاظ لغتهم التي دونّاها في معاجمنا فقط . بل ورثونا أيضاً بعضاً من غرائزهم في تفريع الألفاظ . وتشقيق بعضها من بعض . فقلدناهم في طريقتهم هذه من دون شعور منا .

فالعرب بنابل من سلائقهم والأوضح أن نقول بسائق من غرائزهم يضعون أو يرتجلون فعلاً ثلاثياً سالماً كفعل (قطع) مثلاً ثم نجدهم يضعون أو يرتجلون بواسطة تلك الغريزة فعلاً ثلاثياً غير سالم بل هو مضاعف مشابه للاول (أي فعل قطع) في اللفظ والمعنى . مشابهةً تامةً حيناً أو مقاربةً حيناً آخر . فيقولون (قَطَّ) كما قالوا قطع . ومعنى (قط) هو معنى (قطع) . حذفوا لام الفعل وشدّدوا عينه . فلم يسر . فعلا (قطع وقط) في طريق الاستعمال متدايرين كفعلي (ضرب ونصر) مثلاً . بل متآخيين متعانقين .

وأي الفعلين المذكورين (قطع وقطّ) نطق به العرب أولاً ؟ أو هُدوا اليه أولاً ؟ .

لا بد أن يكون وقع بين فقهاء اللغة خلاف في ذلك شأنهم في معظم المسائل اللغوية . غير أن الأظهر ان يكون (قطع) هو الأصل لاعتبارات لا يسع المقام بسطها : أبينها أن تكون (قط) هي المختزلة من (قطع) تخفيفاً أو تسهيلاً أو تفادياً من طول الصيغة وامتداد الصوت بها .

وعلى غط (قطع وقط) جاءت أفعال كثيرة مدونة في معاجم اللغة أسرد منها ما مس بيالي عفواً :

١ — (قطع) : استطالوها فاختزلوها وقالوا (قط) .

٢ — (زلق) : 〃 〃 〃 (زل) .

٣ — (كدح) : 〃 〃 〃 (كد) .

٤ — (بتر) : 〃 〃 〃 (بت) .

٥ — (زحل) : 〃 〃 〃 (زح) .

(في كتب اللغة : زحل الرجل عن مكانه تنحى وزحه عن مكانه اذا نحاه عنه) .

٦ — (شخب) : استطالوها فاختزلوها وقالوا (شخ) .

(في كتب اللغة هما (أي الشخب والشخ) بمعنى واحد . ففي اللسان الشخ صوت اللبن اذا خرج من الضرع . وشخ ببوله مدّ به وصوّت . وشخب اللبنُ وكل مائع سال وجرى عند الحلب) .

٧ — (مرق) استطالوها فاختزلوها وقالوا (مرّ) .

٨ — (قَمَشَ) 〃 〃 〃 (قمْ) .

(في كتب اللغة (قمش) جمع القماش من هنا وهناك . والقماش فتات الأشياء المنثورة على وجه الأرض . و (قم) جمع القمامة بالمقمة أي المكنسة . قال الزمخشري : (وينادى بمكة على المكانس : المقمّ المقمّ : بتشديد الميم) .

٩ — (ألْحَفَ) : استطالوها فاختزلوها وقالوا (أَ حَّ) .

١٠ — (حَدَجَ) : 〃 〃 〃 (أَحَدَّ) .

(قال علماء اللغة (حدجه) ببصره اذا حدّق فيه النظر . ومنه قول بعض العقلاء (حدّث الناس ما حدجوك بأبصارهم) و (أحد) اليه النظر اذا بالغ في النظر اليه) .

١١ — (رَصَفَ) : استطالوها فاختزلوها وقالوا (رصّ) .

(في كتب اللغة رصه اذا ألصق بعضه ببعض . قال تعالى : (كأنهم بنيان مرصوص) ورصَفَ الحجارة في المسيل ضمّ بعضها الى بعض) ومنه الرصيف .

ما مر كله في الأفعال ومثال الأسماء (الصَرْد : البرد) . أرض صَرْد . يوم صَرْد . (الصِرّ) البرد . ريح صِرّ أي باردة . وكذا الشطء للنهر كالشاطئ . وقالوا الشطّ وجمعها شطوط . و (الحِرْح) . قالوا فيه (الحِرّ) بتعويض راء من الحاء وهو الأصل كما يفهم من المصباح . قال وقد يستعمل استعمال يد ودم من غير تعويض . أي من غير حاء ولا تشديد .

هذا ما وسعني التمثل به من تحويل العرب للفعل السالم الى فعل مضاعف اختزالاً أو تخفيفاً . ولا بد أن يصحب هذا التحويل أحياناً شيء من تغيير وتبديل : كأن يكون الفعل لازماً فيصبح متعدياً (كزَحَلَ) وزحَّ . أو ثلاثياً فيصبح رباعياً (كحَدَجَ) وأحدَّ . أو يكون معنى الفعل عاماً فيصبح خاصاً كقطع وقطّ الذي خصّوه بالقطع العَرْضي أو بقطع الشيء الصُلب . وكَرَقَ ومرّ فقد خصوا المروق بما كان مروره كالسهم في السرعة . وقَمَشَ وقمّ . خصوا الأول بما جلّ من القمات ولم يكن مستقذراً بينما هم يستعملون فعل (قَمّ) فيما دقّ من القمات واستُقذر غالباً . كفعل (كَنَسَ) .

أتيت بهذا التفريق بين فعلي (قَمَشَ وقَمّ) من عند نفسي . لما لاحظته في قولهم قماش البيت أي أمتعته المتفرقة فيه هنا وهناك ، وهي غير مستقذرة . ومنه جاء استعمالنا لكلمة القماش بمعنى الأثواب المنسوجة . لما أنها ستصبح قماشاً مبعثراً في جَنَبات البيت . وهكذا ترى العرب يحدثون بعض التغيير في بعض هذه الأفعال المضاعفة التي حولوها عن الفعل الثلاثي السالم .

⁂

وننتقل الآن الى اللغة العامية او اللهجة العامية . ونذكر طريقتها في بعض الأفعال السالمة والمضاعفة .

قلنا آنفاً إننا ورثنا من أسلافنا العرب الأفعال المذكورة الأصلية السالمة والفرعية المضاعفة وهي قَطَعَ وقَطَّ وبَتَرَ وبَتَّ وكَدَحَ وكَدَّ . وقد تكرر نطقنا بها واستعمالنا لها فأوحى لنا هذا التكرر والاستعمال الطويل طريقة أسلافنا أو غريزتهم فيما كان على مثالها من الأفعال حتى احداث التغيير والتبديل فيها .

هم قالوا زلق وكدح وقطع ثم ساقتهم غريزتهم الى استطالتها . فعدلوا عنها الى زلَّ وكدَّ وقطَّ .

هذه الغريزة نفسها انتقلت الينا من حيث لا نشعر وجعلتنا نحن العامة نستطيل صيغ بعض الأفعال السالمة الفصيحة فنحولها الى أفعال مضاعفة مولّدة أي غير موروثة عن العرب ولا يعرفونها . طبقَ ما فعلوا هم حتى احداث التغيير والتبديل فيها .

استطلنا فعل (تفل) فاختزلناه وقلنا (تَفَّ) . كما قالوا هم في بتر ، بتّ .

فعل (تفل) هو الفصيح المدون . أما فعل تفَّ الذي هو بمعنى (تفل) تماماً أي البصق الخفيف فدخيل مولد . ولدته الغريزة الموروثة المستقرة في طيات نفوسنا معشر العرب الخالفين . ولا يمكننا أن نعرف أول من هدته سليقته الى فعل (تفّ) . وانما نعرف أن شخصية الأمة المعنوية الخالفة نطقت به واهتدت اليه بغريزتها الموروثة عن أمة العرب السالفة .

وقد وقع لنا أربعة أفعال دخيلة من قبيل ما ذكرنا :

١ — (تفل) : استطالها العامة فاختزلوا منها (تفّ) .

٢ — (بَصِرَ به) : 〃 〃 〃 〃 (بَصَّ) .

(تستعمل العامة بصَّ بمعنى نظر الى الشيء ولا يوجد هذا المعنى لبصَّ في اللغة الفصحى وانما معناه فيها برق ولمع . تقول نظرت في الظلمة عيناً تبص أي تلمع . ولها بصيص أي لمعان .

٣ — (قحب) : استطالها العامة فاختزلوا منها (قحّ) .

وفعل (قحّ) قد نكون ولدناه وحاكينا به صوت السعال . على أن فعل (قحّب) نفسه قد يكون من محولات الصوت . أي من الأفعال التي حوكي فيها الصوت واستوحي لفظها منه . وهي كثيرة في اللغة كفعل (رنّ) مثلاً الذي قالوا انه محول من صوته أي صوت الرنين . .

(طمّر) : استطالها العامة فاختزلوا منها (طمّ) .

وفي كتب اللغة (طمر الشيء) دفنه وخبأه تحت التراب . والمطامير حفر تحفر في الأرض تخبأ فيها الحبوب . وعامتنا تقول (طمّ) الشيء بالمعنى نفسه . وليست (طمّ) في اللغة الفصحى بهذا المعنى أي معنى الطمر . وإنما تجيء بمعنى غمر الشيء بالماء وبمعنى ملأ الحفرة بالتراب ثم دكها وسواها . وطمت الجارية شعرها جزّته . ومنه المطمومات . فطم الشيء بمعنى دفنه تحت التراب من لغة العامة وهو محول من فعل طمر الفصيح .

هذه الأمثلة من الأفعال ومصادرها أما مثال الاسم فمنه قول العامة (نُصّ) في (نِصف) . فالأفعال الأربعة : (تفّ ، وبصّ ، وقحّ ، وطمّ) والاسم الأخير أعني (نصف ونص) من أعدل الشهود على أن العرب الخالفين الذين نسميهم عامة وعواماً ورثوا غريزة أسلافهم العرب فنطقوا بتلك الأفعال الأربعة وبالاسم (نصف) بعد أن حولوها عن أصولها تخفيفاً . واستعملوها مطمئنين الى حسن صنيعهم واثقين من أنهم فيه انما يجرون على مقياس قاس به أسلافهم .

ويحسن أن نعترف بأن لهذه الأفعال الأربعة المولدة ومثلها الاسم وهو (نص) المختزلة من نصف مزيةً على سائر الألفاظ العامية الأخرى لما أن تولدها أشبه بتولد كلمات اللغة الفصحى .

فلا غرو اذا عددناها وأمثالها من الفصيح وأثبتنا لها حقاً في الحياة وتدويناً في المعاجم اللغوية الجديدة عملاً بالقاعدة المأثورة : ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب .

ومما قاسته العامة على كلام العرب وتصرفت فيه تصرفهم في تحويل الفعل الصحيح الى مضاعف قولهم في جحمت النار أي اضطرمت جحّت النار لكن لا بمعنى اضطرمت واشتعلت بل بضدّ هذا المعنى فهم يريدون من جحّت خمدت وتحول جمرها الى فحم[1] .

ويشبه الإرث المذكور في مضاعف الفعل الثلاثي السالم ارث آخر ورثنا طريقته من العرب ولهذا الإرث علاقة (بالثنائية) التي يدعو اليه العلامة الأب مرمرجي : ذلك أن العرب يختزلون من الاسم الثلاثي اسماً ثنائياً بمعنى الأول بحذف حرف منه فيقولون في (يدي) يد وفي (دمو) دم وفي (ابو) أب . ثم هم أي العرب في لغاتهم أو قبائلهم يعودون (وكأنهم ندموا على ثلاثيتهم المطبوعة عليها لغتهم) فيعمدون الى هذه الثنائيات : (يد) (دم) (أب) فيشددون أواخرها فتصبح ثلاثية كما كانت في أصل وضعها . ويقولون يدّ (لغة في اليد كما في التاج ومثل له بقول الشاعر :

(فجازوهم بما فعلوا اليكم مجازاة القروم يداً بيدّ)

ويقولون دمّ بالتشديد (وهي لغة كما في مستدرك التاج) ويقولون أبّ بالتشديد (قال في المصباح وفي لغة قليلة تشدد الباء عوضاً عن المحذوف) .

هكذا كان يفعل العرب . وقد أخذنا نحن العرب المتأخرين نحذو حذو أسلافنا ونقلدهم في طريقتهم المذكورة من حيث لا نشعر . فقلنا في (قِحّة) من الوقاحة (قِحّة) بتشديد الحاء . وفي (جمّة) التي أصلها (جمو) جمّة بالتشديد أيضاً كأن سليقتنا تأبى الا الثلاثية كما كانت تأبى ذلك سليقة أسلافنا في بعض ألفاظ لغتهم .

وفي اللهجات العامية أسرار أخر ينبغي تتبعها ولا يحسن إغفالها .

المغربي

---

(١) جحت لهجة سورية ساحلية أما في دمشق فيقولون جحرت النار بزيادة راء .

الخزائن العامة في استانبول

وأشهر مخطوطاتها

العناية بالخزائن :

عُني العرب عناية كبيرة بالتأليف والتدوين والنقل والترجمة منذ فجر حضارتهم ، وأخذوا لذلك بجمع الكتب والأسفار ، وسهلت في أعينهم الرحلات الطويلة للحصول عليها ، حتى اجتمعت لديهم خزائن كثيرة كانت تغص بها الغرف والمقاصير حتى كانت تملؤها إلى السقوف .

وكان الخلفاء والأمراء والوزراء يشاركون العلماء هذا الاحساس فأسسوا دور الكتب العامة يختلف اليها المطالعون منذ القرن الثاني للهجرة . وقد وصف ابن النديم ما كانت تحويه هذه الدور ، وفهرس لبعضها ، ووصل الينا كتابه تعرفنا عناية القوم بالجمع والحفظ ، وعرفنا غرامهم بالخزائن وعشقهم الكتب .

ولم يكن العرب المغاربة في الأندلس أقل عناية من المشارقة بالكتب وارتياد الخزائن ، فكانت قرطبة تنافس بغداد ، وغرناطة تزهى بكثرة ما تملك منها في خزائنها العامة . وسرت عدوى الكتب في الأفراد فتسابقوا إلى اقتنائها . واستوى في ذلك العالم الفقير والجاهل الغني . فقد كان الأغنياء والموسرون يجدون من أسباب الفخر أن يقتنوا نسخة فريدة أو كتاباً نادراً ولو أن كثيراً منهم لم يكن يفقه شيئاً من أمر الكتب والنسخ .

واقتدت القاهرة بأختها بغداد وقرطبة نخصت جانباً كبيراً من نشاطها العلمي بجمع الكتب وعمارة الخزائن ، حتى لقد قدّر المقريزي وابن خلكان عددها

في بعض الخزائن بعشرات الآلاف - ولم يكن الشام متخلفاً في هذا الميدان وانما أنشأ المدارس ، وجعل فيها الخزائن ، وأغناها بنوادر الكتب .

ولكن هذه الخزائن جميعاً أصابها ما أصاب أصحابها من نكبات وخسائر على مدى الزمن ، فقد توالت الغارات وتتابعت الحروب ، واختلفت الدول ، فهدّ ذلك من جوانب النشاط الثقافي ، وفترت همم القوم ، وتهدّم من بنيانهم ما كان عامراً ، وتفرّق من ثروتهم ما كان مخزوناً ، فلتفتوا إلى معايشهم ، واقتصروا على تدبير حياتهم ، وانصرفوا عن لذة العلم الى النضال والكفاح ، لذلك أقوت المدارس وأقفرت الخزائن ، فسطت عليها التراب والأرضة ، وعبثت بها الأيدي وتقاذفها حب التجارة ، وأصبح أمر الكتب إلى قوامين لا يفقهون غناها ومديرين لا يعرفون عظمة مقتناها ، فتفرقت شذر مذر ، وسافر بعضها بعد فتح السلطان سليم الى الآستانة ، وحمل بعضها الآخر بعد حملة نابوليون الى باريز وبرلين ولندن وروما وفينا واكسفورد ولننغراد وليدن وتوبنگن وكوبنهاغ واپسالا .

وربما بيعت هذه المخطوطات النفيسة بدراهم معدودات ، أو أهديت كما تهدى الأثواب المزركشة والثياب المزخرفة ، فقد مات عنها جامعوها ، وقضى عنها واقفوها ، وليس للورثة علم بأمرها أو تقدير لثمنها . أما المخطوطات التي سافرت الى أوربا ، فقد اتخذت مكانها الجليل في عواصمها ، وخصّت بها الأيدي الرحيمة الشفيقة ، فعطفت عليها وأحبتها ووقفت منها موقف الميراث القومي ، فوضعتها للعلماء وأعلنت لهم أرقامها وأسماءها وأوصافها . وجعلتها في قصور عامرة ، ومتاحف فاخرة ، أو في قلب الجامعات ؛ فأصبحت تزهى كل حاضرة منها بما اقتنته من نوادر الجواهر ونفائس الذخائر من كتبنا العربية .

خزائن استانبول :

أما خزائن استانبول فقد تولتها السعادة واحتضنتها النعمى منذ فتوحات السلطان سليم الأول (١٥١٢ — ١٥١٩ م) ، واستيلاء جيوشه على الممالك المفتوحة

فجمعت خير ما فيها ، وساقت أسلابها الى عاصمة الملك . وقام العلماء بجمع المخطوطات العربية النادرة من عواصم العرب وحواضرهم وساقوها كذلك الى متاحف القسطنطينية وقصورها وجوامعها ومدارسها ارادة أن تصبح الأستانة قبلة العالم الاسلامي كله .

وتنافس السلاطين في اقتناء هذه النفائس وانشاء الخزائن فقام السلطان سليم والسلطان سليمان والفاتح بجمعها والعناية بها ، واقتدى بهم شيوخ الاسلام كفيض الله وولي الدين وعاشر وعارف حكمت ، وسار على خطتهم وزراؤهم مثل محمود باشا ، وأسرة كوپريلي ، وراغب باشا وعمومه حسين باشا ، وشهيد علي باشا ، وحذت حذوهم زوجات السلاطين والعلماء حتى كثرت أسماء دور الكتب ، وضلّ المراجع في التمييز بينها ومعرفة مكانها ، واختلفت عناوينها ، وتبدلت مساكنها ، فقلت الاستفادةُ مما فيها ووقف كثير دون الحصول على معلومات عنها .

والحق ان في هذا الخزائن أصول مخطوطات العالم العربيّ والغربيّ . ويندر أن يقع في العالم مخطوط لا أثر في خزانة من خزائن استانبول لأمه أو أصله أو مصدره أو نسخة جميلة صحيحة قديمة منه . فاذا حدث ذلك فمردّه الى ضياع كثير من هذه المخطوطات ، فقد اختلفت عليها أسباب السرقة والتلف ، وتناقلتها الأيدي المجرمة ، وأصابتها العوادي والحدثان من حريق وزلازل .

ولم تقع في اللغة العربية على كتاب يهدينا الى أماكن هذه الدور وما تحويه من أسماء الخزائن المختلفة(١) نرجع اليه فيسهّل علينا معرفة ما نريد في سرعة .

(١) جاء في مجلة المقتبس ج ٥ ص ١٠٦ ان العالم أحمد زكي باشا ق. كتب تقريرا بالعربية والتركية لتنظيم خزائن الكتب العامة في استانبول . ولو وصل الينا هذا التقرير لكان من ورائه خير لنا واصلاح لما قد تخطئ فيه من اسماء الخزائن وجامعها . وقد وقفنا على وصف دخوله الى طوبقبوسراي في كتاب الاستاذ فيليب طرازي « خزائن الكتب العربية في الخافقين » وفيه خص خزائن استانبول بست صفحات ٢٠١ - ٢٠٧ .

ويسر ، ويبين لنا ما آلت اليه حال هذه الخزائن ، ويصف ما استقرت عليه هذه الدور ، وإدارتها وطريقة الاستفادة منها .

ولقد خيل لكثير من العلماء أن دون الوصول الى هذه المخطوطات مصاعب ومشقات ، مع أنها في تنظيم جميل ، ويسر كبير ، وهي مفتحة الأبواب ، انتقلت خلال الحرب الأخيرة الى مخابئ أمينة في الأناضول ، كما انتقلت زميلاتها من برلين الى بيرون ، ومن لندن الى الضواحي ، ومن دار الكتب المصرية الى جبل المقطم ، ولكنها عادت كلها إلى قواعدها مع سكون العاصفة وهدوء المدافع .

وكانت هذه الخزائن موزعة قديماً في نيف وأربعين داراً ترتبط بوزارة الأوقاف كما هي الحال في الشام كلها . ثم ألحقت بوزارة المعارف ، وهذه وحدتها ، وجعلتها في خمسة عشر داراً ، ومنها ما جعل في قصور السلاطين والجوامع والمدارس والجامعة .

وقد زارها الأب شيخو سنة ١٩٠٤ [١] فقدر عددها بثلاثين ألفاً من المخطوطات ، وأنى له أن يقف على حقيقة احصائها ، ولم تكن في ذلك الحين سهلة الاكتناف ، فقد وقف أحمد زكي باشا بعد خمسة وعشرين عاماً دون أن يستطيع الدخول الى بعضها إلا « بفرمان شاهاني » فكتب يصف طوبقبو يومئذ [٢] :

« فيها خزانتان لا تزالان الى الآن : احداهما مشحونة بنفائس الكتب والدفاتر . والثانية مرصودة لتوالي الذخائر ونوادر الجواهر . فأما الأولى فكان محظوراً على الناس كلهم أن يدخلوها سوى أمير المؤمنين بحاشيته ورجال دولته في موسمين اثنين لا ثالث لهما : يوم الجلوس على العرش وليلة القدر .

أما الثانية فكان فيها ولا يزال ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ولكن الدخول لم يكن مباحاً إلا بارادة سنية » .

---

(١) انظر مجلة المشرق ١٠٦٤/٧ ، سنة ١٩٠٤ م .
(٢) مجلة الآثار الشرقية ٧١/٤ ، سنة ١٩٢٩ م .

ذلك ما حال دون معرفة هذه الخزائن وما ضمت وعدد ما فيها من الأسفار ٠ وقد دلّ إحصاء أخير لهذه المخطوطات الشرقية سنة ١٩٥١ انها تقرب من مئة وعشرين الف مخطوطة ٠

وهذه المخطوطات لايتسع لها مبنى واحد ، ويتعذر حشرها جميعها في مكان بعينه مخافة عوادي الدهر ومصائب الحروب ٠ ولولا ذلك لكان من الخير أن تجمع المخطوطات العربية كلها في بناية واحدة وتوزّع على أنواع العلوم فتجمع كتب التاريخ من الخزائن كلها في جناح واحد ، وترتب دواوين الشعر وكتب الأدب في جناح آخر ، وتجعل مراجع الفقه والسنن في جناح ثالث وهكذا ٠ ولكن فقر الأتراك بالرجال المعنيين بالعربية وقلة من يهتمون بالوقوف على مخطوطاتها دعا المفهرسين الى أن يعملوا في حذر وبطء ٠ ولا تظهر نتائج جهودهم الا في سنوات بعيدة إذا لم يعمل علماء العرب جنباً الى جنب في الافصاح عن هذه الكنوز والكشف عن مزايا هذه الخرائد ٠

فهارس الخزائن :

وما يزال الباحثون يعتمدون على الفهارس القديمة التي طبعتها نظارة المعارف بين سنة ١٣٠٠ — ١٣١٢ هـ في أربعين جزءاً ونيفاً ، بعناوين تركية وتعليقات بالتركية ومقدمات موجزة جداً ٠ فجاءت في هذه الدفاتر عناوين الكتب مشفوعة بذكر الأجزاء وأسماء المؤلفين على شكل قوائم ٠ وذكر في الملاحظات ما بالغلاف من زخرفة وما في الصحف من مداد ٠ فهي جرائد لاحصاء ما في هذه الخزائن ٠ وقد تجاوز في السطور والصفحات ذكر الكتب المخطوطة والمطبوعة ، واختلطت اللغات التركية والفارسية والعربية فلم تفرد فيها لغة عن لغة ومخطوط عن مطبوع مما يجعل الرجوع اليها عقيماً ٠ وليس هذا فقط فقد أصابها تصحيف وتحريف يعمّي على الباحث سبيل الاهتداء الى الصحيح ٠ ويبدو أن من صنع

هذه الدفاتر ممن لم يقفوا على أسرار هذه الصناعة ولم يتقنوا العربية ومصادرها اتقاناً يقربهم من الصواب . وقد سجل المفهرسون في سجلاتهم ما شاهدوه على ظهر المخطوطات من عناوين وأسماء ، بل نقلوا غالباً عن الورقة الأولى ما يحويه الكتاب س عنوان كتب بيد متأخرة أو جاهلة فارتكبوا بذلك خطأً فادحاً . وقد يكون على الورقة ما ليس في الكتاب ، فيقع في الشعر ما محله التاريخ ، ويقع في الفقه ما مكانه الأدب ، ناهيك بما أصاب الأسماء من أخطاء مطبعية فاحشة .

وهذه الفهارس على ضعفها وخطئها نافعة أشد النفع فهي وحدها عمادنا في معرفة محتويات الخزائن ، وهي وحدها كانت عوناً للعالم الكبير كارل بروكلمن في تاريخه عن الأدب العربي ؛ ففيها صواب كثير وخطأ لا بدّ منه ؛ ويحسن بنا أن نحتاط في قراءتها حتى تتم فهارسها العلمية .

قام عدد من علماء المشرقيات بزيارة هذه الخزائن فهالتهم كثرة الأخطاء وشدة التصحيف في الفهارس ونزلوا استانبول ، وعاشوا على مقربة من هذه الكتب ، ووقفوا أجمل أيامهم على تصفحها وقراءتها ووصفها . فأرادوا أن يعملوا لها ما عمل زملاؤهم لخزائن اوربا وحواضرها كبرلين ولندن وباريز ومدريد وتوبينگن وليدن وروما وكوبنهاغ ، يذكرون عدد الأوراق والسطور ، ويرسمون الأبعاد والحجوم ، ويسجلون فواتح النسخ وخواتيمها ثم يصفون النسخة وما تقلب عليها ؛ ويقربون أحياناً بينها وبين أخواتها من خزائن العالم .

وأكثر هؤلاء الباحثين فيما نعلم جاءوا من ألمانيا مدرسين ومعلمين فاهتموا بهذه النوادر والفرائد ، وكتبوا نتاج دراساتهم وبحوثهم في مجلات أوربا وصحفها بلغتهم ، ونشروها منذ خمسين عاماً وما يزالون ينشرون إلى اليوم في هذه المجلات ملاحظاتهم ودراساتهم لهذه المخطوطات .

ويصح أن تعتبر محاولاتهم نواة لفهرس عام علميّ منظم ، واذا ما جمع بعضها الى بعض - كوّنت جزءاً مهماً من فهرس المخطوطات التي لم توصف الى اليوم .
وهذا ما صنعناه ، فقد جمعنا مقالات هؤلاء العلماء من صحف مختلفة ، بعضها قديم نادر ، ومنها ما طبع خلال الحرب فأصبح نادراً . واستقصينا ما ظهر في هذه الخزائن فجاءت في سفر غير صغير ، حاولنا أن نظهر عليه قراء العربية ، وأن نشرك العلماء في السرور بهذه المعرفة ، وبخاصة من لا تصل يده الى هذه الصحف ، أو من يقف دون جمعها وفهمها وتفتر همته دون ترجمتها .

وأرى من الواجب هنا تزجية الثناء الكريم على المستشرق الأستاذ رشر O. Rescher فقد تفضل ودفع الينا نسخه الخاصة التي اقتطعها من الصحف القديمة ورجانا في تواضع علمي أن لا يذكر على منحته هذه ، ولكننا نأبى إلاّ أن نعلن فضل العالم على المتعلم والمحسن الى السائل .

وسنضم بحوث الأستاذ رشر الى مقالات غيره من المشتغلين بالشرقيات في وصف المخطوطات العربية ، ثم نذيّل ذلك بما وقعنا عليه من مخطوطات استانبول نصفها كما وصف المستشرقون أخواتها . وقبل أن نشرع في الترجمة نحب أن نصف حال هذه الدور ومواقعها من استانبول كما رأيناها منذ شهور ، ونذكر عدد مخطوطاتها وما تحويه من خزائن اجتمعت فيها ، معتمدين في ذلك على ما نشره الأستاذ يوسف شاخت Joseph Schacht في سنتي ١٩٢٧ و١٩٣٢ (١) من قوائم الخزائن كما رآها لذلك الزمن ؛ ناقلين عن الأستاذ مظفر گوكمن M. Gökman (٢) مدير خزانة بيازيد العمومية جداول الخزانات واحصاء

(1) Zeitschrift für Semiti-tik und vermandte Gebiete, Leipzig. 1927 Bd V, 288—293 ;Bd. VIII, 120—121.

(2) Istanbul Kütübhaneleri Rehberi, M. Gökman, Bayazit Umumi Kütüphane Müdürü, Istanbul 1951. 28 pages

المخطوطات في كل منها . فهو خبير في الموضوع . وعارف بجيرانه مديري الخزائن وما عندهم من كنوز .

مواقع الخزائن في استانبول

تقع جلّ الخزائن في القسم الغربي من استانبول أي في القسم الأوربي من القارة ، وتحتل الأماكن القديمة التاريخية كقصور السلاطين والجوامع الأثرية والمدارس . وكأنها تمتد من طرف البحر شرقاً إلى داخل المدينة غرباً ؛ لذلك سنعمد إلى وصفها متابعين سيرنا من الشرق الى الغرب ؛ في إيجاز يضطرنا اليه ضيق المجال . ولكننا لن نغفل عن الاشارة إلى محتوياتها وغناها حين نصف المخطوطات .

١ — طوبقبو سراي : تحتل هذه الخزانة أحد الأبنية الفخمة من سراي طوبقبو الشهير ، وقد حوّلته الدولة الى متحف أثري ؛ فخصت بمخلفات السلطان احمد الثالث وبغداد كوشكي وأمانت وغيرها ؛ وعدد المخطوطات الشرقية فيها يزيد على سبعة عشر الف مخطوطة وهي لم تفهرس الى اليوم في « دفاتر » مطبوعة شأن غيرها لأنها كانت محرّمة على الجمهور . ولكن السجلات الخطية معروضة يرجع اليها الباحث اليوم في معرفة الأرقام والأجزاء ؛ وهي تابعة لمدير المتحف ؛ وفيها خزنة ومناولون ، وتقع في مكان جميل في قلب الحدائق يجتاز اليها المطالع مسافةً غير قليلة تحت الأشجار في ممشى تجري طرقته سنابك الخيول وعربات السلاطين وشهد المجد والحكم .

٢ — أياصوفيا : وهي تقع على مسافة قريبة من الأولى ، في جامع أياصوفيا وهو اليوم متحف أيضاً شهد القدم والعظمة . والخزانة في قلب الجامع الى أقصى اليمين في غرف محاطة بسياج وأبواب من حديد . وهي تحوي ما يقرب من خمسة آلاف مخطوط ؛ لها فهرس مطبوع ومدير وخازنان يقومون بخدمة المطالع

وفيها مجموعة غنية من الكتب القديمة رائعة التجليد مزخرفة موشاة ، كتبت أكثرها بأقلام مؤلفيها ، وهي من مخلفات السلطان محمود الثاني والسلطان الفاتح وغيرهما .

٣ — كوپريلي : وتقع على مسافة غير بعيدة ، قد جعلت في مدرسة صغيرة تشرف على الشارع العام ، خلفتها أسرة كوپريلي ومحمد عاصم بك والسلطان احمد . وتبلغ عدد نسخها قرابة (٢٥٠٠) مخطوطة . ولها فهرس مطبوع ، وقاعة للمراجعة يحجب بينها وبين جدران الخزانة فاصل خشبي ، ولها خازن ومناول ، وفيها كتب قديمة نادرة

٤ — نور عثمانية : وتقع في الطرف الأيمن المقابل يصل بينهما شارع غير طويل . وهي في احدى غرف جامع نور عثمانية أنشأها السلطان عثمان الثالث سنة ١٧٥٥ م ، وفيها مخطوطات السلطان محمود الأول ، ويبلغ عدد ما فيها قرابة خمسة آلاف مخطوطة ولها خازن يقوم برعايتها وفهرس مطبوع قديم .

٥ — بيازيد : وهي الى الطرف الأيمن من ساحة بيازيد قبالة باب جامعة استانبول ؛ وتسمى المكتبة العمومية ، وفيها قرابة ثمانية آلاف مخطوط ، يرتادها المطالعون والطلبة لقربها من الجامعة ، يقرءون فيها كتبهم ويراجعون دروسهم ، وهي منظمة على طراز حديث ، تحجز فيها الأماكن ، وتتوفر فيها الفهارس على جزازات عملية وهي في ذلك شبيهة بجامعات الغرب . ويقوم على إدارتها عالم متخصص هو الأستاذ مظفر گوكمن M. gökman ، ويعاونه في مهمته عدد غير قليل من خزنة وموظفين .

٦ — وليّ الدين : الى الطرف الأيمن من جامع بيازيد بجوار المكتبة العمومية السابقة . وهي في غرفة متواضعة يزيد ما فيها على ثلاثة آلاف مخطوطة أكثرها

قديم ونفيس ولها خازن يقوم عليها ، وفيهـا خزانة شيخ الاسلام ولي الدين وجودة باشا وغيرهما .

٧ — جامعة استانبول : وهي خزانة حديثة في بناء مستقل يفصله عن الجامعة وقاعاتها شارع ضيق . وفي هذه الخزانة سبعة عشر الف مخطوطة كلها مفهرسة على جزازات لم يطبع منها إلا الجزء الأول فقط في المصاحف والقراءات [1] نشره مدير الخزانة العام الأستاذ فهمي أدهم قرهطاي ؛ وتحوي نفائس من مخطوطاتنا وفرائد من كتبنا بعضها حديث وأكثرها قديم نادر . ويقوم في البناء نفسه المعهد الشرقي لكلية الآداب بجامعة استانبول ويرأسه الأستاذ احمد آتش Ahmed Ates ، وهو يعنى بنشر الكتب القديمة والمخطوطات النافعة .

٨ — سليمانية : الى مقربة من خزانة الجامعة ، يفصل بينها وبين جامع السليمانية الشهير شارع عريض . وهي في مدرسة جميلة تجمعت فيها خزائن غنية تعد من أغنى خزائن استانبول وأعظمها ، وفيها أربع وعشرون خزانة قديمة ، يزيد عدد ما فيها على إحدى وثلاثين ألف مخطوطة فهي أهم خزائن تركيا . ولأكثر خزائنها فهارس مطبوعة ، وفيها قاعة صغيرة للمطالعة وموظفون يعملون ليل نهار في فهرسة المخطوطات على أسلوب علمي حديث يعاونهم في ذلك الأستاذ O. Rescher . ويرأسها الدكتور مصطفى كويمن Dr. Mustafa Köymen وفي هذه الخزانة أكبر آلة لتصوير المخطوطات .

٩ — عاطف افندي : وتقع خلف السليمانية ينحدر اليها الزائر في أزقة ضيقة ، وهي في مدرسة صغيرة لطيفة تحوي ما يقرب من ثلاثة آلاف مخطوط يديرها خازن ومناول ؛ وكتبها من مخلفات الدفتردار عاطف افندي ، وفيها نفائس وفرائد .

(1) Istanbul üniversitesi Kütüphanesi. Arapça Yazmalar Katalogu, Fehmi Edhem Karatay, Istanbul 1951, 136 pages.

١٠ – فاتح : تقع في الشمال الغربي من المدينة تجاور جامع الفاتح المشهور . وفيها ما يقرب من ستة آلاف مخطوط ، من مخلفات السلطان الفاتح ومحمود الثاني ، وفيها مدير وخازنان وغرفة ضيقة للمطالعة .

١١ – ملت : تقع غير بعيد عن الفاتح ، وبها ما يزيد على عشرة آلاف مخطوط ، تحوي أشهر الخزائن كفيض الله افندي وولي الدين جار الله ، پرتو باشا وعلي أميرى افندي وحكيم أوغلي علي باشا ، وأكثرها لم ينشر في فهارس مطبوعة ، وانما وضع على جزازات واضحة حسنة . ولها قاعة للمطالعة ومدير وخازن .

١٢ – مراد ملا : جعلت على مقربة من ملت ، وفيها من مخلفات السلطان عبد الحميد الأول وبعض شيوخ الاسلام نفائس الكتب ونوادرها ما يقرب عدده من خمسة آلاف مخطوطة . وفيها من يقوم بالفهرسة وخدمة الباحثين .

١٣ – راغب باشا : غربي بيازيد على الشارع العام في بناية لالهلي أسسها الوزير راغب باشا سنة ١٧٦١ م . وهي تحوي ما يقرب من ألفي مخطوطة أكثرها مفهرس معلوم .

***

ويسود في هذه الخزائن الهدوء والنظام وتبدو فيها النظافة والعناية ، ويرتادها الطلبة الدارسون لا يجدون غيرها لمراجعة بحوثهم . وقلما تقع فيها على باحث عن المخطوطات العربية لبعد القوم عن هذه اللغة ، وعزوفهم عن مباحثها ، وقلة تعلقهم بماضيها . فالمستعربون قلة في هذه الربوع ما نكاد نعرف من أساتيذهم فيها إلا الأستاذ مكرمين خليل والأستاذ فؤاد سوزكين والأستاذ أحمد آتش ، وقد تفضل هذا الأخير فرافقنا في أكثر هذه الرحلة فله علينا اليد البيضاء الواسعة .

بقي من هذه الخزائن العامة اثنتان هما خزانة سليم آغا بأيوب ، وخسرو باشا بأسكدار ، لم نستطع لضيق الوقت قراءة مافيها ومطالعة نفائسها . وعذرنا في هذا التقصير أن الطريق – كما ذكرنا – لم تعبد لنا في وصف هذه الخزائن بأسباب .

وكل ما نعرف عن هذه الخزائن مختارات و قوائم قام بنشرها واعلانها في الجمهور العربي أستاذنا الرئيس محمد كردعلي وشيوخنا في هذا الباب احمد تيمور باشا والشيخ طاهر الجزائري واحمد زكي باشا ؛ قرأناها في مجلات الهلال والمقتبس ومجلة المجمع العلمي العربي . وهي نوادر وفرائد جدا لو قام المخلصون من شبابنا في العمل لها والسعي لنشرها نشراً علمياً صحيحاً في مقدمات نافعة وفهارس واسعة وتعليقات وافية تعيد الى الأحفاد كنوز الأجداد ويكون من آثار الخلف ما يقف لآثار السلف ، ويعود للغة العربية سالف مجدها وقديم عزها فتستعيد مكانتها ويكتب لها البقاء والخلود .

وسنبسط في الجداول الآتية تفصيلاً لما أجملنا ، وتوضيحاً لما أوجزنا فنجعل في الجدول الأول قائمة بالدور الموجودة والى جانبها ما تحويه من خزائن ، مع ذكر عدد المخطوطات التي تحويها كل منها .

وفي الجدول الثاني رتبنا الخزئن الصغيرة على حروف الألفباء يرجع اليها المطالع ليعرف مكان وجودها من الدور العامة اليوم .

وجعلنا في الجدول الثالث قائمة الفهارس المنشورة حتى الآن ، لعل القارئ يعود اليها في معرفة ما يطلبه من مخطوطات ، ليقف على ما بقي منها طي الجزازات من غير فهرس منشور أو دفتر مطبوع .

وقد أغفلنا ذكر الخزائن التي تحوي مخطوطات شرقية وتندر فيها المخطوطات العربية العامة وهي خزانة البلدية وخزانة التركيات وخزانة المتحف ؛ كما ضربنا صفحاً عن الخزائن التي تحوي المطبوعات فقط .

وبعد انتهاء هذه الجداول نشرع في التعريف بالمخطوطات كما وصفها المستعربون من علماء المشرقيات خدمة للدارس الباحث . والله من وراء القصد .

* * *

الجدول الأول :

خزائن استانبول وعدد مخطوطاتها

(مرتبة على حروف الألفباء)

	عدد المخطوطات
ا — أياصوفيا [1] :	
(١) خزانة السلطان محمود	٤٨٦٣
(٢) سعد الدين المتقي	١١٣
(٣) لواقف مجهول	٢٢
ب — بيازيد (عمومية) [2] :	
(٤) من واقفين مختلفين	٦٧٨٧
(٥) حكيم اوغلي وادريس باشا	
(٦) عمر افندي (رئيس الأطباء)	
(٧) الطرابزوني (حسين افندي)	
(٨) مناسترلي (اسماعيل حقي)	
(٩) نامق بك ويزمي عالم سلطان	
(١٠) ثابت بك	
(١١) وزارة المعارف	
(١٢) محمد أشرف	
(١٣) حسن فهمي باشا	٦٠
(١٤) لطفي بك	١٧
(١٥) محمد ذهني أفندي	٥٠
(١٦) توفيق باشا	٥٣

(١) عنوانها : Sultanahmed, Ayasofya Müzesi

(٢) عنوانها : Beyazit Imaret cad. No 21

	عدد المخطوطات
(١٧) عارف بك المنزوي	١٣٠
(١٨) حافظ داود باشا	٣١
(١٩) علي حيدر أفندي	١٦
(٢٠) سليمان توفيق	١٧
(٢١) خليل شريف باشا	٩١
(٢٢) چركس (شيخ توفيق)	٢٩
(٢٣) ترناوه‌لي (محمد)	١٣
(٢٤) عبد النافع أفندي	١٩
(٢٥) قره مصطفى باشا	٤٨٣
(٢٦) ذهني باشا	٤
(٢٧) اسماعيل فني ارطغرل	١٠

جـ — جامعة استانبول [1] :

(٢٨) مختلفة (يلديز، خالص، صاحب ملاّ)	١٧٧٤٨

د — خسرو باشا [2] :

(٢٩) خسرو باشا	٤٩٨
(٣٠) بشير آغا	٢٠٠
(٣١) جامع أيوب	١٩٢
(٣٢) مهرشاه سلطان	٤٤٣
(٣٣) اسميخان سلطان	٤٣٨
(٣٤) حسن حسني باشا	٦٠

(١) عنوانها : Bayezit Süleymanie cad.

(٢) عنوانها : Eyüp Bostan Iskelesi No 7

	عدد المخطوطات
هـ — راغب باشا [١] :	
(٣٥) راغب باشا	١٥٠٣
(٣٦) توفيق يحيى (مدرسة)	٣٥٥
(٣٧) مصلّى (مدرسة)	٧٠
(٣٨) بكى مدرسة	٥٩
و — سليم آغا [٢] :	
(٣٩) حاج سليم آغا	١٢٣٩
(٤٠) هدائي افندي	٧٥٠
(٤١) هاشم باشا	١٠١
(٤٢) كانكش أمير خوجه	٦٩٥
(٤٣) يعقوب آغا	٣٠
(٤٤) حسين كاظم	٩
(٤٥) نورنبي سلطان	١٥٧
(٤٦) گولنش والدة سلطان	١٠١
ز — سليمانية [٣] :	
(٤٧) سليمانية	١٠٣٩
(٤٨) عموجه حسين باشا	٤٥٦
(٤٩) نظيف افندي	٤٧
(٥٠) عاشر افندي (شيخ الاسلام)	٤٧١

---

(١) عنوانها : Laleli Ordu Cad. No 225

(٢) عنوانها : üsküdar atlamatasi Cad. No 21

(٣) عنوانها : Elmaruf Mah Ayse Kadin Sok. No 35

	عدد المخطوطات
(٥١) مصطفى افندي	١٢٣٩
(٥٢) حميد افندي	٤٧٥
(٥٣) بغدادلي وهبي	١٥٥٧
(٥٤) بشير آغا	٥٩٤
(٥٥) عبد الله چلبي	٣٨٣
(٥٦) چورليلى علي باشا	١٤٣٦
(٥٧) داماد ابراهيم باشا	١١٥٢
(٥٨) دوكلي بابا	٢٦٧
(٥٩) اسعد افندي	٣٧٣٥
(٦٠) گولنش سلطان	٦٩
(٦١) حافظ احمد باشا	٣٦
(٦٢) حالت افندي	٨٣٤
(٦٣) قره چلبي حسام الدين	٣٦٣
(٦٤) أزميرلي اسماعيل حقي	١٨٠
(٦٥) قليج علي باشا	١٠٣٠
(٦٦) لالهلي	٣٨١٠
(٦٧) محمود افندي	٢٦٠٠
(٦٨) محمود باشا	٣٧٧
(٦٩) أزميرلي مصطفى افندي	٦٠
(٧٠) رستم باشا	١٦٣
(٧١) يوسف آغا	٣٧٢
(٧٢) جامع محمد آغا	١٦٦

	عدد المخطوطات
(٧٣) قاضي زاده محمد أفندي	٥٦٩
(٧٤) مسيح باشا	١١٣
(٧٥) نافذ باشا	١٥١٨
(٧٦) پرتو نيال	٣٣٥
(٧٧) صالحة خانم	١٠١
(٧٨) خوجه سيّد	١٧
(٧٩) سراز	١٠٠٨
(٨٠) سروبلي	٢٥٠
(٨١) شهيد علي باشا	٢٨٧٠
(٨٢) شاه زاده	١٢٠
(٨٣) والدة سلطان	٧٠
(٨٤) يكى جامع	١١٩٧
(٨٥) ترخان سلطان	٣٣٦
(٨٦) زهدي بك	١٤٣
ح — طوپقپو سراي [1] :	
(٨٧) روان كوشكي	٢٠١٨
(٨٨) خزينة	٢٠٢٢
(٨٩) بغداد كوشكي	٤٦٩
(٩٠) مدينة	٥٦٦
(٩١) أمانت	٣١٦٠

(١) عنوانها : Topkapi Saray.

	عدد المخطوطات
(٩٢) قوغوشلو	٢٠٧٠
(٩٣) احمد الثالث	٤٧٦٣
(٩٤) من خزائن مختلفة	٢٥٠٩
ط — عاطف افندي [1] :	
(٩٥) الدفتردار عاطف افندي	٢٦٨١
ي — فاتح [2] :	
(٩٦) فاتح (جامع)	٥١٥٢
(٩٧) حافظ كتب ابرهيم	٤٠٢
(٩٨) ترناوه‌لي محمد	٢٨٩
ك — كوپريلي [3] :	
(٩٩) كوپريلي محمد پاشا	١٦٠٨
(١٠٠) فاضل احمد پاشا	٣٨١
(١٠١) محمد عاصم بك	٥٥٦
(١٠٢) جامع سلطان أحمد	١٠٧
ل — مراد ملا [4] :	
(١٠٣) مراد ملا	١٨٤٥
(١٠٤) محمد عارف	٩٤

(١) عنوانها : Sehzadebasi, Vefa Cad. No 44
(٢) عنوانها : Fatih Kirmasti Mh. Cami
(٣) عنوانها : Divanyolu Cad.
(٤) عنوانها : Fatih, çarsamba. Murat molla Cad. 14

	عدد المخطوطات
(١٠٥) حميدية	١٥٠٢
(١٠٦) لالا اسماعيل افندي	٧٥٦
(١٠٧) حافظ مراد	١٠٥
(١٠٨) غاليبوليلى طاهر	٣٩
(١٠٩) دار المثنوى مراد	٤٩٣
م — ملّت [١] :	
(١١٠) فيض الله أفندي	٢١٩٨
(١١١) رشيد افندي	١١٧٨
(١١٢) ولي الدين جار الله	٢١٢٩
(١١٣) پرتو باشا	٦٨٧
(١١٤) علي أميري افندي	٣٣٧١
(١١٥) حكيم أوغلى علي باشا	٩٤٧
ن — نور عثمانية [٢] :	
(١١٦) نور عثمانية (محمود وبيرام باشا)	٤٩٤٨
س — ولي الدين [٣] :	
(١١٧) ولي الدين افندي	٣٢٣١
(١١٨) جودة باشا	٨٤
(١١٩) خالد بك	٦٦
(١٢٠) علي رضا أفندي	٢٥

* * *

(١) عنوانها : Fatih Macar Kardasler.No 85
(٢) عنوانها : Nuruosmaniye Camii avlusu
(٣) عنوانها : Bayazid Camii

الجدول الثاني :

الخزائن الخطية وأماكن وجودها اليوم

(مرتبة على حروف الألقاب)

اسم الخزانة قديماً		موقع الخزانة الآن
	(ا)	
ابرهيم حافظ كتب	—	فاتح
ابرهيم حقي باشا	—	جامعة استانبول
احسان افندي	—	سليم آغا
احمد الثالث	—	طوبقبو
أدريس باشا	—	يازيد (عمومية)
ازميرلي اسماعيل حقي	—	سليمانية
ازميرلي مصطفى افندي	—	〃
اسعد افندي	—	〃
اسعد بك (دكتور)	—	〃
اسماعيل آغا	—	〃
اسماعيل حقي بك	—	يازيد (عمومية)
اسماعيل فني أرطغرل	—	〃 〃
اسميخان سلطان	—	خسرو باشا
أمانت (خزينة)	—	طوبقبو
أمير خوجه كمانكش	—	سليم آغا
أياصوفيا	—	أياصوفيا
أيوب (جامع)	—	خسرو باشا
أيوب (سلطان)	—	〃 〃

اسم الخزانة قديماً		موقع الخزانة الآن
	(ب)	
پرتو باشا	—	ملّت
پرتو نيال	—	سليمانية
پزمي عالم سلطان	—	بيازيد (عمومية)
بشير آغا	—	خسرو باشا
بشير آغا	—	سليمانية
بغداد كوشكي	—	طوپقپو سراي
بيرام باشا	—	نور عثمانية
	(ت)	
ترخان سلطان	—	سليمانية
ترناوه‌لي (محمد افندي)	—	فاتح
توفيق باشا	—	بيازيد (عمومية)
توفيق بك	—	« «
توفيق يحيى (مدرسة)	—	راغب باشا
	(ث)	
ثابت بك	—	بيازيد (عمومية)
	(ج)	
چلبي عبد الله	—	سليمانية
جودة باشا	—	ولي الدين
چورليلي علي باشا	—	سليمانية

اسم الخزانة قديماً		موقع الخزانة الآن
	(ح)	
حافظ أحمد باشا	—	سليمانية
حافظ داود باشا	—	بيازيد (عمومية)
حالت افندي	—	سليمانية
حسام الدين قره چلبي	—	«
حسن حسني باشا	—	خسرو باشا
حسن فهمي باشا	—	بيازيد (عمومية)
حسين الطرابزوني	—	« «
حسين كاظم بك	—	سليم آغا
حفيد افندي	—	سليمانية
حكيم أوغلى	—	بيازيد (عمومية)
حكيم أوغلى علي باشا	—	ملت
حميدية	—	مراد ملا
حيدر	—	سليم آغا
	(خ)	
خالد بك	—	ولي الدين
خالص افندي	—	جامعة استانبول
خسرو باشا	—	خسرو باشا
خليل شريف باشا	—	بيازيد (عمومية)
خوجه سيد	—	مراد ملا
	(د)	
دار المثنوي شيخ مراد	—	مراد ملا

اسم الخزانة قديماً		موقع الخزانة الآن
داماد ابراهيم باشا	—	سليمانية
ديور كلي سليم	—	〃
دوكلي بابا	—	〃

(ذ)

ذهني باشا	—	بيازيد (عمومية)

(ر)

راغب باشا	—	راغب باشا
رستم باشا	—	سليمانية
رشيد أفندي	—	ملت
رضا باشا	—	جامعة استانبول
روان كوشكي	—	طوبقبو سراي

(ز)

زهدي بك	—	سليمانية

(س)

سراز	—	سليمانية
سرويلى	—	
سعد الدين مبتقى	—	أياصوفيا
سلطان أحمد (جامع)	—	كوپريلي
سليم آغا (حاج)	—	سليم آغا
سليمان توفيق بك	—	بيازيد (عمومية)

اسم الخزانة قديماً		موقع الخزانة الآن
سليمان سرّي أفندي	—	سليمانية
سليمانية	—	〃
(ش)		
شاه زاده	—	سليمانية
شهيد علي باشا	—	〃
شيخ مراد	—	مراد ملاّ
(ص)		
صاحب ملاّ	—	جامعة استانبول
صالحة خاتون	—	سليمانية
(ط)		
طاهر افندى (غاليپوليلي)	—	مراد ملاّ
طيفور آغا	—	فاتح جامعي
(ع)		
عارف بك	—	بيازيد (عمومية)
عارف بك المنزوي	—	〃 〃
عاشر افندي (شيخ الاسلام)	—	سليمانية
عاطف افندي (الدفتردار)	—	عاطف افندي
عبد النافع أفندي	—	بيازيد (عمومية)
عثمان آغا	—	سليمانية
علي اميري افندي	—	ملّت
علي باشا شهيد	—	سليمانية

اسم الخزانة قديماً		موقع الخزانة الآن
علي حيدر أفندي	—	بيازيد (عمومية)
علي رضا افندي	—	ولي الدين
عمر أفندي (رئيس الأطباء)	—	بيازيد (عمومية)
عموجه حسين باشا	—	سليمانية

(ف)

فاتح	—	فاتح (جامع)
فاضل أحمد باشا	—	كوپريلي
فوزي باشا	—	سليمانية
فيض الله أفندي	—	ملّت
فيض الله أفندي	—	مراد ملاّ

(ق)

قاضي زاده محمد	—	سليمانية
قره مصطفى باشا	—	بيازيد (عمومية)
قليج علي باشا	—	سليمانية
قوغوشلر	—	طوپقپوسراي
قيوجي مراد باشا	—	سليمانية

(ك)

كانكش أمير خوجه	—	سليم آغا
كوپريلي محمد باشا	—	كوپريلي
گولنش سلطان	—	سليمانية
گولنش والدة سلطان	—	سليم آغا

اسم الخزانة قديماً		موقع الخزانة الآن
	(ل)	
لالا اسماعيل أفندي	—	مراد ملاّ
لالەلي	—	سليمانية
لطفي بك	—	بيازيد (عمومية)
	(م)	
محمد أشرف بك	—	بيازيد (عمومية)
محمد آغا (جامع)	—	سليمانية
محمد ترناوەلي	—	بيازيد (عمومية)
محمد خميس	—	طوبقبو سراي
محمد ذهني بك	—	بيازيد (عمومية)
محمد عارف أفندي	—	مراد ملاّ
محمد عاصم بك	—	كوپريلي
محمد قاضي زاده	—	سليمانية
محمد وجيه باشا	—	مراد ملاّ
محمود أفندي	—	سليمانية
محمود باشا (مدرسة)	—	«
مدينة	—	طوبقبو سراي
مراد حافظ	—	مراد ملاّ
مراد ملاّ (قاضيعسكر)	—	« «
مسيح باشا	—	سليمانية
مصطفى افندي (رئيس الكتاب)	—	«
مصلّى (مدرسة)	—	راغب باشا
معارف (وزارة)	—	بيازيد (عمومية)

اسم الخزانة قديماً		موقع الخزانة الآن
مهرشاه سلطان	—	خسرو باشا
(ن)		
نافذ باشا	—	سليمانية
نامق بك	—	بيازيد (عمومية)
نظيف أفندي	—	سليمانية
نور بني سلطان	—	سليم آغا
نور عثمانية	—	نور عثمانية
(هـ)		
هاشم باشا	—	سليم آغا
هدائي افندي	—	〃 〃
(و)		
والدة سلطان	—	سليمانية
ولي الدين أفندي	—	ولي الدين
ولي الدين جار الله	—	ملت
وهبي أفندي بغدادلي	—	سليمانية
(ي)		
يحيى افندي	—	سليمانية
يعقوب آغا	—	سليم آغا
يكي جامع	—	سليمانية
يكي كتبخانة	—	طوبقبوسراي
يكي مدرسة	—	راغب باشا
يوسف آغا	—	سليمانية
يلديز	—	جامعة. استانبول

الجدول الثالث :

الفهارس المطبوعة لخزائن استانبول العامة

(مرتبة على حروف الهجاء)

اسم الخزانة [1]	تاريخ تأسيس الخزانة	سنة الطبع
١ — اسعد أفندي	١٢٦٢	—
٢ — أسميخان	٩٠٩	١٣١٠
٣ — أمير خوجه كمانكش	١١٣٥	١٣٠٠
٤ — أياصوفيا	١٢٥٠	١٣٠٤
٥ — أيوب (جامع)	—	١٣١١
٦ — بشير آغا (باب عالي)	١١٥٥	١٣٠٣
٧ — بشير آغا (أيوب)	—	١٣١٠
٨ — بيازيد	—	١٣٠٤
٩ — چلبي عبد الله أفندي	—	١٣١١
١٠ — چورليلي علي باشا	١١٢٠	١٣٠٣
١١ — حالت افندي	١٢٤٤	١٣١٢
١٢ — حكيم أوغلي علي باشا	١١٤٥	١٣١١
١٣ — حميدية	—	١٣٠٠
١٤ — خالد أفندي	—	١٣١٢
١٥ — خسرو باشا	١٢٥٥	—
١٦ — داماد ابرهيم باشا	—	١٣١٢
١٧ — داماد زاده قاضيعسكر مراد	١١٨٩	١٣١١

(١) نشرت هذه الفهارس بعنوان تركي وتلميقات تركية كما قلنا ، واكتفينا هنا بذكر اسم الخزانة قديماً كما على الغلاف مع ترك الاضافات التركية ، تقريباً لأذهان قراء العربية ، والتواريخ المذكورة هي بالهجرية .

اسم الخزانة	تاريخ تأسيس الخزانة	سنة الطبع
١٨ — دوكلي بابا	—	١٣١٠
١٩ — راغب باشا	١١٥٥	١٣١٠
٢٠ — مرويلي	—	١٣١١
٢١ — سليم آغا	١١٩٧	١٣١٠
٢٢ — سليمانية	١٢٨٠	١٣١٠
٢٣ — سليمية	١٢٢١	١٣١١
٢٤ — عاشر أفندي	١١٥٤	١٣٠٦
٢٥ — عاطف أفندي	١١٥٤	١٣١٠
٢٦ — عموجه حسين باشا	١١٦٨	١٣١٠
٢٧ — عمومية	—	—
٢٨ — فاتح	١١٥٥	—
٢٩ — فيض الله افندي وشيخ مراد	—	١٣١٠
٣٠ — قره چلبي زاده حسام الدين	—	١٣٠٠
٣١ — قره مصطفى ومصلى وحكيم أوغلي وقيوجي	—	١٣١٠
٣٢ — قليج علي باشا	—	١٣١١
٣٣ — كوپريلي زاده محمد باشا	—	—
٣٤ — لالهلي	١٢١٧	١٣١١
٣٥ — محمد آغا وأسعد افندي ويني مدرسة	—	١٣١٠
٣٦ — محمود باشا ورستم باشا	—	١٣١١
٣٧ — مهرشاه سلطان	١٢١٠	١٣١٠
٣٨ — نور عثمانية	١٢١١	—
٣٩ والدة سلطان	١٢١١	—
٤٠ — ولي الدين	١١٧٥	١٣٠٤
٤١ — يكي جامع	—	—
٤٢ — يحيى أفندي	—	١٣١٠

دمشق : الدكتور سامي الدهان

من كتاب

الأشباه والنظائر للخالديّين (*)

[ص ١١٧ : تناحر الشعراء في شعر العوام بن عقبة]

قال العوّام بن عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سلمى (١) :

(١) وخُبّرتُ ليلى بالعراق مريضةً   فأقبلتُ من مصرٍ اليها أعودُها

هذا البيت تناحر (٢) الشعراء فيه ،

(*) تابع لما نشر في الجزء الرابع من المجلد ٢٦ والجزء الاول من المجلد ٢٧ من هذه المجلة .

(١) القائل هو العوّام ، انظر المرزباني ٣٠١ واللالي ٣٧٣ : لا ابو العوّام كما ورد في البصرية ١٨٤ والعيني ٤/٤٥٧ ولعل منشأ هذا الوهم ان عقبة والعوام كليهما علقا بامرأة واحدة على التوالي (انظر شرح الحماسة ٦٢٠) وقد خلط القالي ٤٣/١ وغيره بين أبيات من شعر ابن الدمينة وابيات من شعر الحسين بن مطير وابيات مجهولة كما نبه على ذلك البكري في اللآلي ١٧٨ — ١٧٩ والتنبيه ٣١ وقد روى بعض الأبيات لكثيّر أيضاً كما نبه عليه صاحب البصرية ، ولعل في اشارة الخالديين الى « تناحر الشعراء » دليلاً على ان الأبيات التالية ليست للعوّام وحده ، ومما لا شك فيه ان الأبيات ١ — ٤ و ١٦ للعوام [الحماسة ٦٢٠ واللآلي ٣٧٤ والمرزباني ٣٠١ وشذ ورود الاولين في د المجنون ٢٧] والأبيات ٧ و ١٠ و ١٧ و ١٨ للحسين بن مطير [الحماسة ٥٤٣ و ٥٩٧ والتالي ١٦٥/١ — انظر اللآلي ٤٣٥ — والطبقات لابن المعتز ص ٤٨ وللمرتضى ٩٠/٢ والحصري ١١٧/٤ ومجموعة المعاني ١٤٦ والزجاجي ١٢٤] والبيتان ١١ و ١٢ لكثير [غ ٨٦/٧ - ٨٧ و ٣٩/٩ والكامل ٣٨٥ والعقد ١٢١/٤ و د كثير ٧١/١] اما الأبيات ٥ و ١٣ و ١٤ فقد ثبتت في د ابن الدمينة ٤٣ والبيت ٦ مضافاً الى البيتين ١٣ و ١٤ له عند الخالديين ايضاً فيما بعد ص ١٧٦ .

(٢) ا « سادر » ؛ ب « تناظر » . والتناحر التتابع على الطريق وغيره وهو مجاز ، كذا في التاج .

(٢) فو الله ما أدري اذا أنا جئتها ... أأبرئها من دائها أم [١] أزيدها

(٣) ألا ليت شعري هل تغير بعدنا ... ملاحة عيني أم يحيى وجيدها

(٤) وهل أخلقت أثوابها بعد جدة ... ألا حبذا خلقانها وجديدها

(٥) خليلي قوما بالعمامة واعصبا ... على كبد لم يبق الا عميدها [٢]

(٦) ولن يلبث الواشون ان يصدعوا العصا ... اذا لم يكن صلباً على البري [٣] عودها

(٧) لقد كنت جلداً قبل أن توقد النوى ... على كبدي ناراً بطيئاً خمودها

(٨) ولو تركت نار الهوى لتضرمت [٤] ... ولكن شوقاً كل يوم يزيدها

(٩) وقد كنت أرجو أن تموت صبابتي ... اذا قدمت آياتها [٥] وعهودها

(١٠) فقد جعلت في حبة القلب والحشا ... عهاد الهوى تولى بشوق يزيدها

(١١) وكنت اذا ما جئت ليلى أزورها ... أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها

(١٢) من الخفرات البيض ود جليسها ، ... اذا ما قضت أحدوثة ، لو تعيدها

(١٣) خليلي اني اليوم شاك اليكما ... وهل تنفع الشكوى الى من يزيدها

(١٤) حزازات شوق في الفؤاد وعبرة ... أظل بأطراف البنان أذودها

(١٥) وتحت مجال الدمع حر [٦] بلابل ... من الشوق لا يدعى لخطب وليدها [٧]

(١٦) نظرت اليها نظرة ما يسرني ... بها حمر أنعام البلاد وسودها

(١٧) اذا جئتها وسط النساء منحتها ... صدوداً كأن النفس ليس [٨] تريدها

---

(١) م « أو » .

(٢) روي للمجنون – د ٣٩ – :

خليلي قوما بالعمامة فاعصبا ... على كبد لم يبق الا رميمها

(٣) ب ا « الرأي » .

(٤) ب « لتصرمت » ومنهيان الشعراء انظر اللآلي ٤٣٥ .

(٥) الرواية « أيامها » .

(٦) ا « جر » .

(٧) يقال : هذا امر لا ينادى وليده ، يضرب في الخير والشر .

(٨) كذا والرواية « ليست » وفي البصرية « كأن القلب ليس يريدها » .

(١٨) ولي نظرة بعدَ الصدود من الجوى كنظرة ثكلى قد أُصيبَ وحيدُها
(١٩) وفعتُ[(١)] عن الدنيا المنى غيرَ وجهها فلا أسأل الدنيا ولا أستزيدها

هذه الأبيات من جيد غزل الأعراب ونادره ، وفيها أشياء لها نظائر نحن نذكر بعضها ، فمن ذلك قوله : «وقد كنت أرجو أن تموت صبابتي» البيت وقوله : «فقد جعلت في حبة القلب والحشا» البيت وهذا المعنى جيد ، يقول : كنت أرجو أن تذهب صبابتي اذا تطاولت الأيام ، فلما اشتدت وتطاولت زادت صبابتي ، وشبيه بهذا قول الشاعر وهو عبيد الله بن عبد الله بن طاهر [(٢)] :

(١) م « دفعت » .
(٢) سهو من الخالديين فان البيتين ليسا له بل هما لبعض الأعراب ، انما ضمنهما احمد بن سليمان بن وهب كتاباً كتبه الى ابي احمد عبيد الله بن [عبد الله بن] طاهر ، كذا في الموشح ٣٠٢ وجاء فيه ايضاً ان ابا احمد اجابه جواباً يقول فيه : اما البيتان اللذان ذكرتهما وحثثت بهما على الوفاء فقد استحسنتهما واحتجت الى الاستثبات في قوله « ترد علينا بالعشي المراميا » وأي شيء أراد بالمرامي ؟ فان الذي يعرف ان المرامي جمع مرمى وللمرمى المقذف وهو مصدر رمى رمياً كما ترى ، فان كان اراد بالمرامي النبل فهو موجود في كلام العرب وله شاهد . وكان قوله « شبّ بنو ليلى وشبّ بنو ابنها » يقتضي ان يكون قال شب بنو ابنها منه أو من غيره فانه لم يقدّم ذكراً للملكة اياها وانها أم ولده ، وان كانوا يتكلمون على علم المخاطب ويروى ان البلاغة لمحة دالة ، وكان من صمم البيتين مع استحسانتا جيماً اياهما وقف على قوله « بقايا حب ليلى » وأراد منه ألا يكون ذكرَ البقايا وان يكون احتال حتى جعل مكانها أول الافتتاح وان كان لم يكذب في هذا خاصة فرّ بي عند هذا ما لم يتبين لي فيه مطمن وهو قول بعضهم :

وعهدي بنُعم أول العهد انها كعاب فزادتني صِبا وتصابيا
فقد شاب منها نسلنا وتناسلوا وعادت بقايا حبّ نعم بواديا

انتهى قول ابي احمد والبيتان من غير عزو في الراغب ٢٢/٢ وقد ورد للمجنون (د ٨) :

وعهدي بليلى وهي ذات مؤصد ترد علينا بالعشيّ المواشيا

امل المراد بـ « المراميا » هو « المواشيا » (التي تمن وتذهب بعيداً في السروح) لا غير وذلك يوافق حياة البدو تماماً .

فشاب بنو ليلى وشاب ابن بنتها وحرقة ليلى في الفؤاد كما هيا

(١) وعلّقتُ ليلى وهي ذات ذُؤابة تردُّ علينا بالعشيّ المراميا
(٢) فشاب بنو ليلى وشاب بنو ابْنِها (١) وهذي بقايا حبّ ليلى كما هيا

وقال آخر مثله :

فشاب بنو ليلى لِصُلْبي (٢) وأدركوا وشاب بنوهم (٣) وهي مالكة قلبي

فأما قوله : «وكنت اذا ماجئت ليلى أزورها» البيت فقد أخذه أبو نواس فقال (٤) :

قالت:لقد أبْعَدَ (٥) المسرى،فقلتُ لها: من عالج الشوق لم يستبعدِ الدّارا

ومثله قول الآخر (٦) :

واذا أتيتك زائراً متشوقاً قصر الطريق وطال عند رجوعي

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلي : قلت لزهراء الأعرابية : كم بيننا وبين منزلك ؟ فقالت (٧) :

أما على كسلانَ وانٍ فنازحٌ وأما على ذي حاجة فقريبُ

وأما قوله : «من الخفرات البيض» البيت فأحسن ما قيل في معناه ، وقد

---

(١) في الموشح « شبّ » بدل « شاب » في الموضعين واستحسنُ « فشاب بنو ليلى وشبّ بنو ابنها » .
(٢) قوله « لصلبي » يدفع اعتراض ابي احمد على القول السابق .
(٣) ب و م « بنوها » .
(٤) د ٢٨٣ وقال العباس بن الأحنف :
ستقرب الدار شوقاً وهي نازحة من عالج الشوق لم يستبعد الدارا
انظر د ٧٣ والوساطة ٢٨٣ والراغب ٢/١٥ .
(٥) صححت في ب « بعد » من المجرد كما في د .
(٦) مثله للعباس بن الأحنف :
أرى الطريق قريباً حين اسلكه الى الحبيب بعيداً حين أنصرفُ
انظر النويري ٣/٨٤ .
(٧) البيت لأعرابي في الوساطة ٢٣٨ .

تركنا نظائر كثيرة له [في صدر هذا الكتاب] [١] ونحن نذكر ههنا شيئاً عما لم نذكره هناك ، فمن ذلك قول الشاعر [٢] :

كأنما عسل رجعان منطقها لو ان رجع كلام [٣] يشبه العسلا

آخر [٤] :

(١) وانا ليجري بيننا حين نلتقي حديث له وشي كوشي المطارف

(٢) حديث كوقع القطر في المحل يشتفى به [من] [٥] جوى في داخل القلب شاغف

لبشار [٦] :

(١) ولما مضحك كثر [٧] الاقاحي وحديث كالوشي وشي البرود

(٢) نزلت في السواد من حبة القلب ونالت زيادة المستزيد

ذو الرمة [٨] :

ونلنا سقاطاً من حديث كأنه جنى النحل ممزوجاً بماء الوقائع

آخر [٩] :

---

(١) بدله في ا « وذكرنا في صدر الكتاب شيئاً منها » .

(٢) الحكم بن ريحان من بني عمرو بن كلاب في البيان ٢٧٩/١ ومن غير عزو في العقد ٢٩/٤ .

(٣) هذه هي الرواية وفي ا يمكن أن تقرأ الكلمة « ملام » وهو عندي معنى لطيف .

(٤) نسبا الى ابن ابي ربيعة في التشبيهات لابن ابي عون ١١٠ وهما من غير عزو في مجموعة المعاني ١٧٩ وزاد في البصرية ١٤٦ « وتروى لذي الرمة » ونسب البيت الأول الى بشار في العقد ٢٩/٤ وزاد في البصرية ١٤٦ « وتروى لذي الرمة » ونسب البيت الأول الى بشار في العقد ٢٩/٤ .

(٥) سقط من ا و م وبدله في ب « ذو » .

(٦) مما مع ثالث له في المرتضى ٩٨/١ .

(٧) كذا في المرتضى وفي الأصول « كثغر » وسيأتي « كنور » .

(٨) د ٣٥٨ وانظر المرتضى /١٨٧ والعيون ٨٣/٤ وابن ابي عون ١١٠ .

(٩) هذا البيت ايضاً لذي الرمة ، انظر د ٢١٢ واللآلي ٢٠٥ و ٤٠٨ والمرتضى ١٠/١ و ١٥٩/٢ .

لما بَشَرٌ مثل الحرير ومنطقٌ رقيقُ الحواشي لا هُراءٌ ولا نَزْرُ

وقال عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي (١) :

وحديثٍ بمثله تنزلُ العُصْمُ رخيمٍ يشوب ذلك حِلْمُ

النابغة (٢) :

(١) لو أنها عَرَضَتْ لأشمطَ راهبٍ عَبَدَ الإلهَ صرورةٍ متعبّدِ

(٢) لرَنا لبهجتها وحُسنِ حديثها ولخاله رُشداً وإن لم يَرْشُدِ

كثيّر عزّة (٣) :

(١) وأدنيتني حتى اذا ماسْتَبيْتَني (٤) بقولٍ يُحِلُّ العُصْمَ سهلَ الأباطحِ

(٢) تباعدتِ عني حينَ لا لي ملجأٌ (٥) وخلّيتِ ماخلّيتِ بين الجوانحِ

آخر (٦) :

(١) ظللنا بيوم عند أمّ محلّم نشاوى ولم نشرب طلاءً ولا خمرا

---

(١) د ق ٤/٩٧ .

(٢) العقد الثمين ص ١١ والمصري ١٦/١ وجاء في الشعراء ٧٣ – ٧٤ والوساطة ١٥٣ ان ربيعة بن مقروم اخذ قول النابغة برمته ما عدا القافية « متبتل » بدل « متعبد » .

(٣) انشد القالي ٢٢٨/٢ الشعر لكثير (د ١٠٨/١) وهو له في الحماسة وللمرزباني ٢٥٠ والمختار من بشار ٣٤ وخاص الخاص ٨٤ والعمدة ٩٤/٢ والراغب ٣٣/٢ وقال البكري « هذا الشعر لمجنون بني عامر لا لكثير ، ولا أعلم احداً رواه ولا وقع له في ديوانه » ت القالي ١١٨ ، انظر أيضاً اللآلي ٨٥٠ والشعر للمجنون في د ٦٧ و غ ٩٠/٢ والمصري ٢٤٩/٢ والشعراء ٣٦٣ والعيون ٧٨/٣ و ١٣٩/٤ والعقد ٤/٤ .

(٤) ا « سبيتني » .

(٥) ا « حيث لالي حيلة » وثبت بالهامش « حين لا لي ملجأ » .

(٦) لسلم [« سالم » خطأ] الخاسر في الابشيهي ٢٣/٢ :

ظللنا نبتنا عند امّ محمد بيوم ولم نشرب . . . .

البيت والذي بعده .

(٢) اذا صمتت عنا اذتنا [١] بصمتها وان نطقت هاجت لألبابنا سكرا [٢]

آخر [٣] :

(١) وترى لها دَلاً اذا نطقتْ تركتْ بناتِ [٤] فؤاده صُعْرا

(٢) كتساقط الرُّطَبِ الجَنِيِّ من الـ (م) أقناء لا نثراً [*] ولا نزرا

ولأعرابيّ :

(١) يا رُبَّ عيش بالشباك رَغْدِ من تمرِ بَرْنيٍّ وزُبدِ جَعْدِ

(٢) وفتياتٍ صادقاتِ الوعد حديثهنّ مثل طعم الشّهدِ

أبو حية النميري [٥] :

(١) حديث [٦] اذ لم تخش عيناً [٧] كأنه اذا ساقطته الشهدُ بل هو أطيبُ

(٢) لو انك تستشفي به بعد سكرة من الموتِ كادت سكرةُ الموت تذهبُ

وقال الأخطل [٨] :

وقد تكون بها سلمى تُحدثني تساقُطَ الحَلْيِ حاجاتي وأسراري

جران العَود [٩] :

حديثاً لو انّ اللحمَ يولى ببعضه غريضاً أتى أصحابه وهو منضجُ

(١) كذا في الأصول « اذتنا » ويمكن « اذيننا » قال في الابشيهي «ضجرنا» .

(٢) ا « ذكرا » بدل « سكرا » .

(٣) هو ابو دهبل الجمحي كذا في غ ١١٩/٧ ومجالس ثعلب ٤٧٦/٢ وابن ابي عون ١٠٩ واللسان (صعر) وفي المرتضى ١٥٩/٢ «ابو هذيل ؟» .

(٤) ا و م « بنان » . ب « بيات »

(*) في غ « نَبْراً » وهو الكثير .

(٥) حا له في المصري ١٥/١ والمختار من بشار ٣٩ ومعها أبيات أخرى في المرتضى ١٠٤/٢ .

(٦) في المختار من بشار والمرتضى « حديثاً » .

(٧) كذا في ب وفي ا « عيباً » كما في المرتضى .

(٨) د ١١٢ والعيون ٨٢/٤ ومجموعة المعاني ١٨٩ وابن ابي عون ١٠٩ .

(٩) سيجيء الكلام على البيت فيما بعد .

أبوحية النميري [1] :

إذا هنَّ ساقطنَ الحديثَ كأنه سقاطُ حصى المرجان من كفِّ ناظمِ

وشبيه بقول الأعرابي [2] :

نظرتُ اليها نظرةً ما يسرُّني وان كنتُ مسكيناً بها ألفُ درهمِ [3]

وهذا الأعرابي على ضعفه ومسكنته كانت نظرته الى من يحبُّ أكثر عنده من الف درهم .

[ص ٣١ : في ذكر الحديث وحسنه]

أما قول جران العود في ذكر الحديث وحسنه :

(١) يُنازِعْنَنا لذّاً رخيماً كأنما عوابِرُ [4] من قَطْرٍ حداهنَّ صَيِّفُ

(٢) رقيقُ الحواشي لم تَسَمَّعْ راهبٌ ببُطنانَ قولاً مثله ظلَّ يرجُفُ

فهو حسن نادر الا ان الشعراء في الحديث أكثروا من جيده ومن حسنه [5] قول القطامي [6] :

(١) فهنَّ يَنْبِذنَ من قولٍ يُصِبْنَ به مواقعَ الماء من ذي الغُلَّةِ الصادي

(٢) يَقْتُلْنَنا بحديث ليس يفهمه مَن يتقين ولا مكنونه بادي

(١) من كلمة له في المرتضى ٢/٩٨ والحصري ١/١٠ وفي ديوان المعاني للعسكري ١/٢٣٨ « للبحتري ؟ » (في الصناعتين ١٠٦ لأبي حية) وبعده :
رَمين فانفذن القلوبَ ولا ترى دماً مائراً الا جوى في الحيازمِ

(٢) كذا والظاهر ان هناك سقطاً لأن الكلام انتقل الى نظائر البيت ١٦ .

(٣) البيت مع آخر في البيان ٤/٦٢ .

(٤) ب و م « عوابر » والعوابر ما تفرق من القطر .

(٥) ب و م « الشعر في الحديث كثر (كثير) في (ب « ظ فرن ») جيده وحسنه » .

(٦) د ق ٢/١٣ و ١٤ واللآلي ١٨ والشعراء ٤٠٣ والمختار من بشار ٤١ والحصري ١/١٤ .

ومن مليح هذا المعنى قولُ بشار[١] :

وحديثٍ كأنه قِطَعُ الرَّوْ(م) ضِ زهتهُ الصفراء والحمراء[٢]

ذكر ان حديثها مثل الرياض في ملاحتها وانه يجمع جِدًّا وهَزْلاً .

وقال بشار أيضاً[٣] :

ولها مضحكٌ كنَور الأقاحي وحديثٌ كالوشي وشي البُرودِ

وله أيضاً :

(١) وعَتَّني حين شبتُ الى المعاصي محاسنُ زائرٍ كالرّيم غَضّ

(٢) كأنَّ كلامه يوم التقينا رَمِيٌّ خَدّهُ[٤] في طولي وعَرضي

وله أيضاً[٥] :

(١) حوراء ان نظرت اليك سقتكَ بالعينين خمرا

(٢) وكأنَّ رجعَ حديثها قطع الرياض كُسِين زَهرا

وقال بعض ولد أسماء بن خارجة الفزاري[٦] :

(١) وحديث ألذُّهُ وهو مما يونق السامعين[٧] يوزَنُ وزنا

(٢) منطق صائب وتلحَن أحيـاناً وأحلى الحديث ما كان لَحْنا

ذكر انها تحدِّث بحديث يُفهَم ثم تخشى [ثمَّ من يحضر][٨] من الوشاة .

---

(١) د ١/١١٩ والمختار من بشار ٣٣ والعيون ٤/٨١ والحيوان ٣/١٢٢ .

(٢) في م « البيضاء » بدل « الحمراء » .

(٣) المرتضى ١/٩٨ والحصري ٣/١١٧ والرواية « مبسم كثر الأقاحي » .

(٤) في الاصول « رمىّ » [ا « دمى] يأخذن » بدل « رميّ خدّ » والتصحيح منا والرمي : قطع صغار من السحاب وقيل هي سحابة عظيمة القطر شديدة الوقع ، كذا في اللسان .

(٥) المختار من بشار ٣٣ والحصري ١/١٧ واللآلي ٢٧٦ وابن ابي عون ١١١ .

(٦) هو مالك بن اسماء ، الشعراء ٤٩٢ ومجالس ثعلب ٢/٥٩٩ .

(٧) بدله بهامش ب « ينعت الناعتون » .

(٨) ب « فتحصر » بدل ما بين المعقفين والأصل في ا و م « ثم » بدل « ثم » .

فتلحَنُ لم بمعنى يعرفه وإشارة يقف[1] عليها ، لا يعرفها غيرها وغيره[2] .
قال الله تعالى : ولتعرفنّهم في لَحن القول ، أي في معنى القول ، ويقال هذا لحن بني فلان أي لغة بني فلان .

ومن أجود ما قيل في هذا الحديث قديماً وحديثاً قولُ ابن الرومي[3] :

(١) وحديثُها السحر الحلال لو انه لم يجْنِ قتلَ المسلم المتحرّزِ[4]

(٢) إن طال لم يُمْلَلْ وانْ هي أوجزَتْ ودّ المحدّثُ أنها لم توجزِ

---

(١) ا « تعرفه ... تقف » .

(٢) هذا هو التفسير الصحيح لـ « اللحن » الذي كان موضع اختلاف بين كبار اللغويين . يؤيده ما جاء في المرزباني ٣٦٥ « أراد ما تلحن به اليه اي ما اومأت به وردت عن الافصاح به لئلا يعلمه غيرها » وكذلك ما جاء في المرتضى ١١/١ ان المراد باللحن « الكناية عن الشيء والتعريض بذكره والعدول عن الافصاح عنه » – وذهب ابن الاعرابي الى ان اللحن (لَحِن يلحَن) هو الاصابة والفطنة (القالي ٥/١) وعلى ذلك يفسر بيت مالك بن اسماء بـ « منطق قاصد الصواب وان لم يصب ، وتصيب وتفطن أحياناً وخير الحديث ما كان اصابة وفطنة » (القالي ٧/١) – وظن الجاحظ على عكس ذلك ان المراد باللحن هو ما يخالف الصواب (البيان ١٤٧/١) وتبعه على هذا الغلط ابن قتيبة (العيون ، المقدمة ن) وابن دريد فيما نقله عن ابن قتيبة (العيون ١٦٢/٢) الا ان ذلك خطأ فقد جاء في القالي ٦/١ ان مذهب بن دريد في تفسير البيت هو : انها تعرض في حديثها فتزيله عن جهته لئلا يفهمه الحاضرون وان خير الحديث ما فهمه صاحبك الذي تحب افهامه وحده وخفي على غيره ، كذلك جاء في الميداني ١٧٤/٢ ان ابن دريد استدرك على الجاحظ « هذه العثرة التي لا تقال » – هذا وقد قام ابن الأنباري بالرد على ابن قتيبة في الأضداد (ليدن ، ص ١٠٦ وما بعد) وقد تنبه الجاحظ الى الخطأ بعدما سار الكتاب في الآفاق (اللآلي ١٧) . واجع أيضاً بحثاً طريفاً عن مادة ل ح ن للمستشرق يوهان فك في كتابه « العربية » ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، (القاهرة ١٩٥١) ص ٢٣٥ – ٢٤٦ .

(٣) في الحصري ٩/١ ومعاني العسكري ٢٤٢/١ والمختار من بشار ٤١ واللآلي ٢٧٥ ونسبت في حم ابن الشجري ١٩٥ الى البحتري .

(٤) م « المتجوز » .

(٣) شرك القلوب ونزهة [١] ما مثلها للمطمئن وعُقلة المستوفز

هذا نهاية ما قيل في هذا الباب ، وقد تناول ابن الرومي قوله « ودّ المحدث انها لم توجز » من بعض المتقدمين [٢] ، وهو قوله :

من الخفرات البيض ودّ جليسُها إذا ما قضت أحدوثة ان تعيدَها [٣]

ومن مليح ما قيل في الحديث أيضاً قول بعض الأعراب [٤] :

(١) وحديثها كالغيث [٥] يسمعه راعي سنينَ تتابعت [٦] جَدْبا

(٢) فأصاخ يرجو أن يكون حَياً ويقول من فرحٍ هَيا رَبّا

وقال آخر [٧] :

(١) وانا ليجري بيننا حين نلتقي حديث كتسبيح المريضَيْن [٨] مزعجُ

(١) روى « نهزة » انظر اللآلي .

(٢) معنى البيت .

(٣) ب « لو تعيدها » كما هي الرواية .

(٤) القالي ٨٤/١ واللآلي ٢٧٥ والبيان ٢٨٣/١ والعيون ٨٢/٤ وابن ابي عون ١١١ .

(٥) بدله بهامش ب « كالقطر » كما هي الرواية .

(٦) ب و م « تواصلت وروي ايضاً « تتابت » .

(٧) البيتان لأم الضحاك المحاربية في الوحشيات (نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢٢٩٧ أدب) ص ١٦١ وهكذا روي عن ثعلب في الحصري ٨١/٤ وابن دريد في القالي ٨٦/٢ ومع البيتين ثالث تذكر فيه الضيابي الذي كانت تحبه . وهما للشماخ في ابن ابي عون ١١٠ والثاني فقط له في مجموعة المعاني ١٧٩ وقد ذكره الخالديان في موضع آخر منسوباً الى جران العود كما في العيون ٨٢/٤ ويلاحظ ان لجران العود بيتاً يشبهه في بعض اللفظ مع التباين في المعنى :

حديثاً لو ان البقل يولى بمثله زها البقلُ واخضرّ العضاه المقَصّعُ

انظر د ٢١ والبيان ٢٨١/١ .

(٨) م « كسيح المرتضين » ب « كسيح المريضين » وروي أيضاً « كتنشيج (كتنشاج) كتنفس المريضين » .

(٢) حديث لو انّ اللحمَ يولى [1] ببعضه غريضاً أتى أصحابَه وهو مُنْضَجُ

هذا ذكر انه اذا خلى بمن يحب يجري بينهما من التشاكي أحرُّ من النار .

ومثله قول الراجز [2] :

تقول لي وهي تخفُّ الهودجا قولاً جميلاً حسناً مُملّجا

لو طُبخ اللحم به لأنضجا

والقول في الحديث كثير ، ولو استقصينا جميع مافيه لخرج كتابنا عن الغرض الذي قصدنا اليه .

(القاهرة) الدكتور السيد محمد يوسف

---

(١) يولى اي يدنى وفي ا « مولا » ب « تولا » والرواية « يصلى » .

(٢) انظر ابن ابي عون ١١٠ واللسان « ملج » .

سفر خالد بن الوليد

من العراق الى الشام

— ٤ —

المفازة :

ومن الطبيعي ألا تشير الروايات الى المراحل بين قراقر وسوى لأن الأرض بينهما مفازة ، لا ماء فيها ولا سكن ، وهي غير مستطرقة . وفي رواية للسمرقندي نقلها ابن عساكر ، اسماء بعض المراحل بين قراقر وسوى . ذكرها موسل في كتابه [1] . وجاءت هذه الرواية مضطربة ترجمتها كما يلي :

« سار خالد من قراقر الى (سوطه) فجعل المشرق عن يمينه ومر بـ (ألـذن) ونزل في (فرقين) . ثم في (الحصد) ، ثم في (العيرد) ، ثم في (سوعبّل) . قال : ونزل سيف بن عبد الله بن مُحضّر عمن حدثه » . هـذا نص رواية عبد الله بن محضر وهي مرتبكة ، لم نعثر على هذه الرواية في أجزاء ابن عساكر المطبوعة . لهذا كتبنا الى الأستاذ شكري فيصل نرجوه نقل الرواية المذكورة من النسخ الخطية المحفوظة في خزائن القاهرة فتفضل وأرسل الينا الرواية المذكورة أخذاً من نسخة خزانة طوبقبو في استانبول ، وهذا نصها :

« فأخذ (خالد) من قراقر الى (شرطه) فجعل المشرق عن يمينه واستقبل الصبا فنزل (قريتين) ثم نزل (الحقار) ، ثم نزل (العرير) ثم نزل سُوا سلبل .. » .

(١) بادية العرب ، (ص ٥٥٩) .

ولما وصلتنا المجلدة الأولى من تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر بتحقيق الأستاذ صلاح الدين المنجد وجدنا الرواية المذكورة في الصفحة (٤٦٥) كما يلي :

« أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي . . . . عن ظفر بن دهي بمثله . وقال فأخذ من قراقر الى سوكه فجعل المشرق عن يمينه واستقبل الصبا فنزل قريتين ثم نزل الحقار ثم نزل العرير ثم نزل سوى بليل . قال : ونا سيف عن عبد الله بن مُحَفَّز بن ثعلبة عمن حدثه » .

فالفرق بين الرواية التي نقلها موسل والرواية الآنفة الذكر كما يلي : أما (شرطه) او (سوكه) فينبغي أن تكون (سوى) حرفها النساخ خطأً . والمنزل الأول في رواية موسل (ألـذن) ولم يرد ذكر هذا المنزل في الرواية المذكورة في المجلدة الأولى . والمنزل الثاني في رواية موسل (فرقين) ، بينما ورد في رواية المجلدة الأولى (قريتين) . والمنزل الثالث في رواية موسل (حصد) ، بينما ورد في رواية المجلدة الأولى (الحقار) . والمنزل الرابع في رواية موسل (العيرر) وفي رواية المجلدة الأولى (العرير) . انتقد موسل تلك الرواية وأشار الى أن فيها تقديمًا وتأخيراً ، والأعلام الواردة فيها أماكن مرَّ بها خالد قبلاً وقال ان فرقين ينبغي أن تكون محرفة من قرقيسيا والحصد محرفة من الحصيد ، أما سوعبل وفي رواية المجلدة الأولى (سوى بليل) فهي مزج آخر جملة بأول جملة ، لأن الخبر أتى كما يلي : ثم سوعبل قال ونزل ، لهذا ينبغي أن يكون الخبر قال ونزل بسوى ، فتصبح الرواية كما يلي :

« قال عبد الله بن محفز عمن حدثه أخذ خالد من قراقر الى سوى ، فجعل المشرق عن يمينه ومر بألـذن ونزل في فرقين ، ثم في الحصيد ، قال ونزل بسوى » .

ولعل (فرقين) هي القريتين كما جاء في رواية المجلدة الأولى ، ولعل (الحقار) تحريف النساخ لكلمة الحصيد . أما العرير فلم نتثبت من محلها ولعل النساخ حرفوها .

وقد ذكرت الروايات ان خالداً اجتاز المفازة في خمس ليال وذكر اليعقوبي في ثمانية أيام ؛ والقصد من خمس ليال ست مراحل لا كما قال بعض المؤرخين بأنها خمس مراحل . قضى خالد في المفازة خمس ليال ووصل في اليوم السادس الى سوى . أما الثانية أيام التي ذكرها اليعقوبي فستة أيام منها في قطع المفازة واليومان الأخيران بين سوى ومرج راهط ، والمسافة بينهما مائة وخمسة وعشرون كيلومتراً أي مرحلتان . وبما أن المسافة بين قراقر وسوى نحو من ثلثمائة كيلومتر، فانها تقطع في ستة أيام خفاف .

ذكر الشيخ عبد العزيز العقيلي الذي اجتاز مفازة قراقر وسوى مرات ان المسافر يقطعها في ست مراحل خفاف . المنزل الأول (أذنه) ، ورد اسمها في خريطة موسل (ام اذن) الى شمالي شرقي قراقر على بعد ثلاثين كيلومتراً ولعلها (آلذن) الذي ورد ذكرها في رواية السمرقندي الآتية الذكر . وصفها الشيخ عبد العزيز انها حجارة سوداء تؤلف تلاً في سهل ، أي الحم التي أشار اليها موسل . والمنزل الثاني في أرض دُقرة بين تلي (أبي راسين) و (الأقرن) وبين (كثب الشامة) وهي كثبان رمال وقد جاء اسم (كثب الشامة) هذه في خريطة موسل ؛ والمسافة بينها وبين أم اذن ثلاثون كيلومتراً والأرض الدقرة التي أشار اليها عبد العزيز هي الأرض البركانية ، ذكرها موسل قائلاً : «يجب على المسافر أن يتوجه من قراقر في أول مرحلة الى الشمالي الغربي ويقطع أرضاً بركانية طولها خمسون كيلومتراً لهذا ينبغي أن تكون (كثب الشامة) المنزل الأول . والمنزل الثالث كما ذكره هو (تل المبر) ووصفه بأنه تل أسود على الحدود الأردنية — السعودية من غربيه . وقد جاء اسمه في خريطة موسل والمسافة بينه وبين كثب الشامة خمسة وعشرون كيلومتراً . والمنزل الرابع حسبما ذكره العقيلي قاع (ابو الحصين) في غربيه الحرة وفي شرقه (وديان الرويشدات) . فجعل موسل في خريطته على غربي الطريق شعيب

(ونوتيشد ابو حفنة) وهو على بعد خمسة وسبعين كيلومتراً وفي جوارها مقور مياه تسمى (الخويمات) تكون في أرض بيضاء . والخويمات هذه واقعة الى جنوبي (شعيب حفنة) على عشرين كيلومتراً . والمنزل الخامس (الحدالي) وهي عبارة عن قارتين صحراويين ويرى جبل الغراب في الغرب من بعيد ، وجاء اسمه في خريطة موسل (غراب الحدالي) وهو جبل أسود الى غربي الطريق بعد عطفته الى الشمال الغربي . أما المنزل السادس فهو سبع أبيار . وطولها من الحدالي سبعون كيلومتراً . وفي خريطة موسل محل على الطريق في المكان الذي ينعطف فيه الطريق الى الشمال الشرقي نحو سبع أبيار يسمى (الجويف) ومنه يتشعب طريق الى (خان عنيب) الواقع على طريق (تدمر — دمشق) .

متى سافر خالد من العراق ؟

ثبتنا الطريق التي سار فيها خالد برجاله ، نعود فنبحث عن الوقت الذي سافر فيه :

ذكرنا فيما سلف أن خالداً تسلم أمر ابي بكر في أواخر المحرم سنة ثلاث عشرة وأشرنا الى أن أوثق الروايات تؤكد بأنه أغار على الغسانيين في مرج راهط في عيد فصحهم أي في ٢٤ ـ نيسان ـ سنة ٦٢٤ . ولا بد أن خالداً قضى بضعة أيام في انتقاء رجاله وارساله النساء والضعفاء الى المدينة والاستعداد للسفر ، لهذا يصادف مغادرته لحيرة في أوائل شهر صفر أي في منتصف شهر آذار .

فقد روى المدائني انه غادر العراق في ربيع الثاني سنة ثلاث عشرة ، ويصادف يوم ٢٤ ـ نيسان ـ ٦٢٤ = ١٩ شهر ربيع الأول سنة ١٣ . وهذا التاريخ ثبت . اذن ما معنى ربيع الثاني الذي ذكره المدائني وأيده البلاذري ؟ لأن تاريخ وقوع معركة أجنادين الذي أيده أكثر ثقاة الرواة والاخباريين يعارض التاريخ الذي ذكره المدائني . وقعت معركة اجنادين في ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٣ هـ .

والطريق الذي سلكه خالد لا يمكن أن يقطعه في أقل من خمسة وعشرين يوماً . وقد قضى عدة أيام للوصول الى بصرى بعد ضربة الغسانيين في مرج راهط وفتحه مدينة بصرى ، ثم توجه الى الجنوب للانضمام الى جند عمرو بن العاص . والمسافة من بصرى الى الغمر الذى قيل ان عمرو بن العاص كان يرابط فيه لا تقل عن ثلثمائة وخمسين كيلومتراً ، ومن الغمر الى أجنادين نحو من مائة كيلومتر . ولا شك أنه صادف في طريقه عقبات أخرته عن المسير ، والمعقول أن لا يتم كل ذلك في شهر واحد .. ومن أجل ذلك ليس لنا الا أن نؤيد ما أورده موسل من أن الربيع الآخر الذي أشار اليه المدائني هو موسم الربيع لا الشهر القمري . وذكر موسل ان كيتاني أخطأ حين اعتبر تاريخ المدائني أساساً للبحث ، ويذهب موسل الى أن موسم الربيع عند البدو يقسم الى شطرين ، والمدائني أراد بربيعه الثاني أن يشير الى الشطر الثاني من موسم الربيع ، أي أن سفر خالد من الحيرة حتى وصوله مرج راهط وقع على ما يظهر في الشطر الأول وقسم من الشطر الثاني لموسم الربيع . وما برح البدو يسمون الخريف بصفر الأصفار . وذكر موسل أنه يمتد ثلاثة أشهر أي ايلول وتشرين الأول وتشرين الثاني . ولعل شهر صفر الذي ذكره سيف بن عمر في رواياته عن فتوح خالد في العراق هو صفر الأصفار لأنه حشد في شهر صفر هذا كثيراً من الحوادث التي لا يمكن أن تجري في شهر واحد .

اذن فلنا أن نعتبر سفر خالد من الشام قد جرى في النصف الأخير من شهر آذار سنة ٦٣٤ وانه قضى في الطريق أكثر من شهر ، لأنه لم يجهد خيله ورجاله في الطريق صيانة لهم واستعداداً للقتال في الشام ، فرتب مسيره بأن قطع في اليوم خمسين كيلومتراً ، وقضى عشرين يوماً بين الحيرة ودومة الجندل وخمسة أيام بين دومة الجندل وقراقر ، وستة أيام بين قراقر وسوى ، ويومين بين سوى ومرج راهط ، يضاف الى ذلك يوم أو يومان قضاهما في سوى

وأطرافه ، وبذلك يكون قد قضى نحواً من خمسة وثلاثين يوماً في سفره ، ترك الحيرة حوالي ٢٠ آذار ووصل مرج راهط في ٢٤ نيسان .

خالد في سوى :

لم يعثر خالد على الماء في سوى بسهولة . والروايات جميعها تشير الى أن موقف خالد في سوى كان حرجاً . لقد نفد الماء بنحر الجزوز ، وليس هناك ما يدل على أن الماء موجود في سوى . ومما زاد في حراجة الموقف رمد الدليل رافع الطائي وهو على ماذكرته الرواية كان ورد ماء سوى قبل ثلاثين سنة وهو غلام وبعد أن ضرب الناس يمنةً ويسرة عملاً باشارة رافع عثروا على جذع العوسجة . فاحتفروا الأرض بجوارها ووجدوا الماء وارتووا . قال موسل : « ان آبار سبع أبيار (وهي سوى) في منتهى شعيب ضحل . تحتفظ بالماء ثلاث أو أربع سنوات عقبى أمطار غزيرة في الشتاء ، وأرباب الرحلات لا يعتمدون عليها الا فيما ندر ، ولا يمرون بها الا قليلاً ويتركونها ، وتكاد الرمال تطمرها »[1] . ثم أضاف قائلاً ان رافعاً من قبيلة طي وبلاد طي واقعة الى جنوبي سوى على مئات من الكيلومترات ولعلهم كانوا وما يزالون يطلبون سوى في غزواتهم ، لذلك ان خبر جذع العوسجة خبر صحيح . ومن الروايات ما أشارت الى ان خالداً باغت جمعاً من بهراء في سوى ، كانوا يشربون ومغنيهم ينشد الأبيات التالية :

ألا علاني قبل جيش أبي بكر لعل منايانا قريب ولا ندري

فقتلهم وسبى . وفي روايات أخرى أن الحادث المذكور وقع في المصيخ قبل سفر خالد من العراق . وفي رواية الهيثم بن عدي أن الحادثة وقعت في البشر . ومن الروايات ما تجعل الوقعة في مصيخ بهراء في أطراف سوى . والبيت يدل على ان الحادثة وقعت في المصيخ شمالي عين التمر ، قبل سفر خالد لأن المغني

(١) البادية العربية : (ص ٥٥٨) .

كان يجهل قدوم جيش خالد من قراقر ، وقد احتاط خالد في اجتيازه المفازة ليباغت الشام ؛ فضلاً عن أنه يصعب تصديق رواية وجود جمع بهراء في سوى . وقد اتضح أن المسلمين حفروا الأرض واستخرجوا الماء منها . ولا يستبعد ان خالداً بعد وصوله الى سوى وأثناء اقامته فيها أرسل رجالاً من أصحابه ليغيروا على الأطراف ويحصلوا على الطعام . فأغار هؤلاء على جمع من بهراء في أطراف سوى .

واذا كان خالد عازماً على مباغتة الروم في دخوله ارض الشام وجب عليه ألا يطيل المقام في سوى ولا يضيع وقته في شن الغارات ، كما أشارت اليه بعض الروايات ، لأن في ذلك مضيعة للوقت ، واطلاع العدو على محله . لهذا من المحتمل جداً أنه قضى مدة قصيرة في سوى للراحة ، ولم يكشف عن محله ، فتوجه الى الشام من الطريق الأقصر وهو الذي يمر بضمير وينتهي بعذراء . ولا سبيل له أن ينفذ الى الشام من محل آخر . وسبب ذلك ان سلسلة رواق تسد الطريق من الشمال وحرة تلول الاعطيات من الجنوب وبحيرة عتبة وبحيرة الهيجانة من الغرب والأرض بين البحيرتين المذكورتين في الربيع كثيرة المستنقعات يصعب اجتيازها . ويبدو من ذلك أنه ليس لخالد الا أن يتوجه من سوى رأساً الى عذراء ويباغت من فيها والمسافة بينهما مائة وعشرون كيلومتراً ، أي مرحلتان . ويظهر من الروايات أن المياه كانت متوفرة في الطريق المذكور . وقد ذكر ابن اسحق في روايته أن الطريق استقامت بخالد بعد سوى . وتواصلت المياه حتى مرج راهط .

وجاء في رواية لسيف بن عمر ما يلي :

« ولما بلغ غسان خروج خالد على سوى وانتسافها وغارته على مصبح بهراء وانتسافها ، فاجتمعوا بمرج راهط . وبلغ ذلك خالداً وقد خلف ثغور الروم وجنودها مما يلي العراق فصار بينهم وبين اليرموك صمد اليهم . فخرج من سوى بعدما رجع اليها بسبي بهراء فنزل الرمانتين علمين على الطريق ، ثم نزل بالكثب حتى صار

الى دمشق ، ثم مرج الصفر ، فلقي عليه غسان وعليهم الحارث بن الأيهم ، فانتسف عسكرهم وعيالاتهم ونزل بالمرج أياماً ، ثم خرج منه حتى ينزل بقناة بصرى ، فكانت أول مدينة افتتحت بالشام على يدي خالد فيمن معه من جنود العراق . وخرج منها فوافى المسلمين بالواقوصة فنازلهم بها في تسعة آلاف ..»[١] .

ورواية سيف هذه هي الرواية الوحيدة التي تشرح قصة سير خالد من سوى الى مرج راهط ، وتشير الى ان الغسانيين استخبروا وصول خالد الى سوى . أما ما جاء فيها من اغارة خالد على مضيخ بهراء - والصحيح (المصيخ) - فخبر يشير الى اغارة خالد على بني تغلب في المصيخ حينما قدم اليها من عين التمر وذلك قبل سيره الى الفراض ، أي قبل استلامه كتاب ابي بكر . والمصيخ هذا كما بينا يقع الى جنوبي وادي حوران وقد ثبته موسل في عين الأرنب . لهذا لا يعقل أن خالداً بعد وصوله الى سوى وقد وصل حدود الشام يشرق ويجتاز البادية مرة أخرى ويذهب الى المصيخ للاغارة على أهله . والمسافة بين سوى والمصيخ نحو من أربعمائة وخمسين كيلومتراً والماء مفقود في الطريق وقد يقضي في الذهاب والاياب أكثر من عشرة أيام .. الا اذا كان هناك مصيخ آخر في جوار سوى ، يرجع لبهراء . وقد يكون المصيخ وصفاً لبعض أشكال الأرض كالكثيب والقلت والتي أو الثنية وغير ذلك[٢] .

وقد أشرنا قبلاً أن مبدأ المباغتة يتطلب من خالد ألا يقدم على حركات عسكرية بعد وصوله سوى ، وليس من شك في أنه قضى بعض الوقت للاستراحة بعد السفر الشاق في المفازة ولا يستبعد أن بعض رجاله قاموا بغزوات قصيرة المدى في الأطراف لاغتنام بعض المواشي ، لأن الموسم في أطراف الشام موسم المرعى .

(١) الطبري ، الجزء الثاني ص (٦٠٤) .

(٢) وجاء في القاموس (الصخ) الضرب بالحديد على الحديد . وصوت الحجر اذا قرع وقد يكون المصيخ الأرض الحجرية التي تقرع .

ليس في الروايات ما يشير الى أعمال خالد بين سوى ومرج راهط . ورواية سيف على طولها لم تشر الى عمل له سوى نزوله بالرمانتين والكثيب . والرمانتان اشارة الى تلين منفردين ، ارتفعا في ارض سهلة وأصبحا علماً لمكان وقد ذكرهما الشيخ عبد العزيز العقيلي . والكثب والكثيب تل من الرمل . ولعل خالداً كان يعلم أن الطريق بين تدمر ودمشق غاصة بالحصون ومعاقل الروم ؛ لهذا لم يخاطر في مهاجمتها ، ولعله سعى كثيراً لأن يسلك طريقاً بعيدة عنها ليخفي حركته وبالحقيقة ان المنفذ الشمالي لبلاد الشام يسهل كثيراً سده بوجه القوات القادمة من البادية ، وهو محصور بين سلسلة الرواق والحرة الواقعة الى شرقي دمشق وبحيرتي العتيبة والهيجانة وما يتخللها من المناقع ومن أجل هذا يذهب الظن الى أن خالداً ، في زحفه من سوى الى مرج راهط اتخذ كل الحيطة لاخفاء مسيره محاولاً مباغتة الغسانيين ؛ واذا صحت رواية سيف فانه علم باجتماع الغسانيين في مرج راهط ، لأنه كان قد اعتزم الوصول الى المسلمين من دون ان يحبسه الروم عن نجدتهم .

وفي الخريطة التي أرفقها (بوادبرارد) بكتابه (المواقع الرومانية في بادية الشام) حصون ومعاقل على طريق (تدمر — دمشق) من سبع ابيار الى ضمير وذكر المؤلف[1] أنه أقيم خط إمامي ليستر طريق الخانات (الطريق الشمالي التي تمر بسفح سلسلة الرواق بين دمشق وتدمر) جنوبي جبل الرواق على ثلاثين كيلومتراً ، ليسد الجادة الممتدة من الحماد بالاتجاه الشمالي الغربي . ويتألف هذا الخط الأمامي من الطريق المستحكمة لجادة ديوقليان في قاطعيه جبل سيس — سبع أيار — تدمر . وفي هذا الخط حصن (تل التساعي) الواقع الى جنوبي غربي سبع أبيار على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً . ويمكن الوصول الى سبع أبيار مباشرة من ضمير وخان الشامات من دون المرور بسيس . ويتبين مما كتبه المؤلف

(١) المواقع الرومانية في بادية الشام (ص ٤٢) .

أن جبل سَيْس يقع على الطريق الروماني الأقصر بين بصرى وتدمر وقد استعمله أرباب الرحلات من التجار يوم كانت بصرى وتدمر مدينتين تجاريتين خطيرتين . وفي نقطة جبل سيس بئر وحصن لحراسة البئر . وبين هذا الموقع وموقع سبع أبيار مواقع أخرى فيها تل صناعي وبرج روماني وبركة من العهد الروماني واسم الموقع تل (سَدْشِه) ، ويمر الطريق بعدها بتل التساعي الى سبع أبيار ومنه الى حصن العليانية وحصن الملكية ، ثم يضرب شمالاً الى تدمر .

أما الطريق الأقصر من سبع أبيار الى ضمير فيمر بسفح جبل رواق الجنوبي وفيه أيضاً معاقل وحصون كحصن سَيْجل وحصن خان الشامات وحصن ضمير . وفي أطراف ضمير أقيم سور لحماية أرض المرعى . لقد درس المؤلف هذه المواقع وثبت صورها ورسومها في ملحق كتابه وأثبتها في خريطة المواقع الرومانية في بادية الشام .

ذكر موسل في كتابه « البادية العربية » أن في شرقي مرج راهط (في جوار عذراء) معسكر الرومانيين المستحكم ، الواسع (ضمير العتيقة) .. لم تشر الروايات العربية اليها ولعلها كانت وقتئذ خالية أو لعل حاميتها انضمت الى جيش الروم للدفاع عن الباب الأول في بصرى أو فلسطين . وهذا محتمل جداً لأن الفرس كانوا دُحروا في حروب هرقل .. فلم يبق من خطر يهدد بلاد الشام بالهجوم عليها من الشمال الشرقي ، ويلاحظ من جهة أخرى فقدان جنود الروم في الباب الثاني ، وفي مرج راهط اجتمع مرتزقة الغسانيين فقط .

ويتراءى لنا أن خالداً في زحفه من سوى الى مرج راهط تعمد بألا يظهر أمام ضمير العتيقة وسار بعيداً عنها . ويتضح من كل ما ذكرناه انه لا بد لخالد أن يسير بعيداً عن المواقع الرومانية المذكورة خشية الاصطدام بها .

واذا بلغ خالد خبر اجتماع الغسانيين في مرج راهط قبل مسيره من سوى أو في طريقه اليها كان يقتضي أن يتغلب عليهم ليستطيع النفوذ الى الشام لأنه

لا يوجد أمامه طريق آخر دون لقائهم . ذكر ياقوت مرج راهط وقال انه موضع في الغوطة من دمشق في شرقيه بعد مرج عذراء اذا كنت في القصير طالباً لثنية العقاب تلقاء حمص فهو عن يمينك وقال عن مرجه هو أشهر المروج في الشعر . أما عذراء فموقعها ثابت في الخريطة وهي واقعة على طريق دمشق ـ ضمير ـ شمالي شرقي دمشق على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً ، غربي مفترق الطريق الممتد الى ضمير وخان ابي الشامات وطريق نبك ـ حمص .

ويبدو مما كتبه ابن عساكر ان مرج راهط هو مرج عذراء ، ويتبين مما كتبه ياقوت انه في شرقي عذراء . والمسافر من دمشق الى بغداد بالسيارات يرى هذا المرج الواسع على يمينه بعد عذراء . وكانت المروج والمراعي في شرقي دمشق خاصة بالغساسنة وفيها منازلهم وقراهم .

ولعل الروم حين حشدهم الجيوش لمقاتلة المسلمين في فلسطين لم يهتموا كثيراً بالناحية الشمالية والناحية الشرقية لدمشق . لأن الطريق التي تربط العراق بالشام والتي تمر بوادي الفرات وتجتاز بادية تدمر تلقى في وجهها معاقل وحصوناً ومرابط كما قلنا .. لهذا لم يتوقعوا هجوماً من هذه الناحية . واذا سارت قوات المسلمين عليها تصل أخبارهم الى حكام الروم في الشام فيتخذوا الحيطة لسد الطريق بوجه المسلمين . أما طريق البادية من الشرق فلا يمكن أن تسلكها قوة ذات شأن . ويتبين من رواية سيف بن عمر أن خالداً أغار على الغسانيين في مرج الصفر بينما الروايات الأخرى جميعها تشير الى قتال خالد للغسانيين في مرج راهط . أما موقع مرج الصفر فلم نتثبت منه بالضبط ، ذكره ياقوت وقال انه بين دمشق والجولان صحراء كبير . ويلوح لنا انه واقع الى جنوبي دمشق الى الغرب أو الى الشرق بنها . لقد انتصر فيه العرب على الروم بعد معركة أجنادين في مسيرهم نحو دمشق وهو بلا شك مرعى للغسانيين ، وعلى ما يظهر انه مرعى كبير . ويبدو أن الغساسنة كانوا نازلين فيه مع عيالاتهم الرعي به

ولعل بعضهم كان في مرج راهط يرعى ماشيته ويراقب طريق الصحراء . فلما بلغهم خروج خالد الى سوى أخبروا الروم بذلك وطلب هؤلاء اليهم أن يمنعوا القادمين من الدخول الى أرض الشام . فأسرع من كان في مرج الصفر الى مرج راهط واجتمعوا فيه لحماية مواشيهم وصد المسلمين . يستنتج ذلك من انسحابهم الى مرج الصفر بعد هزيمتهم في مرج راهط .

وبعد فليس في الأخبار ما يشير الى وقت اغارة خالد على الغسانيين والى صورتها . وبما ان أسلوب خالد في أكثر حروبه المباغتة ، يتراءى لنا أنه باغت الغسانيين في مرعاهم وقت الصبح والاشارة الى ثنية العقاب في رواية الواقدي وروايات أخرى تخالف ما ذكرنا . ويؤخذ من رواية الواقدي أن خالداً وصل الى ثنية العقاب بعد اغارته على بني غسان . وهذا لا يتأتى لأن غوطة دمشق تبدأ بعد عذراء وليس فيها ثنية ، والثنية في اللغة طريق العقبة . والثنية التي صار اليها خالد وركز فيها رايته ينبغي أن تكون في نهاية الجبل الذي يمتد من الشرق الى الغرب في شمال ضمير ويطل منتهى الجبل المذكور على مرج عذراء وغوطة دمشق . وتمر بقربه الطريق بين دمشق وحمص ، بعد أن يتسلق الجبل ويتضح مما أورده ابن الأثير ان خالداً وصل ثنية العقاب بعد مصالحته لبني مشجعة في قصم ، ثم سار الى مرج راهط . ويستدل من ذلك انه بطريقه من حوارين الى دمشق مر بقصم . والطريق من النبك الى دمشق تمر بأراض جبلية وقبل أن تصل الى السهل الذي فيه مرج راهط تتسلق الجبل وتهبط منه الى السهل ، والثنية هذه في هذا الجبل كما بينا . واذا كان خالد قدم من سوى الى مرج راهط لمباغتة الغسانيين لماذا يعرج الى الجبال ويرفع رايته فوق الثنية ويكشف عن محله ؟ هل علم أنه لا يقدر على مباغتة الغسانيين اذا قدم من البادية ، لأن عيون عدوه كانت تترقبه ، لهذا عرج بعد ضمير الى الجبل وأغار على الغسانيين من الشمال بعد أن أخفى حركته في الأرض المتموجة ؟ أم أن حادثة الثنية وقعت بعد فتح دمشق ؟

ويظهر من رواية سيف أن خالداً أغار على الغسانيين في مرج الصفر وكان عليهم الحارث بن الأيهم ولم يشر سيف في روايته الى قتال وقع في مرج راهط على حين أجمع الرواة على وقوع هذا القتال . ويتضح من هذا أن راويه احتفظ بذكريات قتال مرج الصفر الرئيسي وأهمل قتال مرج راهط الثانوي . واذا كانت عيالات الغسانيين وماشيتهم في مرج الصفر ، كان ينبغي لهم بعد هزيمتهم في مرج راهط أن يسرعوا الى مرج الصفر للدفاع عن عيالاتهم وماشيتهم . وفي هذه الحالة لا بد ان خالداً لم يمهلهم ، بل طاردهم الى مرج الصفر - والمسافة بينهما على ما يبدو قصيرة - فهزمهم شر هزيمة ثم توجه الى بصرى . ليس في الروايات ما يشير الى عمل قام به خالد في طريقه الى بصرى . ويبدو من ذلك أنه بعد أن ظهر في أطراف عاد فأضاع أثره وظهر من جديد أمام بصرى .

أما الأخبار التي تروي اغارة خالد على قرى الغوطة ونزوله على أحد ابواب دمشق واعطائه عهداً لأسقفها وغير ذلك فيصعب تصديقها . ومع هذا فان مالمدينة دمشق من شهرة ومكانة قد بعثت أطماع خالد فجذبته الى المدينة .. لهذا جاز لنا أن نزعم ان رجاله أغاروا في طريقهم على بعض قرى الغوطة وان خالداً مرّ بباب دمشق مر الخاطف .

الخلاصة :

والذي يتلخص من بحثنا هذا ان خالداً بعد استلامه أمر ابي بكر بالشخوص الى الشام ، قرّر المسير اليها بطريق دومة الجندل ، فترك الحيرة بعد منتصف شهر آذار سنة ٦٣٤ فبلغ دومة الجندل وبدلاً من أن يسير على طريق وادي السر تقدم من الشمال محاذياً للوادي حتى وصل قراقر ومنها اعتزم اجتياز المفازة بين قراقر وسوى ، ثم تقدم رأساً الى مرج راهط فهزم الغسانيين في عيد فصحهم في ٢٤ نيسان سنة ٦٣٤ ثم تقدم مسرعاً الى بصرى .

وبهذه المناسبة ننشر فيما يلي ما كتبه الجنرال جلوب قائد الجيش العربي في الاردن في كتابه «قصة الكتيبة العربية» :

«وبينما كانت الجيوش العربية تقاتل الروم في السهول الفارسية (العراق) كان خالد بن الوليد يغزو مسالح الامبراطورية الفارسية . ولما ورد اليه أمر الخليفة يلح عليه بالكف عن حرب فارس ويطلب اليه الاسراع لنجدة جيش المسلمين امام دمشق ، وكان خالد قد فتح مدينتين من مدن العراق . وكان خالد على بعد خمسمائة ميل عن زملائه في الشام ، تفرقهم بادية الشام التي لم يقطعها جيش في الحرب قبلاً ، ماعدا مرة واحدة (يقصد بها حركة الكتيبة العربية من شرقي الاردن الى العراق في حوادث سنة ١٩٤١) ترك خالد العراق حالاً وسار عبر الصحراء الى واحة دومة الجندل (تدعى الآن الجوف) ومنها فتح وادي سرحان بوجهه الطريق الى الشام ، والوادي بطن طويل حافل بالآبار طالما قطعته القوافل . وكانت الحصون الرومية تسيطر على منتهاه الشمالي . وبعد ان استقى خالد الماء من قراقر دلف الى الشرق وتوغل في البادية بعيداً عن أنظار حاميات الروم في الشام . وبينما كان جيش الروم يقاتل العرب في السهول الواقعة الى جنوبي دمشق ظهر خالد من البادية بغتة وراء ظهرهم . وكانت هذه الحركة السريعة فوق طاقة جنود الروم المجهزين بالسلاح الثقيل . لهذا بعث الروم مناصريهم العرب ، الأمراء الغسانيين لطرد خالد من خطوط مواصلاتهم ، ولكن بني غسان منوا بهزيمة منكرة شرقي دمشق على بعد خمسين ميلاً .

دلف خالد البادية وأضاع أثره للمرة الثانية وبعد أن التف وراء جبل الدروز ، انضم الى جيش المسلمين في السهول الممتدة جنوبي دمشق [1] » .

بغداد : طه الهاشمي

(1) The Story of Arab Legion (ص ٢٥ وما بعدها .

تاريخ فكرة إعجاز القرآن

منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر؛ مع نقد وتعليق

— ٥ —

٧ — ابن سراقة :

ويأتي ابن سراقة (٤١٠) فيؤلف كتاباً في الإعجاز ليس له أثر الآن وانما ذكره حاجي خليفة صاحب كشف الظنون بين كتب الاعجاز وقال إنه في الإعجاز من حيث الأعداد ذكر فيه من واحد الى ألوف ولا ندري ما يقصد بهذه العبارة المقتضبة « من حيث الأعداد من واحد الى ألوف » وقد تساءل الرافعي أيضاً عن المقصود منها وحار في تعليلها .

وذكر السيوطي رأي ابن سراقة في الإعجاز فقال (الاتقان للسيوطي ص ١٩٨) : وقال ابن سراقة : « اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة كلها حكمة وصواب وما بلغوا في وجوه اعجازه جزءاً واحداً من عشر معشاره » ثم يعدد أقوال الناس المختلفة في الإعجاز وأكثرها يتعلق بالبلاغة والفصاحة والنظم بصورة عامة ومعاني القرآن والغيب .

ونحن نرى من عبارة ابن سراقة : « فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة كلها حكمة وصواب » أو نستطيع أن نستنتج أنه كان يرى أن القرآن معجز بكل مافيه فكل وجهات النظر والنواحي المختلفة التي قيلت في إعجازه صحيحة وهو لا يمحص الآراء المختلفة فيأخذ بعضها وينأى عن بعض وفيها المتناقض كالقول بالصرفة والقول بالإعجاز البياني فكلها عنده حكمة وصواب أو — كما يقولون — « خير وبركة » .

٨ – ابن حزم الأندلسي :

ويتكلم ابن حزم الأندلسي المتكلم في كتابه «الفصل في الملل والنحل» عن الإعجاز فيذكر أقوالاً عدة من مسائله ويرد عليها ثم يذكر رأيه فيها وفي وجه الإعجاز ويتلخص ما أورده في أمور :

١ – ذكر رأي الأشعري في أن المعجز هو القديم الذي لم يزل مع الله تعالى ورد رأيه لأن الإعجاز يبطل حينئذ فلا يمكن تحدي الناس بشيء لم يروه ويرجح قول الجمهور في أن المعجز هو الذي بأيدينا .

٢ – يتعرض لزمن الإعجاز هل يقف عند حياة الرسول ، كما يقول بعض أهل الكلام الذين يرون أنه لو عورض في زمنهم لما بطلت المعجزة لأنها إنما قامت الحجة بها زمن النبي بعجز العرب عن معارضته ، أو إنه باق الى يوم القيامة كما يقول جمهور أهل الاسلام ويفهم من كلامه أنه يرجح رأي الجمهور .

٣ – يذكر المعجز من القرآن فيقول إن قوماً يرون أن المعجز منه نظمه وقوماً يرون أنه إخباره بالغيوب وإن سائر أهل الاسلام قالوا كلا الأمرين معجز نظمه وإخباره بالغيوب .

٤ – يذكر قولين في وجوه إعجازه وهما القول بأنه في أعلى مراتب البلاغة والقول بالصرفة وهو يرفض الرأي الأول لأنه لو كان في أعلى درجات البلاغة لكان لا حجة فيه لأن هذا يكون في كل من كان في أعلى طبقة وأما آيات الأنبياء فخارجة عن المعهود ، وبأن الله لا يُسأل عما يفعل ولا يُقال له لِمَ عجّزت بهذا النظم دون غيره ، ولأنه يلزم من ذلك أن ينزل الله القرآن في جميع اللغات ليكون معجزاً للأعاجم إعجازه للعرب لأن العجم لا يعرفون إعجاز القرآن إلا بأخبار العرب ويبدو من خلال تناوله الموضوع أنه يؤيد الثاني الى جانب قوله بأن القرآن معجز لأنه قرآن فهو ينقد من يستشهدون ببعض الآيات دون

بعض على إعجاز القرآن كآية « ولكم في القصاص حياة » فيقول إنهم لا حجة لم فيها لأنها إما أن تكون وحدها معجزة ويكون باقي القرآن غير معجز وإما أن يكون كله معجزاً فيكون الاستشهاد بها دون سواها موهماً بأنه ليس كله معجزاً ثم يتساءل عن الاعجاز في مثل هذه الآية : « وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً » كيف يظهر وكيف يبرهن عليه وهل احتوى شروط هؤلاء الجماعة في أن يكون الكلام في أعلى درجات البلاغة ثم يقول لو أن كل كلام جاء في أعلى درجات البلاغة معجز لكان كلام الحسن وسهل بن هارون و . . . و . . . معجزاً ولا يصح هذا لأنه يجوز أن يؤتى بما يماثله وشرط الإعجاز عدم امكان المماثلة ولأنه لو كان إعجازه كما يقولون لما اشترطوا أن يكون المعجز ثلاث آيات فأكثر ولكانت الآية أو جزء منها كافية في الإعجاز .

وهو يعتقد بأن القرآن في أعلى درجات البلاغة من حيث أن الله قد بلغ به ما أراد فهو في هذا المعنى في الغاية التي لا شيء أبلغ منها وليس هو في أعلى درج البلاغة في كلام المخلوقين لأنه ليس من نوع كلامهم لا من أعلاه ولا من أدناه ولا من متوسطه ويرى القرآن معجزاً لأنه كلام الله تعالى والبرهان على ذلك أنه استعمل الحروف المقطعة في أوائل السور فلم ينل ذلك من بلاغته ولو استعمل رجل ذلك لعيب عليه لأنه خارج عن البلاغة المعهودة ويعقب على ذلك بما يفهم منه أنه يقول بالصرفة فيقول : « فصح أنه ليس من نوع بلاغة الناس أصلاً وأن الله تعالى منع الخلق من مثله وكساه الإعجاز وسلبه جميع كلام الخلق ثم يذكر أن القرآن حكى كلاماً قاله المخلوقون فكان معجزاً لأنه ورد في القرآن وصار قرآناً وليس معجزاً في كلام المخلوقين .

٥ — القرآن كله قليله وكثيره معجز في رأيه ولذلك يخطىء رأي الأشعرية القائل بأن أقل المعجز مقدار أصغر سورة محتجين بقوله تعالى : « فأتوا بسورة

من مثله » بأن الله لم يقل بأن ما هو أقل من السورة ليس معجزاً ويذكر أن سائر أهل الاسلام على هذا الرأي ويقول : « ولا يختلف اثنان في أن كل شيء من القرآن قرآن فكل شيء من القرآن معجز » .

ويفصل في نقد من يجعلون أقل المعجز مقدار سورة فيتساءل عن المقصود بالسورة ما هو ؟ عدد آياتها أو عدد كلماتها أو عدد حروفها فاذا كان المعجز سورة كاملة كانت سورة البقرة إلا آية منها غير معجزة وإن قالوا مقدار السورة آيات وأقلها ثلاث كانت آية الدين غير معجزة وكان « والفجر وليال عشر والشفع والوتر » معجزاً مثل سورة البقرة وكان « والضحى والفجر والعصر معجزاً » ؛ فإن قالوا هن متفرقات فلا يكون فيهن إعجاز سقط الإعجاز عن ألف آية متفرقة وإمكان المجيء بمثلها وذلك يبطل الإعجاز عن القرآن وكان « ولكم في القصاص حياة » غير معجز وهذا نقض لقولهم إنه في أعلى درجات البلاغة وإن قالوا إن المقصود بذلك عدد الكلمات أو عدد الحروف بطل احتجاجهم لقوله تعالى : « فأتوا بسورة من مثله » لأنهم جعلوا معجزاً ما ليس سورة ولم يقل تعالى مقدار سورة وبذلك يلوح تمويههم ، ثم يناقض ابن حزم قول من يقول إن المعجز عدد السورة حروفاً بنفس الطريقة ويرده ويتابع المناقشة فيقول : إذا كانت الآية منه أو الآيتان غير معجزة وكانت مقدوراً على مثلها فكل القرآن يكون حينئذ مقدوراً على مثله وهذا كفر فإن قالوا اذا صارت ثلاث آيات صار غير مقدور عليها قيل لهم هذا غير قولكم إن إعجازه هو من طريق البلاغة لأن طريق البلاغة في الآية مثله في الثلاث .

وخلاصة رأيه أن القرآن معجز لأنه قرآن فكل كلمة فيه معجزة وكل حرف فيه معجز إذا عد من القرآن فاذا لم يعد منه لم يكن معجزاً كما لو ذكرت في خبر على أنها ليست قرآناً وأن القرآن استعمل أشياء تخالف البلاغة فيما لو كانت في كلام الناس وعدت فيه معجزة مثل ادخاله معنى دخيلاً بين معنيين لا يكون بينهما في العادة .

وعلى هذا فان ابن حزم لا يرى القرآن معجزاً ببلاغته وأن في استطاعة الناس أن يأتوا بمثله بلاغة مع اعترافه بأنه في أعلى طبقات البلاغة . ونراه من جهة ثانية يخالف طريقة المتكلمين فهم يجعلون إعجاز القرآن وسيلة الى اثبات أنه منزل من عند الله وإثبات النبوة وهو يعكس الأمر فيجعله معجزاً لأنه كلام الله وقد سبقه الى هذا بندار الفارسي فيما رواه التوحيدي (الاتقان للسيوطي ، فصل الاعجاز ج ٢ ص ١٩٨ ـ ٢١٢) . ومن مميزات ابن حزم أنه يستعمل حججاً قوية في الرد على من يقولون بالاعجاز البلاغي . وأرى أنه عرض رأيه عرضاً حسناً قوياً وإن كنت أرى أن القرآن يمتاز في جملة ما يمتاز به بأنه في الدرجة العليا من البلاغة .

٩ ــ الخفاجي :

ومن له رأي في الاعجاز في هذا العصر ابن سنان الخفاجي الحلبي (٤٦٦ هـ) وقد أورد آراءه في الإعجاز فى كتاب « سر الفصاحة » في علوم البيان وهو يرى فيه أن علم الفصاحة ضروري للأديب ليحسن قول الكلام ونقده . (سر الفصاحة للخفاجي ص٣ و ٤) كما أنه ضروري للعلوم الشرعية لأن المعجز الدال على نبوة محمد هو القرآن ويقول إن هناك قولين في الخلاف الظاهر فيما به كان القرآن معجزاً القول الأول خرق العادة بفصاحته وعلم الفصاحة ضروري للقائل بهذا حتى يعلم بم خرق العادة . والقول الثاني هو أنه معجز بصرف العرب عن معارضته مع أنها فى مقدورهم ومن جنس فصاحتهم وهو يرى أن مسيلمة لم يأت بما يصح أن يسمى معارضة للقرآن لأن كلامه خال من الفصاحة التي وقع التحدي بها في الأسلوب المخصوص .

وهو يذكر تقسيم الرماني لتأليف الكلام إلى ثلاثة أضرب متنافر ومتلائم في الطبقة الوسطى ومتلائم في الطبقة العليا ؛ ينكر عليه هذه القسمة ويجعلها

قسمين متنافراً ومتلائماً ويذكر أن بعض المتلائم أكثر تلاؤماً من بعض كما يخالفه في قوله بأن القرآن متلائم في الطبقة العليا وغيره في الطبقة الوسطى وهو يعني بذلك جميع كلام العرب فليس الأمر على ذلك ويرى أنه لا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في ناحية الفصاحة وأن في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه وهو ينكر على الرماني لجوءه الى هذه الحجة ليثبت للقرآن الإعجاز ٠ والوجه الصحيح عنده هو الصرفة وفي هذا يقول: «وإذا عدنا الى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك» وهو نفس رأي الشريف المرتضى في الصرفة الذي قلنا إنه يخالف رأي النظام قليلاً ٠

ويكمل الرد على رأي الرماني بأن القرآن يتألف من ألفاظ مفردة جاءت في كلام العرب سواء اذا ادعى أن القرآن في الدرجة العليا أو في الدرجة الوسطى منها ولا يرى للقرآن ميزة من حيث تلاؤم الكلم ويورد رأيه الخاص في تنافر اللفظ فيقول قد يحصل من تقارب مخارج الحروف كما يحصل من تباعد مخارجها ويضرب لذلك أمثلة عدة ٠

وينكر الخفاجي قول القائلين بأن كل أقسام القرآن معجزة ومتساوية في الفصاحة ويقول إن بعض القرآن أفصح من بعض ويقدم أمثلة مؤيدة لرأيه عدة آيات ثم يمثل لرأيه هذا بقوله متسائلاً: «وليت شعري أي فرق بين أن يخلق الله وجهين أحدهما أحسن وأصبح من الآخر وبين أن يحدث كلامين أحدهما أبلغ وأفصح وهل يفرق بينهما الا مقترح» ٠

ولا يرى مانعاً من أن يكون بعضه أفصح من بعض لأن التوراة والانجيل والزبور وهي كلام الله لم تكن معجزة لخرقها العادة بالفصاحة ويقول إنما منعهم عن القول بهذا أنهم جعلوا إعجازه في خرق العادة بفصاحته فكيف يكون بعضه أفصح من بعض ٠ وهو ينقض رأيهم هذا بأنه لا مانع حتى في

هذه الحالة من أن تتفاوت المعجزات في النظم ويرجع الى القول بأن إعجاز القرآن إنما هو بالصرفة وليس ببلوغ الغاية في الفصاحة ٠

وخلاصة ما أتى به الخفاجي أنه لا يرى فصاحة القرآن كافية للبرهان على إعجازه ويقول بالصرفة على طريقة المرتضى ويرى أن بعض القرآن أفصح من بعض وهذا الرأي الأخير صحيح في اعتقادي وقد ذهب اليه ابن حزم كما رأينا حين عرض رأيه ٠

١٠ ـ عبد القاهر الجرجاني :

ويأتي عبد القاهر الجرجاني فيتزعم نظرية النظم في إعجاز القرآن فقد فصّل فيها وعرضها عرضاً مستفيضاً وانتقل بها من حيّز الألفاظ الى حيّز المعاني ٠ وهو متكلم وأديب ٠ ويعتقد كثيرون بأنه أول من ألف في علم البلاغة ٠ والجرجاني أول من نظم الأفكار التي كانت في هذا الموضوع وأبرزها في قالب علمي ٠ وكتابه دلائل الإعجاز دليل على أن البلاغة في شكلها العلمي ظهرت من فكرة إعجاز القرآن ٠ فهو إنما كتبه إذن لغرض ديني ٠ ويناقش عبد القاهر مسائل في البلاغة والنحو ويقول بأنه لا يستطيع أحد أن يعرف إعجاز القرآن حتى يحسن تمييز أنواع النظم المختلفة ويحسن فهمها وقد ألف الجرجاني كتاباً آخر في البلاغة هو كتاب «أسرار البلاغة» ٠ وبه يتمّ ما بدأه في دلائل الاعجاز إلا أنه يهتم بصفة خاصة في بيان قيمة البلاغة وسرها من الوجهة النفسية من حيث مراعاة وقع الكلام في النفس ومن حيث مراعاة أحسن الطرق لإفهام النفس الانسانية ما يريد أن يؤديه المتكلم ٠

وقد سبق أن ذكرت أثناء عرض آراء الخطابي أن للجرجاني شرحين على كتاب الخطابي كبيراً سماه المعتضد وصغيراً وأنهما كانا مقدمة لوضع كتابيه المشهورين : دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة ٠

ويمكن تلخيص آراء الجرجاني :

١ — لا يقوم إعجاز القرآن في رأيه على الأغراض الأدبية المقصودة في وضع الكلام من حيث معانيها العامة كوصف الكريم بأنه كالبحر أو وصفه بالكرم بصورة مجردة بل بالصورة الجميلة التي تنقل المعنى من السذاجة الى الحلية في التعبير والجمال في الأداء وحسن العرض للمعنى بمعان ثانوية فرعية تكمله وتضفي عليه جمالاً وخلابة فيحسن فيه التصوير ويقوى المعنى بما يستعمله المنشئ من أساليب النظم البلاغية من تقديم وتأخير واستعارة على ما تبحث فيه علوم المعاني والبيان والبديع . وليس الكلام عنده معجزاً لأنه حكمة . وليس الإعجاز أيضاً في تلاؤم الألفاظ مفردة أو مركبة (دلائل الاعجاز ص ١٩٦) فانها موجودة كذلك في كثير من كلام العرب وإنما هو في حسن النظم . وهو يرى النظم قائماً على مراعاة التلاؤم بين معاني الكلمات المفردة تلاؤماً يساعد على أداء المعنى العام المقصود بجمال وقوة . ويتم نظم هذه المعاني نظماً متلائماً بالاستعانة بعلم النحو في معناه الواسع في مفهوم عبد القاهر وهو يشمل على النحو والبلاغة . فنحن لا نقدم ونؤخر في الكلام أو نقوم بعمل فيه فنستعمل المعاني والقواعد النحوية الا لتخدم المعنى وتحسن سبكه فتجيد التلاؤم بين معاني الألفاظ . فالنحو بمعناه الواسع إذن خادم لنظم المعاني وليس خادماً للألفاظ (ص ٣٥ من دلائل الإعجاز) وقد كسر عبد القاهر الجرجاني كل كتابه دلائل الإعجاز على شرح هذه الأنظار وعرضها والرد على مخالفيها ونقض ما سواها وقد أحسن في عرضها كل الإحسان وإن كان قد أهمل ناحية موسيقى الألفاظ وفصاحتها مفردة ومركبة إهمالاً لا يغتفر له ولعله إنما بالغ في نصرة المعاني لمبالغة غيره في نصرة الألفاظ بمجرد رد الفعل النفسي الذي يقابل المبالغة بمبالغة مثلها أو اشد منها تعاكسها في الاتجاه .

٢ — يذكر عبد القاهر أن النبي قد تحدى العرب الذين عرفوا المقصود من هذا التحدي ولكنهم عجزوا عنه .

٣ – ليس الإعجاز بمعاني الكلمات المفردة وإنما هو باجتماعها منظومة لتؤدي معنى شاملاً كما قلنا وليس كذلك في الموازنة بين كلمات وكلمات القرآن حركة وسكوناً وإلا كان مسيلمة قد قلد القرآن .

٤ – ليس إعجاز القرآن في مراعاة القواطع والفواصل فليس ذلك بأصعب من مراعاة الوزن والقافية في الشعر ويذكر أن العرب كانوا قادرين على مثل ذلك كما يذكر أن أحدهم ألف كلاماً له فصول وربما كان يقصد المعري (ص ٢٩٦ – ٢٩٧ من دلائل الإعجاز للجرجاني) .

٥ – يذكر قول الجاحظ (ص ٢٩٨ من الكتاب المذكور) الذي يستفاد منه أن العرب أدركوا بالحدس وفي سريرة نفوسهم بلاغة القرآن وعجزوا عن مجاراتها ثم يقول الجرجاني إن العرب لم يفهموا من الإعجاز الفواصل والسكنات والحركات بدليل أنهم لما قارنوا بين : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » وبين « قتل البعض إحياء للجميع » لم ينظروا الى ذلك بل الى بلاغة المعنى . وأنا أشك في أن هذه المقارنة قد حصلت فعلاً زمن النبي وأميل الى أنها حصلت بعده بزمن طويل في عهد الترجمة والى أن الجملة الأخيرة « قتل البعض إحياء للجميع » قد ترجمت عن كتب أجنبية .

٦ – يشنع على القائلين بالصرفة (ص ٢٩٩ من الكتاب نفسه) وينقض رأيهم بأنه اذا كان الأمر كذلك فلماذا يبهرهم القرآن إذن . أوليست دهشتهم للشيء وجدوه فيه غريباً وفوق طاقتهم ؟

٧ – لا يمكن أن يكون الإعجاز في الاستعارة وما يتعلق بالبديع لأنها ليست موجودة في كل آيات القرآن وهو يسير في هذا على غرار القاضي الباقلاني .

٨ – ينعي عبد القاهر على من يجعل الإعجاز في استعمال غريب الألفاظ كما ينعي على من يجعلونه في استعمال الألفاظ السهلة الخالية من الثقل على اللسان (ص ٤ ٣ من دلائل الإعجاز) .

٩ — إنما كانت معجزة النبي بلاغة القرآن لأن معجزة كل نبي كانت في الناحية التي اشتهر بها قومه . (ص ٣٦٥ منه) .

١٠ — ينكر أن يكون القرآن معجزاً لمجرد كونه كلام الله ـ وهو رأي ابن حزم وبندار الفارسي ـ (ص ٣٩٨ منه) .

١١ — لا ينكر في موضع (ص ٤٠١) من كتابه شأن خفة الحروف في النطق في فضيلة الكلام وإنما ينكر أن تجعل وحدها سبيلاً الى الإعجاز .

١٢ — يؤمن بأن عمدة إدراك البلاغة في النظم والاعجاز فيه هو الذوق والاحساس الروحي وكثرة الاطلاع على كلام العرب . (ص ٤١٨ من دلائل الإعجاز) .

وهنا لا بد لنا من القول بأن عبد القاهر في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة كان قدوة من جاء بعده من المؤلفين في البلاغة وإعجاز القرآن ببيانه وأنه يعد مرن الفكر في جعله الإعجاز في شيء غير محسوس تماماً . وليس لنظريته قوة البرهان الرياضي الذي ينفي أو يثبت بالأدلة العقلية المشتركة بين كل الناس . وإنما يقوم الإعجاز في نظره بالمعاني ويدرك بالذوق . وذلك بوضعه نظرية مرنة اذا تأملناها أدركنا أنها تساعد المؤمن بإعجاز القرآن على دعم إيمانه ولكنها لا تقنع المنكر او الملحد وذلك لأن الاقناع فيها قائم على الذوق الأدبي الفني وعلى شيء من الشعور الديني ومحال أن يجد الملحد او الشاك في القرآن من الروعة والجمال ما يجده المؤمن وقد يكون كتاب آخر يؤيد عقيدته وأفكاره أروع عنده من القرآن . ولا يتيسر أن يتفق الناس في تقدير الجمال في القول كما أنهم لا يتساوون في تقدير الجمال المدرك بالحس . ونرى أن مقاييس الجمال ، حتى ما وضع منها في عصرنا مهما بلغت من الدقة ، لا توحد أذواق الناس . فنظرية عبد القاهر إذاً لا تحسم الخلاف وان كان ما جاء به يبدو مسلماً به في تصور الكلام البليغ لا سيما وأنه قد أحسن عرض نظريته . ونستطيع أن نلمس من كلامه أنه مفكر استفاد مما ذكره سابقوه وما كان مقلداً أو جامعاً لآرائهم

بل هو مبتكر ألبس نظرية النظم ثوباً قشيباً ونقلها من حيز الألفاظ الى حيز المعاني . ومع أن قواعد البلاغة التي جاء بها ليست بقاطعة كما قلنا في حسم النزاع فانها على كل حال محاولة جدّية مجدية تساعد على تذوق الأدب وفهمه وكتابته ومراعاة الصحة والجمال فيه . وقد أفرغ هذه القواعد التي جاء بها عبد القاهر من جاء بعده من علماء البلاغة في قوالب جامدة جافة ذهبت بعلم البلاغة عن غايته وأبعدته عن التجديد والابتكار وأخضعته للمنطق والتعنت الفلسفي العقلي وأهملت ما يساعد على تنمية الذوق الأدبي كما أنها لم تكمل ما أنقصه عبد القاهر ولم تكن الا عالة عليه وعلى من عاصروه أو سبقوه .

ولم تكن مهمة السكاكي أول من صنف وبوّب هذا العلم بالشكل الذي نعرفه الآن الا اختصار ماجاء به عبد القاهر وتبويبه والاسترسال في إخضاعه للبراهين المنطقية والتأثيرات الفلسفية .

وبالانتهاء من الكلام على عبد القاهر أنتهي من الكلام على من درستهم ممن ألفوا في فكرة الإعجاز في هذا العصر وكان لهم بحث أو اجتهاد فيها .

تلخيص ونقد :

إذا أردنا أن نعرض فكرة عامة عن هذا العصر قلنا : إن كثيراً من الباحثين في الإعجاز كانوا مجرد جامعين لآراء من سبقوهم أو مقلدين وإنه قد ظهر القول بصورة أصرح في نظرية أن القرآن معجز لأنه كلام الله على لسان ابن حزم وظهر قول داعي الدعاة بأن القرآن معجز بما فيه من معاني الحكمة ويبدو واضحاً في زمن عبد القاهر الجرجاني أن التيار الفكري كان متجهاً نحو الإعجاز بالألفاظ فخشي من ذلك عبد القاهر على فكرة الإعجاز أن تزول اذا وجد بين الأدباء من يستطيع معارضة هذه الصنعة اللفظية فناصر فكرة النظم القائم على تلاؤم المعاني في خدمة الغرض العام المقصود تلاؤماً يراعى فيه التصوير وحسن التعبير والصياغة . وظهر القول بأن بعض القرآن أفصح من بعض على لسان ابن سنان الخفاجي .

القرن السادس

أشهر من تكلم في قضية الإعجاز في هذا العصر متكلمان : أحدهما له ابحاث واسعة في الفلسفة وهو الغزالي والثاني مؤلف في السيرة النبوية وهو القاضي عياض ، ومفسران أحدهما من المعتزلة وهو الزمخشري والثاني ابن عطيّة ، وفيلسوف كان يسعى الى التوفيق بين الفلسفة اليونانية ومبادىء الدين الاسلامي وهو ابن رشد . وسأتحدث على كلّ واحد منهم على حدة فيما يلي .

١ — الغزالي :

يرى الغزالي أن القرآن سوق لمعنى واحد وهو دعوة الخلق الى الله تعالى وصرفهم عن الدنيا الى الدين (الاتقان للسيوطي ج ٢ ص ١٩٨ وما بعدها) وكان يذهب الى أن في القرآن جميع العلوم الدينية والدنيوية وأنها كامنة في مطاويه لا يدركها الا العالمون فكأنه يرى أن هذا وجه من وجوه الإعجاز لأنه انما ذكره قاصداً به أن يبين عظمة القرآن . قال الأستاذ أمين الخولي بعد ان ذكر فكرة اتساع القول في احتواء القرآن جمل العلوم جميعاً واشتماله الى جانب العلوم الدينية اعتقادية وعملية وظاهرة وخفية سائر علوم الدنيا : « والغزالي الى عهده كان أكثر من استوفى بيان هذا القول (الإحياء الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل ص ٢٥٩ — ٢٦٤) وأن في القرآن رموزاً ودلالات على كل ما اختلفت فيه الخلائق في النظريات والمقولات والقرآن يشير الى مجامع العلوم كلها وبعد أن يذكر الغزالي العلوم ويذكر أن منها ماسوف يوجد ومنها ما اندرس يذكر أن اوليات العلوم كلها في القرآن فإنها جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى وهو بحر الأفعال ..... ويشير أخيراً الى أنه لو ذهب يفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال ولا تمكن الإشارة الى مجامعها » .

ويلاحظ أن الغزالي بين المؤلفين الذين تكلمنا عنهم حتى الآن هو أول من يعرض لهذه الفكرة القائلة باحتواء القرآن على جميع أوليات العلوم الدينية والدنيوية وسنرى كيف يتوسع فيها المتأخرون .

٢ — القاضي عياض :

وللقاضي عياض (٥٤٤) في كتابه « الشفاء ص ٢١٦ — ٢٣٧ ط دار السعادة سنة ١٣١٢) رأي في الإعجاز أورده السيوطي في الاتقان (ج ٢ فصل الإعجاز) وخلاصته أن إعجاز القرآن في الإيجاز والبلاغة والأسلوب الغريب والإخبار بالمغيبات والإخبار عن الأمم الماضية على أمية النبي وتعجيزه أيضاً لقوم في قضايا لم يفعلوها كقوله لليهود : « فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » ومن فضائله الروعة في قلوب السامعين — ويذكر بهذه المناسبة اسلام جبير بن مطعم حين سمع النبي يقرأ في صلاة المغرب سورة الطور — وأنه آية باقية لا يعدم ما بقيت الدنيا مع ما تكفل الله بحفظه وأنه لا يخلق على كثرة الرد وجمعه لعلوم ومعارف لم يجمعها كتاب من الكتب وذلك في كلمات قليلة وأحرف معدودة .

وتبين من رأي القاضي عياض في الإعجاز أنه لم يأت بجديد وإنما لخص تقريباً رأي الباقلاني وزاد عليه جمع القرآن علوماً ومعارف لم يجمعها كتاب قبله على إيجازه . ويعرض لرأي الصرفة أثناء كلامه فلا ينكر هذا القول بل يثبته إثباتاً مبهماً ضعيفاً ويقول إنه على هذا القول أيضاً معجز .

٣ — الزمخشري :

يبني الإمام الزمخشري (٥٣٨) فكرة الإعجاز في الكشاف على خصائص الكلمات والنظم في التعبير ويوافق رأي الجرجاني قليلاً فالإعجاز عنده قائم على المعاني من تعريف وتنكير وتقديم وتأخير ثم على ما يتصل بعلم البيان ويذكر الدكتور محمد خليل الخطيب في مقدمة حسن الصنيع للبسيوني ـ وأوافقه على رأيه ـ

أن الامام الزمخشري ينبغي أن يعدّ بعد عبد القاهر في صدر الواضعين لفن البيان ويذكر بهذه المناسبة رأي ابن خلدون في «أن ثمرة فن البيان فهم الإعجاز من القرآن وأن المفسرين أحوج الناس الى هذا الفن وأن أكثر تفاسير المتقدمين غفل منه حتى ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن بما يبدي البعض من إعجازه فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير» .

ومن الحق أن تقول إن الإمام الزمخشري يعدّ بين المفسرين أول او اكثر من اهتم يبحث البيان في القرآن والى جانب تطبيقة العملي فن البيان في إظهار إعجاز القرآن نراه أثناء تفسير آية التحدي في سورة الإسراء : « قل لئن اجتمعت الانس والجن ... الخ الآية » يقول بضرورة كون القرآن مخلوقاً حادثاً حتى يكون معجزاً ويصح به التحدي فإن كان قديماً كان محالاً على البشر ولا يصح أن يتحداهم النبي به فيقول : « والعجب من النوابت ـ يقصد بهم نوابت أهل السنة ـ ومن زعمهم أن القرآن قديم مع اعترافهم بأنه معجز وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة فيقال الله قادر على خلق الأجسام والعباد عاجزون عنه وأما المحال الذي لا مجال فيه للقدرة ولا مدخل لها فيه كثاني القديم فلا يقال للفاعل قد عجز عنه ولا هو معجز ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالعجز لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال إلا أن يكابروا فيقولوا هو قادر على المحال فان رأس ما لهم المكابرة وقلب الحقائق » .

وقد ردّ عليه في هذا الشيخ ناصر الدين احمد بن محمد الاسكندري المالكي (٦٨٣) وقال بأن اعتقاد اهل السنة يقوم على أن مدلولات العبارات قديمة قائمة بذات الباري تعالى يطلق عليها قرآن كما أن الألفاظ الدالة التي بين أيدينا يطلق عليها قرآن ايضاً والتحدى به والمعجز هو الدليل أي الألفاظ الدالة لا المدلول وإنما يتحرز العلماء من اطلاق هذا القول لسببين الأول أن السلف كفوا عنه

فانتفى الخلف آثارهم والثاني أن هذا القول ربما أوهم الضعفاء بأن مدلول القرآن حادث لا قديم . (تعليقات الاسكندري على كتاب الكشاف في الحاشية) .

وكذلك علق الشيخ محمد عليان المرزوقي في الهامش المطبوع مع الكشاف على قول الزمخشري بكلام له نفس معنى كلام الاسكندري . وكلام الزمخشري يدلنا على أن مسألة خلق القرآن كانت ولا تزال قيد بحث علماء الكلام حتى عصره .

ويذكر الزمخشري أثناء تفسير آية سورة البقرة «وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا» أن الله جاء في هذه الآية بما هو الحجة على إثبات النبوة وذلك حين يتحداهم فيدركون عجزهم ويعلمون أنه من عند الله .

ويقول الزمخشري في مقدمة تفسيره ما معناه إنه لا بد من علم البيان والمعاني لإدراك معجزة رسول الله ومعرفة لطائف حججه وأن يوجد ذوق في الفكر والادراك ودراية بأساليب النظم والنثر ويقول إن القرآن معجز على وجه كل زمان ودليل إعجازه سكوت العرب عن معارضته مع كثرة عنادهم وتوفر دواعيهم واشتهارهم بالأنفة .

وآراء الزمخشري جاءت في تفسيره ولم أعرف أنه وضع في هذا البحث كتاباً خاصاً أو أفرد له باباً .

(يتبع) نعيم الحمصي

تاريخ علم الفلك في العراق

وعلاقاته بالأقطار الاسلامية والعربية

(في العهود التالية لأيام العباسيين)

من سنة ٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م الى سنة ١٣٣٥ هـ — ١٩١٧ م

— ٢ —

٢ — عهد الجلائرية

وفي عهد الجلائرية ، وهم مغول أيضاً ، ظهر عدة علماء الا ان العناية كانت أقل لما طرأ على الدولة من ضعف وان لم ينقطع الاتصال بعلوم الفلك وانما مضت على اطرادها ، وأبقت الدولة الوضع على حاله .

ومن العلماء المشهورين :

١ — صفي الدين بن عبد الحق :

هو ابو الفضائل عبد المؤمن بن كمال الدين البغدادي . وكان معروفاً بالفرائض وبعلوم جمة . وكان يعرف الهيأة والحساب معرفة جيدة . كان في عهد المغول وأدرك دولة الجلائرية . ومن مؤلفاته :

١) المعرفة بدلائل القبلة . وظهرت بعد ذلك مؤلفات عديدة في هذا الموضوع . وتوفي سنة ٧٣٩ هـ — ١٣٣٨ م [1] .

٢) شمس الدين بن الأكفاني :

هو شمس الدين محمد بن ابراهيم بن ساعد الأنصاري (السنجاري) المعروف

---

(١) الشذرات والدرر الكامنة وطبقات الحنابلة للشيخ جميل الشطي ص ٦٠ . وتاريخ العراق ج ٢ ص ٣٢ .

بـ(ابن الأكفاني) . كان من أبرز العلماء في الفلك والرياضيات والتنجيم . ومن مؤلفاته :

١) ارشاد القاصد الى أسنى المقاصد . وهذا الكتاب بيّن فيه أموراً مهمة في هذه العلوم خاصة وعين الكتب المعتبرة في الرياضيات والفلك والاختيارات .

٢) اللباب في الحساب . منه نسخة في أياصوفيا . توفي سنة ٧٤٩ هـ بمصر [١] .

٣ — جمال الدين البابصري

هو ابو العباس جمال الدين احمد بن علي بن محمد البابصري البغدادي الحنبلي الفقيه الفرضي الأديب . ولد سنة ٧٠٧ هـ . برع في الفرائض والحساب وتوفي سنة ٧٥٠ هـ [٢] .

٤ — عبد الصمد المنجم التبريزي :

توفي أيام السلطان أويس من الجلائرية . له في فنّ الهيأة وأحكام النجوم اليد الطولى . ومما قال فيه برهان الدين المدني :

« نظام الدين عبد الصمد بن ابي البركات النهشلي الشافعي التبريزي ... له اليد الطولى في علم الفلك وأحكام النجوم وما يتعلق بذلك على الدين والأمانة . ولد سنة ٧٠٣ هـ وحج سنة ٧٦٢ هـ وفي آخر الوقت ولي قضاء قضاة تبريز » اهـ [٣] .

٥ — المولى شمس الدين العصار :

هو شمس الدين الحاج محمد العصار . من المشهورين في عصر السلطان أويس من الجلائرية . ويعدّ من علماء الفلك والرياضيات والاسطرلاب . وهو من تلاميذ عبد الصمد المنجم . توفي في أيام السلطان أحمد الجلائري سنة ٧٩٢ هـ [٤] .

(١) ارشاد القاصد الى أسنى المقاصد ص ١١٥ والوافي بالوفيات ج ٢ ص ٢٥ .
(٢) الشذرات ج ٦ ص ١٦٦ .
(٣) دانشمندان آذربيجان ص ٢٥٦ .
(٤) » » ص ٢٧٥ .

هذا وعلوم الفلك مضت على اطرادها في هذا العهد الا ان المدونات قليلة جداً . وكانت علاقة الجلائرية ببغداد كبيرة . ويعد علماء هذه الدولة من علماء بغداد أو الواردين اليها .

٣ — الدولة التيمورية

استولت هذه الدولة على بغداد سنة ٧٩٥هـ — ١٣٨٣م . واختارت جماعة من علماء بغداد ورجالهم في الفن والعلم والهندسة والبناء . وكانت علوم الفلك نشأت في بلاد الترك أيام المغول . وظهر الأستاذ الچغميني . والفضل الكبير في تقدم هذا العلم يرجع الى أحد أحفاد تيمور وهو أولوغ بك ابن شاه رخ ابن تيمور . وكان تيمور قد ركن اليه غالب رجال البلاط الجلائري . وبينهم الفلكيون والمنجمون . فاستفاد أولوغ من ثقافة هؤلاء .

رعى هذا العلم ، وجمع علماءه . وبينهم ايرانيون وترك . وبنى رصداً مدة سلطنته بسمرقند أو بالتعبير الأصح كانت امارته في سمرقند مستمدة من والده شاه رخ . وليها بعد وفاة جده ودام الى أن ملك بعد والده . ولد في حدود سنة ٧٩٠ هـ . وتوفي سنة ٨٥٣ هـ[١] . وكان من تصانيفه :

١) الظل المنكوس السنيني .

٢) الزيج الأولوغ بيكي . وسماه ابو الثناء الآلوسي بـ (سلطان الأزياج) .

ولقد صرفت عناية كبرى بهذا الزيج ودام العمل به أكثر من الزيج الايلخاني ومنه نسخ عديدة في بغداد والشام وغيرهما . شرحه علي القوشچي وميرم چلبي ، واختصره محمد بن ابي الفتح الصوفي المصري . وعرب باسم (تذكرة الفهيم في عمل التقويم) ، و (التسهيل) لهذا الزيج من تأليف عبد الرحمن الصالحي الموقت بالجامع الأموي وهو محاول أولوغ بك . وشرحه البرجندي في سنة ٩٢٩ هـ . منه نسخة في خزانة المجلس . وعندي نسخة منه .

(١) شذرات الذهب ج ٧ ص ٢٧٦ وغيره .

عني به حق العناية واشتركت فيه رجالات العلم من مختلف الأقطار ، ولم يحل محله الزيج الهندي الا بعد حين ثم حل محله الزيج المعروف بالكاسيني ثم (زيج لالاند) . وهذه ظهرت في الغرب ونسخت سائر الأزياج .

والدر النظيم في علم التقويم على أصول رصد أولوغ بك . منه نسخة لدى الأستاذ احمد عبيد وأخرى في الخزانة الشرقية . ومؤلفه محمد بن عبد الرحمان العفيفي الشافعي . ورد ذكر مؤلفه في المشرق ج ٣ ص ١١٢٩ .

ومن العلماء في الفلك أيام الدولة التيموّرية :

١ — غياث الدين جمشيد الكاشي ، وله :

١) نزهة الحدائق في كيفية صنعة الآلة المسماة بالطبق الناطق . رسالة باللغة العربية طبعت على الحجر سنة ١٣٠٦ هـ في آخر مفتاح الحساب وعليها ذيل ألحق بها وطبع معها . ألفه في شعبان سنة ٨٢٩ هـ .

٢) رسالة الوتر والجيب .

٣) الزيج الخاقاني بالفارسية . قدمه الى أولوغ بك حين قدم الى سمرقند وقبل أن يكتب الزيج الأولوغ بيكي . وعندي نسختان منه احداهما كاملة والأخرى ناقصة الورقة الأولى . ومنه نسخة في اياصوفيا .

٤) سلم السماء في الهيئة . طبع على الحجر .

٥) مفتاح الحساب بالعربية . منه نسخة في (خزانة يكي جامع) . وطبع على الحجر سنة ١٣٠٦ هـ في ايران وفي آخره نزهة الحدائق مع ذيلها . ولخصه مصنفه وسماه (تلخيص المفتاح) . ومنه نسخة مشروحة في خزانة المتحف العراقي . وذكره صاحب كشف الظنون في مادة (أسنان المفتاح) .

٦) زيج التسهيلات .

٢ — السيد الشريف الجرجاني :

هو الشريف علي بن محمد الجرجاني . ومن مؤلفاته :

١) شرح ملخص الهيئة للجغميني . منه نسخة في الخزانة الظاهرية بدمشق كتبت سنة ٨٧٠ هـ . وفي خزانة الأوقاف العامة وفي خزائن أخرى عديدة .

٢) حاشية على التحفة الشاهية . الأصل لقطب الدين الشيرازي .

٣) شرح التذكرة للطوسي . توفي سنة ٨١٦ هـ — ١٤١٣ م .

٣ — قاضي زاده الرومي :

هو موسى بن محمد بن محمود القاضي ببروسة المعروف بـ (قوجه ملا محمود) . نال حظوة كبيرة لدى أولوغ بك . أخذ عن المولى الفناري ومن مؤلفاته :

١) شرح الملخص للجغميني . أكمله سنة ٨١٤ هـ وهو من كتب الدرس . منه نسخة بخط يده في خزانة أياصوفيا . وعليه حاشية للبرجندي .

٢) رسالة في القوس قزح .

٣) شرح أشكال التأسيس . والأصل للعلامة شمس الدين محمد بن أشرف السمرقندي المتوفى في حدود سنة ٦٠٠ هـ (كذا) . وعليه حاشية لمير ابوالفتح المتوفى سنة ٩٧٦ هـ وحاشية لعبد البر العوفي كتبه باسم محمد صادق بن محمد افندي المعروف بـ (شيخ زاده) . وهذا من كتب الدرس أيضاً .

٤) رسالة في استخراج الجيب . ولعبد الوهاب من أهل قواله مؤلف بهذا الاسم . وطبع مع حاشية محمد الحاج بن ابي نصر العراقي سنة ١٢٦٨ هـ .

٥) سمت القبلة . ذكره صاحب كنه الأخبار .

مات في ما وراء النهر في منتصف المائة التاسعة . وعلى قول سنة ٨١٥ هـ . ولم يتبين لنا وجه الصواب من هذه الأقوال في تاريخ وفاته [1] .

٦) رسالة في الحساب . وعليها شرح في خزانة الشهيد علي باشا باستنبول .

٤ — علي القوشجي :

هو المولى علاء الدين علي بن محمد المعروف بـ (القوشجي) . كان من تلامذة قاضي زاده الرومي . وعرف باكمال رصد سمرقند ومن رجال أولوغ بك .

---

(١) الآثار الباقية لصالح زكي . والتراث العلمي ص ٢٣٢ .

ومن مؤلفاته :

١) فتحية في الهيأة . ألفها لما ذهب السلطان محمد لمحاربة حسن الطويل . وقد اشتهرت شهرة عظيمة . شرحها أحد تلامذته العلامة سنان المتوفى سنة ٨٩٨ هـ ولعله مصلح الدين اللاري المعروف بـ (عجم سنان) . وشرحها ميرم چلبي المتوفى سنة ٩٣١ هـ . وترجمها الى التركية سيدي علي رئيس المتوفى سنة ٩٧٠ هـ وسميت ترجمته (خلاصة الهيأة) . وترجمها المولى پرويز بالتركية سنة ٩٨٧ . وسماها (مرقاة السماء) .

٢) رسالة في حلّ أشكال القمر .

٣) شرح التحفة الشاهية . شرحها بقال أفول . وصل به الى بحث الدوائر . وله تعليقة على المتن الى الباب التالي .

٤) الرسالة المحمدية . منها نسخة في خزانة الأشهر .

٥) شرح زيج أولوغ بك .

٦) مجموعة في النجوم . منها نسخة في الخزانة الحميدية باستنبول .

٧) مسرة القلوب في دفع الكروب .

وتوفي سنة ٨٧٩ هـ — ١٤٧٤ م .

ولم تنقطع العناية بالفلك بوفاة أولوغ بك . فان ركن الدين بن شرف الدين الحسيني الآملي كتب (الزيج الجامع السعيدي) . نقح به الزيج الايلخاني . كتبه بالفارسية لأمير زاده ابي القاسم بابربهادرشاه وجعله باسم السلطان ابي سعيد كوركان سنة ٨٦٠ هـ . منه نسخة في خزانة المجلس الايراني كتبت سنة ٨٨٩ هـ كما ان له (پنجاه باب سلطاني) في كليات الأعمال ومعرفة الاسطرلاب .

ومما كتب (زيج ملخص ميرزائي) تأليف عبد القادر بن حسن الروياني . كتبه بالفارسية وقدمه الى السلطان ميرزا علي .

ومن الأزياج (زيج هندي محمد شاهي) . تأليف محمد علي الشهير بـ (ميرخان) . كتبه سنة ١١٣١ هـ . ثم ان الشاه محمد عمل رصداً . وأرسل جماعة من العلماء لمراجعة أزياج أوربا وتحقيق الزيج فقاموا بما عهد اليهم وكتبوا زيجاً هندياً مصححاً لا يزال معروفاً بهذا الاسم (١) .

ومن هذا كله علمنا ان الثقافة الفلكية تمكنت في آل تيمور في ماوراء النهر وفي الهند . وان الهنود تأثروا بالعرب والايرانيين وأشهر من عني بعلم الفلك من الهنود المهراجا جاي سينگ الثاني (١٦٨٦ م — ١٧٤٢ م) وكان أمر بنقل المجسطي من العربية الى السنسكريتية وأقام المراصد في بعض المدن المختلفة . جهزها بآلات الرصد المعروفة آنئذ أولها الاسطرلاب (٢) .

ومن هنا علمنا اتصالات الأقطار بنا وبمجاورينا . وان الدولة التيمورية لم تكن متصلة بنا باستمرار وانما تخلل ذلك فترات عديدة دامت الى سنة ٨٠٨ هـ . ثم عاد الجلائرية فلم ترسخ لهم قدم ، بل انقرضوا من بغداد سنة ٨١٤ هـ — ١٤١١ م ونزلوا البصرة . والثقافة لم تكن دولية لتزول بزوال الدولة الحاكمة . وانما كانت ترعاها المدارس العلمية . وهي قائمة بموقوفاتها . وتمدها خزائن الكتب بالمعرفة . والروح العلمية راسخة في النفوس .

٤ — دول التركمان في العراق

من سنة ٨١٤ هـ — ١٤١١ م الى سنة ٩١٤ هـ — ١٥٠٢ م

قلت العناية بالعلم في هذه العهود أيام قراقوينلو وآق قويتلو الا أن المدارس كانت دائبة في عملها . والرغبة الشخصية ماضية في طريقها . ولم نستطع أن نسجل حوادث ذات شأن في الفلك والظاهر أن الحال اطرد على ما كانت .

---

(١) خزانة المجلس ص ١٠٢ .

(٢) الاسطرلاب عند العرب محاضرة للأستاذ أحمد مختار صبري ص ٢٧ طبعة جامعة فؤاد الاول سنة ١٩٤٧ م .

وظهر عندنا في التنجيم (ابن فهد الحلي) . ومثله (المشعشعون) . استخدموا الشعبذة أو الشعوذة لاستغلال البسطاء .

ولم ينفك العلماء عن الاهتمام بالعلوم ومنها الفلك بل لم تخل هذه العهود من مشتغلين وتغلبت الدراسات الفارسية لما رأت من الاهتمام بها في ايران وفي ماوراء النهر والهند والأناضول .

ومن الفلكيين المعروفين عندنا :

١ — الغياثي . مؤرخ وفلكي . وبراعته في الفلك غالبة . وفي تاريخه يتعرض لأمور فلكية . ومن مؤلفاته :

١) تاج المداخل . من أجل الآثار في الحياة . نقل به الى اللغة العربية تاج المداخل للحكيم الفاضل ابي جعفر محمد بن عبد الله الشريفي . وأصله باللغة الايرانية قدمه الى السپهسالار تاج الدين المعتز بن محي الدين طاهر الخوارزمي من أمراء الدولة السلجوقية ببلاد الروم . وابنه أمير شاه كتب له قطب الدين الشيرازي كتابه المسمى بالتحفة الشاهية . والكتابان ثروة علمية . والغياثي نقله الى العربية باسمه الأصلي . وبهذا حصل الاتصال العلمي فقد نقلت الأزياج الفارسية مثل زيج أولوغ بك وغيره مما روعي فيه تجدد العلم . فتجددت مباحث علم الفلك . والغياثي متصل بالتنجيم والطالع ومطالب القرانات . فهو عالم بالاختيارات . أخذ عن علماء الشام . وكتب كتابه هذا بخطه ومعه (مختصر نزهة النظر) في مجموعة في خزانة الآثار القديمة ببغداد . وتوفي بعد التسعمائة من الهجرة .

٥ — الدولة الصفوية في العراق

من سنة ٩١٤ هـ — ١٥٠٢ م الى سنة ٩٤١ هـ — ١٥٣٤ م

هذا العهد كان عهد حروب ومناضلات ، فما كان للعلوم حظ من العناية . ولا شك أنها سارت سيرتها الطبيعية في المدارس ، وفي الرغبة العلمية . ومن علماء هذا العهد (البرجندي) و (مير ابو الفتح) ويأتي الكلام عليهما .

العلاقات بالأقطار الاسلامية

هذه العلاقات قديمة ترجع الى أوائل اتصال الاسلام بالشعوب ثم لم تنقطع . وانما تأثرت بنا . والعلاقات في الفلك والرياضيات قديمة . وزاد الاتصال بسبب الفتح المغولي . ويعسر احصاء هذه الصلات . وما عرف يشير الى ما وراءه .

١ – العلاقات بايران

وهذه من أقوى العلاقات . كتبوا علومهم بلغتنا . وقلما كتبوا باللغة الايرانية لشدة الارتباط والمجاورة والاختلاط أحياناً . دام الى عهد المغول واستمر الى ما بعده . والعلوم الفلكية هذا شأنها . وفي نهضتها أيام المغول عند بناء الرصد استعانت بالثقافة العربية وبرجالها . والاسماعيلية في ايران اكثر اشتغالاً بالفلك لصلته بمذهبهم . ومن أبرز علمائهم الخواجة الطوسي . وحصل الانتفاع بما غنم المغول منهم من آلات فلكية . ويهمنا الآن ذكر العلاقات الى سنة ٩٤١ هـ – ١٥٣٤ م . ومن علمائهم :

١ – الأبهري : هو أثير الدين المفضل بن عمر الأبهري . وآثاره متداولة . ومن مؤلفاته الفلكية :

١) المجسطي في الهيأة . وهو من الكتب المختصرة .

٢) ثلاث رسائل في علم الفلك .

٣) الزيج المقتن . ألفه على مقتضى أوساط صححها ابو الوفاء محمد بن أحمد البوزجاني بعد الرصد المأموني . وأصلح الزيج العلائي .

توفي سنة ٦٦٢ هـ . ومنهم من قال غير ذلك .

٢ – الشريفي : هو ابو جعفر محمد بن عبد الله الشريفي وله من المؤلفات :

١) تاج المداخل . فارسي . نقله الى العربية الفياثي . ولم أعرف مكان النسخة الأصلية . والترجمة العربية في خزانة متحف الآثار القديمة ببغداد .

قدم المؤلف كتابه الى أحد أمراء السلجوقيين في بلاد الروم . وهو تاج الدين السپهسالار المعتز بن طاهر كما أن القطب الشيرازي قدم الى ابنه امير شاه محمد كتابه (التحفة الشاهية) . وكان تاج الدين أميراً أيام سليمان شاه البروانة .

٢) شرح التذكرة للخواجة الطوسي نقل منها الخفري في شرحه لتذكرة الخواجة .

٣ — الكاتبي القزويني : من العلماء الأفاضل في الفلك والحكمة . وكان ممن اشترك في رصد مراغة . وتوفي سنة ٦٧٥ هـ — ١٢٧٦ م . ولم نقف له على تأليف في الفلك .

٤ — قطب الدين الشيرازي : من أكابر العلماء لا سيما في الفلك وما يتعلق به . وكانت شهرته عالمية . ومن مؤلفاته :

١) نهاية الادراك أو ادراك الأفلاك . قدمه الى شمس الدين محمد الجويني . وعليه حاشية لسنان باشا . ومنه نسخة في خزانة الأوقاف العامة ببغداد من خزانة السيد نعمان خير الدين الآلوسي . كتبت سنة ٧٦٦ هـ .

٢) التحفة الشاهية في علم الهيأة . كتبت باللغة العربية . قدمها الى أمير شاه محمد بن تاج الدين المعتز بن طاهر . ومنها نسخة في خزانة مدرسة السپهسالار . وأخرى في خزانة الأوقاف ببغداد . ونسخة منها في برلين .

٣) الاختيارات المظفرية . فارسي في الهيئة . ألفه لمظفر الدين يولق أرسلان من سلاجقة الروم . كتبه بعد نهاية الادراك .

٤) الزيج السلطاني . ومنهم من نسبه للوابكيني البخاري . عدل به الزيج البتاني .

٥) درة التاج لملك دوباج . كتبه للملك كيلان بالفارسية . منه نسخ عديدة في خزانة الأوقاف العامة ببغداد . وطبع في ايران .

توفي في شهر رمضان سنة ٧١٠ هـ — ١٣١١ م .

٥ — النظام الأعرج : هو نظام الدين حسن بن محمد النيسابوري . وكان من علماء الفلك المعروفين . وله من المؤلفات :

١) الزيج العلائي . فارسي . صححه تلامذته بعد وفاته . ألفه لعلاء الدولة .

٢) تفسير التحرير . فرغ من تأليفه سنة ٧٠٤ هـ .

٣) شرح التذكرة . ويسمى (توضيح التذكرة) .

٤) الشمسية في الحساب .

وتوفي سنة ٧٢٨ هـ على ما هو الأظهر . وليس بصواب ما ذكر في كشف الظنون من انه توفي سنة ٨٢٨ هـ .

٦ — عبد الصمد المنجم التبريزي .

٧ — شمس الدين الحاج محمد العصار .

وغالب هؤلاء لم يخل من علاقة بالعراق . وتنتهي بهم الدولة الجلائرية .

وفي أيام الأمير تيمور وأخلافه استخدم علماء ايران . لا سيما في رصد سمرقند أيام أولوغ بك . وهم من ذكروا . وبينهم غياث الدين جمشيد . وأثروا كثيراً في التدوين بالفارسية . ويقال ان (الزيج الخاقاني) قد أثر على زيج أولوغ بك .

وفي أيام التركمان وأوائل الصفويين ظهر :

١ — البرجندي : وهو عبد العلي بن محمد البرجندي . وله من المؤلفات :

١) شرح التذكرة . باللغة العربية .

٢) بيست باب . ألفه سنة ٨٩٣ هـ .

٣) شرح تحرير المجسطي .

٤) شرح الزيج الجديد السلطاني . شرح به زيج أولوغ بك . ألفه سنة ٩٢٩ هـ .

٥) حاشية على ملخص المياة . شرح قاضي زاده .

وهذه مؤلفات تعليم لم تزد في الثقافة . ولا شك أن هذه العهود قد طرأ عليها توقف في أيام التركمان وأيام الصفويين . لم تتجاوز الوجهة التعليمية .

٢ ــ العلاقات بالترك في ما وراء النهر

الترك ثقافتهم اسلامية من أوائل اتصالهم بالاسلام وقد تكلمنا على ماضيهم في أيام المغول والتركمان ، ومن اشتهر منهم وبينا بعض مؤلفاتهم . ومنهم العلاء البخاري ، والجغميني . ثم ظهر آل تيمور في سمرقند ، فتكاثرت المعرفة بالوجه المبين .

٣ ــ العلاقات بالترك في الأناضول

١ ــ سلاجقة الروم . وهؤلاء زها علم الفلك في أيامهم في عهد المغول . وظهرت مؤلفات خدمت الثقافة . بذلوا البذل اللائق للحصول عليها . ومكنوا هذا العلم عندهم بما رعوا من علماء وردوا اليهم .

١) تاج المداخل في الهيأة للشربقي بالفارسية قدمه لأحد أمراء الأناضول تاج الدين السپهسالار . نقله الى العربية الغياثي سنة ٨٧٩ هـ ــ ١٤٧٤ م .

٢) تحرير المجسطي . للخواجة الطوسي . قدمه الى حسام الدين بن محمد السيواسي .

٣) التحفة الشاهية . لقطب الدين الشيرازي . قدمه الى ميرشاه محمد بن تاج الدين السپهسالار المذكور .

٤) الاختيارات المظفرية (له) كتبه لمظفر الدين يولق ارسلان المتوفى سنة ٦٩٠ هـ ــ ١٢٩١ م .

وهذه من صفوة المؤلفات . وتتكون منها ثروة علمية في الهيأة .

٢ ــ الترك العثمانيون . وهؤلاء جاءتهم الثقافة من سلاجقة الروم فبنوا على أساسها . وظهر فيهم جماعة العلماء ولم يقصروا في رعاية هذا العلم . ويقال لهم (علماء الروم) . وبعد فتح استنبول رعوا العلم . وتوسعوا في الفلك خاصة لما رأوا من ضرورة السير في البحار وعمل السفن الحربية . ومن مشاهير علمائهم :

١) قاضي زاده . أصله من بلاد الروم . استخدم لرصد سمرقند . مر الكلام عليه .

٢) علي القوشجي . وهذا أيضاً من علماء الروم عمل في مرصد سمرقند أيضاً . سبق أن ذكرناه .

٣) افه زاده . هو محمد بن سليمان . وله شرح بيست باب في الاسطرلاب للخواجة الطوسي .

٤) ميرم چلبي . هو الملا محمود بن محمد قاضي زاده . ابن بنت القوشجي وكان قد عمل في رصد مراغة . وله من المؤلفات :

١ — دستور العمل وتصحيح الجدول . شرح به زيج أولوغ بك .

٢ — رسالة في ربع المقنطرات .

٣ — رسالة في الربع المجيب

٤ — رسالة في الحساب .

٥ — رسالة في سمت القبلة . وذكرها كاتب چلبي مرتين .

٦ — شرح الفتحية القوشجي .

٧ — رسالة في الربع الشكازي .

٨ — رسالة في العمل به .

٩ — رسالة الزرقالة (فارسية) أخذها من عرب الأندلس .

١٠ — رسالة في الربع الجامع . وتوفي في ذي القعدة سنة ٩٣٢ هـ .

٥) المولى عطاء الله العجمي . له رسالة في الربع المجيب . وعليها شرح أخوين المولى محيي الدين محمد بن القاسم المتوفى في حدود سنة ٩٠٠ هـ .

٦) محمد بن سنان الكاتب القنوي . وله تحفة الفقراء في علم الميقات .

هؤلاء عرفوا في بلاد الروم . وبعد الاتصال بالأقطار العربية عظمت النهضة ولهذا البحث محله .

(يتبع) عباس العزاوي

أقدم تأليف في الحديث النبوي

صحيفة هَمّام بن مُنَبِّه ومكانتها في تاريخ علم الحديث

— ٢ —

صحيفة هَمّام بن مُنَبِّه

المولود سنة ٤٠ (؟) ، والمتوفى سنة ١٣١ أو ١٣٢ للهجرة ؛
تلميذ أبي هريرة رضي الله عنه المتوفى سنة ٥٨ من الهجرة

مخطوطة دمشق

ورقة الأصل الدمشقي (١ ب)

بسم الله الرحمن الرحيم عونك اللهم
الحمد لله رب العالمين . والصلوة على
رسوله محمد وآله أجمعين .

حدثنا الشيخ الامام الأجل الأوحد
الحافظ تاج الدين بهاء الاسلام بديع
الزمان ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن
مسعود المسعودي البندهي وفقه الله
وبصّره بعيوب نفسه بقراءته علينا
من أصل سماعه المنقول منه في المدرسة
الناصرية الصلاحية خلد الله ملك واقفها

في السادس والعشرين من ذي القعدة

سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، قال :

أخبرنا الشيخ الثقة الصالح

أبو الخير محمد بن أحمد بن محمد بن عمر

المقدر الإصبهاني قراءة عليه وأنا أسمع ،

قال :

أخبرنا[1] الشيخ أبو عمرو عبد الوهاب بن

أبي عبد الله محمد بن إسحق بن محمد بن يحيى بن

منده الإصبهاني ، قال :

أخبرنا والدي الإمام أبو عبد الله

محمد بن إسحق ، قال :

أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين بن

الحسن بن الخليل القطّان ، قال :

حدثنا أبو الحسن أحمد بن

يوسف السُّلمي ، قال :

حدثنا عبد الرزاق بن همّام بن

نافع الحميري ،

عن مَعْمَر ،

عن همّام بن منبّه ، قال :

هذا ما حدّثنا أبو هريرة ،

عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

قال :

(١) من هنا يبدأ سند النسخة البرلينية بعد البسملة .

١ — نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم - فهذا يومهم الذي فرض عليهم . فاختلفوا فيه . فهدانا الله له . فهم لنا فيه تبع ؛ فاليهود غداً ، والنصارى بعد غد .

٢ — وقال رسول الله ﷺ : مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بيوتاً ، فأحسنها وأجملها وأكملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها . فجعل الناس يطوفون ، ويعجبهم البنيان . فيقولون : ألا وضعت هاهنا لبنة ، فتمّ بناؤه ؟ فقال محمد ﷺ : فأنا اللبنة .

٣ — وقال رسول الله ﷺ : مثل البخيل والمتصدق (٢ آ) كمثل رجلين ، عليهما جبّتان ـ أو جنّتان ـ من حديد الى ثدييهما ، أو إلى تراقيهما . فجعل المتصدق كلما تصدق بشيء ، ذهبت عن جلده حتى تجن بنانه ويعفو أثره . وجعل البخيل كلما أنفق شيئاً ، أو حدّث به نفسه ، عضّت كل حلقة مكانها ، فيوسّعها ولا تتسع .

٤ — وقال رسول الله ﷺ : مثلي كمثل رجل استوقد ناراً . فلما أضاءت ما حولها ، جعل الفَراش وهذه الدوابّ التي يقعن في النار ، يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ، ويغلبنه ، فيتقحمن فيها . فذاك مثلي ومثلكم : أنا آخذ بحجزكم عن النار : هلمّ عن النار ، هلمّ عن النار ، فتغلبوني تقحمون فيها .

٥ — وقال رسول الله ﷺ : في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ، لا يقطعها .

٦ — وقال رسول الله ﷺ إياكم والظن ؛ إياكم والظن ؛ إياكم والظن ! فان الظن أكذب الحديث ، ولا تناجشوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تنافسوا ، ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا .

(٣) بهامش الدمشقية : سقط من اصل السماع كلة « بنانه » .
(٥) لا يذكر هذا الحديث في رواية ابن حنبل .

٧ — وقال رسول الله ﷺ : في الجمعة ساعة لا يوافقها مسلم وهو يصلي يسأل ربه شيئاً إلا آتاه إياه .

٨ — وقال رسول الله ﷺ : الملائكة يتعاقبون فيكم : ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ؛ ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر . ثم يعرج اليه الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ، وهو أعلم بهم ؛ كيف تركتم عبادي ؟ قالوا : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون .

٩ — وقال رسول الله ﷺ : الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه ، وتقول : « اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه » ، ما لم يحدث .

١٠ — وقال رسول الله ﷺ : إذا قال أحدكم آمين ، والملائكة في السماء [آمين] فوافق احداهما الاخرى ، غفر له ما تقدم من ذنبه .

١١ — وقال أبو هريرة : بينما رجل يسوق بدنة مقلدة ، فقال له رسول الله ﷺ : اركبها . فقال : إنها بدنة ، يا رسول الله . فقال : ويلك ، اركبها ؛ ويلك اركبها .

١٢ — (٣ ب) وقال رسول الله ﷺ ناركم هذه ، مايوقد بنو آدم ، جزء من سبعين جزءاً من حرّ جهنم . فقالوا : والله ، ان كانت لكافيتنا يارسول الله . قال : فانها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرّها .

١٣ — وقال رسول الله ﷺ : لما قضى الله الخلق ، كتب كتاباً ، فهو عنده فوق العرش ، « إن رحمتي غلبت غضبي » .

١٤ — وقال رسول الله ﷺ : والذي نفس محمد بيده ، لو تعلمون ما أعلم ، لبكيتم كثيراً ، ولضحكتم قليلاً .

---

(١٢) في المخطوطتين : « بنو آدم » .

(١٤) وهو بين ١٤ و ١٥ - زاد ابن حنبل ههنا حديثاً لا يوجد في المخطوطتين وهو : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه » .

١٥ — وقال رسول الله ﷺ : الصيام جُنَّة . فاذا كان أحدكم يوماً صائماً ، فلا يجهل ، ولا يرفث . فان امرؤ قاتله ، أو شاتمه ، فليقل : إني صائم ، إني صائم .

١٦ — وقال رسول الله ﷺ : والذي نفس محمد بيده ، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ؛ يذر شهوته وطعامه وشرابه من جراي ؛ فالصيام لي ، وأنا أجزي به .

١٧ — وقال رسول الله ﷺ : نزل نبيٌ من الأنبياء تحت شجرة ، فلدغته نملة . فأمر بجهازه فأخرج من تحتها ؛ فأمر بها فأحرقت في النار . فأوحى [الله] اليه : فهلاّ نملة واحدة ؟ !

١٨ — وقال رسول الله ﷺ : والذي نفس محمد بيده ، لولا أن أشقّ على المؤمنين ، ما قعدتُ خلف سريّة تغزو في سبيل الله . ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة فيتبعوني ، ولا تطيب أنفسهم أن يقعدوا بعدي .

١٩ — وقال رسول الله ﷺ : لكل نبي دعوة تستجاب له . فأريد ، ان شاء الله أن أؤخر دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة .

٢٠ — وقال رسول الله ﷺ : من أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه . ومن لم يحب لقاء الله ، لم يحب الله لقاءه .

٢١ — وقال رسول الله ﷺ : (٣ آ) من أطاعني ، فقد أطاع الله ؛ ومن يعصني ، فقد عصى الله ؛ ومن يطع الأمير ، فقد أطاعني ؛ ومن يعص الأمير ، فقد عصاني .

٢٢ — وقال رسول الله ﷺ : لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال ، فيفيض ، حتى يهمّ ربّ المال من يتقبل منه صدقته . قال : ويُقبَض العلم ،

(١٩) بهامش الدمشقية : « خ أدخر » . وفي البرلينية : « ادخر » في المتن ، وفي « اوخر » بالهامش .

ويقترب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج . قالوا : الهرج ، ما هو ، يارسول الله ؟ قال : القتل ، القتل .

٢٣ — وقال رسول الله ﷺ : لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ، تكون بينهما مقتلة عظيمة ، ودعواهما واحدة .

٢٤ — وقال رسول الله ﷺ : لا تقوم الساعة حتى ينبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين ، كلهم يزعم أنه رسول الله .

٢٥ — وقال رسول الله ﷺ : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها . فاذا طلعت ورآها الناس ، آمنوا أجمعون . وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً .

٢٦ — وقال رسول الله ﷺ : اذا نودي بالصلاة ، أدبر الشيطان ، له ضراط ، حتى لا يسمع التأذين . فاذا قضي التأذين أقبل ؛ حتى اذا ثوّب بها أدبر ؛ حتى اذا قضي التثويب ، أقبل يخطر بين المرء ونفسه ، ويقول له : «اذكر كذا ؛ اذكر كذا» لما لم يكن يذكر من قبل ؛ حتى يظلّ الرجل إن يدري كيف صلى .

٢٧ — وقال رسول الله ﷺ : يمين الله ملأى ، لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض ؟ فانه لم ينقص مما في يمينه . قال : وعرشه على الماء . وبيده الأخرى القبض ، يرفع ويخفض .

٢٨ — وقال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده ، ليأتينّ على احدكم يوم لا يراني ، ثم لأن يراني أحبّ اليه من مثل أهله وماله معهم .

٢٩ — وقال رسول الله ﷺ : يهلك كسرى ثم لا كسرى بعده ، وقيصر ليهلكنّ ، ثم لا يكون قيصر بعده ؛ ولتنفقنّ كنوزهما في سبيل الله . وسمى الحربَ «خدعةً» .

٣٠ — وقال رسول الله ﷺ : إن الله عز وجل قال : أعددت (٣ ب) لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

٣١ — وقال رسول الله ﷺ : ذروني ما تركتكم . فانما هلك الذين من قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فاذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، واذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم .

٣٢ — وقال رسول الله ﷺ : إذا نودي للصلاة ، صلاة الصبح ، وأحدكم جنب ، فلا يصوم يومئذ .

٣٣ — وقال رسول الله ﷺ : لله تسعة وتسعون اسماً ، مائة الا واحداً . من أحصاها دخل الجنة . إنه وتر ، يحب الوتر .

٣٤ — وقال رسول الله ﷺ : اذا نظر أحدكم الى من هو فُضّل عليه في المال والخُلُق ، فلينظر الى من هو أسفل منه ممن فضل عليه .

٣٥ — وقال رسول الله ﷺ : طهور إناء أحدكم ، اذا ولغ الكلب فيه ، فليغسله سبع مرات .

٣٦ — وقال رسول الله ﷺ : والذي نفس محمد بيده ، لقد هممتُ أن آمر فتياني أن يستعدُّوا لي بحزم من حطب ، ثم آمر رجلاً يصلي بالناس ، ثم أُحرق بيوتاً على من فيها .

٣٧ — وقال رسول الله ﷺ : نصرتُ بالرعب . وأُوتيت جوامع الكلم .

٣٨ — وقال رسول الله ﷺ : اذا انقطع شسع نعل أحدكم ، أو شراكه ، فلا يمش في إحداهما بنعل واحدة ، والأخرى حافية : ليحفهما جميعاً أو لينعلهما جميعاً .

---

(٣١) في المخطوطتين بالهامش : « خ تركتم » (أي بدل : تركتكم) . د بالهامش : « خ فاشتروا » .

(٣٥) بهامش البرلينية : « خ طهر » (أي بدل : طهور) .

(٣٧) بهامش الدمشقية : « خ الكلام » (أي بدل : الكلم) .

٣٩ — وقال رسول الله ﷺ : لا يأتي ابن آدم النذر بشيء لم أكن قد قدرته ، ولكن يلقه النذر وقد قدرته له ، استخرج به من البخيل ويؤتيني عليه ما لم يكن آتاني من قبل .

٤٠ — وقال رسول الله ﷺ : إن الله قال : « أنفق أُنفق عليك » . وسمى الحرب « خدعة » .

٤١ — وقال رسول الله ﷺ : رأى عيسى بن مريم رجلاً يسرق . فقال له عيسى : [سرقتَ ؟ فقال : كلا ، والذي لا إله إلا هو . فقال عيسى : آمنتُ بالله وكذّبتُ عيني .

٤٢ — وقال رسول الله ﷺ : ما أُوتيكم من شيء ولا أمنعكموه . إن أنا إلا خازن أضع حيث أُمرتُ .

٤٣ — وقال رسول الله ﷺ : (٤ آ) إنما الإمام ليؤتمّ به . فلا تختلفوا عليه . فاذا كبّر ، فكبّروا ؛ واذا ركع ، فاركعوا ؛ واذا قال : سمع الله لمن حمده ، فقولوا : « اللهم ربنا لك الحمد » ؛ فاذا سجد ، فاسجدوا . واذا صلى جالساً ، فصلوا جلوساً أجمعين .

٤٤ — وقال رسول الله ﷺ : أقيموا الصفّ في الصلاة . فان اقامة الصف من حسن الصلاة .

٤٥ — وقال رسول الله ﷺ : تحاجّ آدم وموسى . فقال له موسى أنت آدم الذي أغويتَ الناس فأخرجتهم من الجنة الى الأرض ؟ فقال له آدم : أنت موسى الذي أعطاه الله علم كل شيء ، واصطفاه على الناس برسالته ؟ قال : نعم . قال : أتلومني على أمر قد كتب عليّ أن أفعل من قبل أن أُخلَق ؟ فحجّ آدم موسى .

(٤١) ضاع ورقة في ب . و « [» علامة ابتداء السقطة .

٤٦ — وقال رسول الله ﷺ : بينما أيوب يغتسل عرياناً ، خرَّ عليه رجل جراد من ذهب . فجعل أيوب يحثي في ثوبه . قال : فناداه ربه : يا أيوب : ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يارب ، ولكن لا غنى بي عن بركتك .

٤٧ — وقال رسول الله ﷺ : خفف على داود القرآن . فكان يأمر بدوابه تسرج . فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته . وكان لا يأكل إلا من عمل يديه .

٤٨ — وقال رسول الله ﷺ : رؤيا الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

٤٩ — وقال رسول الله ﷺ : يسلّم الصغير على الكبير ، والمارّ على القاعد ، والقليل على الكثير .

٥٠ — وقال رسول الله ﷺ : لا أزال أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله . فاذا قالوا لا اله الا الله ، فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم وأنفسهم إلا بحقها وحسابهم على الله .

٥١ — وقال رسول الله ﷺ : تحاجّت الجنة والنار . فقالت النار : أوثرتُ بالمتكبرين والمتجبرين . وقالت الجنة : فمالي ، لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وغرّتهم . فقال الله للجنة : إنما أنت رحمتي ، أرحمُ بكِ من أشاء من عبادي . وقال للنار : إنما أنتِ عذابي : أعذّب بك من أشاء من عبادي . ولكل واحدة منكما ملؤها . فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله تعالى فيها رجله فتقول : قطِ قطِ . فهنالك تمتلي ويزوي بعضها الى بعض . ولا يظلم الله من خلقه (٤ ب) أحداً . وأما الجنة فان الله عزّ وجل ينشئ لها خلقاً .

٥٢ — وقال رسول الله ﷺ : إذا استجمر أحدكم فليوتر .

٥٣ — وقال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : اذا تحدّث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ، ما لم يعملها ؛ فاذا عملها فأنا أكتبها له

بعشر أمثالها . واذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها ؛ فاذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها .

٥٤ – وقال رسول الله ﷺ : والله ، لقيد سوط أحدكم من الجنة خير له مما بين السماء والأرض .

٥٥ – وقال رسول الله ﷺ : ان أدنى مقعد أحدكم من الجنة ان هيئ له أن يقال له : تمنّ . فيتمنى ويتمنى . فيقال له : هل تمنيت ؟] فيقول : نعم . فيقول له : فإن لك ما تمنيت ومثله معه .

٥٦ – وقال رسول الله ﷺ : لولا الهجرة ، لكنت امرءاً من الأنصار . ولو يندفع الناس في شعبة ، أو في وادٍ ، والأنصار في شعبة ، لاندفعتُ مع الأنصار في شعبهم .

٥٧ – وقال رسول الله ﷺ : لولا بنو اسرائيل ، لم يخبث الطعام ولم يخنز اللحم . ولولا حواء ، لم تخن أنثى زوجها الدهر .

٥٨ – وقال رسول الله ﷺ : خلق الله آدم على صورته : طوله ستون ذراعاً . فلما خلقه ، قال : « اذهبْ فسلِّمْ على أولئك النفر » – وهم نفر من الملائكة جلوس – « فاستمع ما يحيّونك . فانها تحيتك وتحية ذريتك » . قال : فذهب ، فقال : السلام عليكم . فقالوا : وعليك السلام ورحمة الله ، فزادوا « ورحمة الله » . قال : فكل من يدخل الجنة على صورة آدم : طوله ستون ذراعاً . فلم يزل الخلق ينقص بعدُ حتى الآن .

٥٩ – وقال رسول الله ﷺ : جاء ملك الموت الى موسى ، فقال له :

(٥٥) « [» علامة انتهاء السقطة في ب .

(٥٧) في المخطوطتين : « بنوا اسرائيل » .

(٥٨) بهامش البرلينية : « خ مما : يجيبونك » (اي بدل : يحيونك) . وفيه أيضاً « خ مما فزادوه » (اي بدل : فزادوا) .

أجبْ ربك . قال : فلطم موسى عين ملك الموت ، ففقأها . قال : فرجع الملك الى الله عز وجل ، فقال : إنك أرسلتني الى عبد لك لا يريد الموت ؛ وقد فقأ عيني . قال : (٥ آ) فردّ الله اليه عينه ؛ قال : ارجعْ الى عبدي فقل له : الحياة تريد ؟ فان كنت تريد الحياة ، فضعْ يدك على متن ثور ؛ فما وارت يدك من شعرة فانك تعيش بها سنة . قال : ثم مه ؟ قال : ثم تموت . قال : فالآن من قريب . قال : ربّ ادنني من الأرض المقدسة رمية بحجر . وقال رسول الله ﷺ : لو أني عنده ، لأريتكم قبره الى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر .

٦٠ — وقال رسول الله ﷺ : كانت بنو اسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم الى سوأة بعض ، وكان موسى يغتسل وحده . فقالوا : والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر . قال : فذهب مرة يغتسل ، فوضع ثوبه على حجر ، ففرّ الحجر بثوبه . قال : فجمح موسى في أثره ، يقول : « ثوبي ، حجر ؛ ثوبي ، حجر ! » حتى نظرت بنو اسرائيل الى سوأة موسى ، فقالوا : والله ، ما بموسى من بأس . قال : فقام الحجر بعد ما نُظر اليه ، فأخذ ثوبه ، وطفق بالحجر ضرباً . فقال أبو هريرة : والله ، إنه ندب بالحجر ستة أو سبعة ضرب موسى بالحجر .

٦١ — وقال رسول الله ﷺ : ليس الغنى من كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس .

٦٢ — وقال رسول الله ﷺ : إن من الظلم مطل الغني . وإن اتبع أحدكم على مليء فليتبع .

٦٣ — وقال رسول الله ﷺ : أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه وأغيظه عليه رجل كان يسمى ملك الأملاك ، لا ملك الا الله عز وجل .

(٦٠) في المخطوطتين : « بنوا اسرائيل » .

٦٤ — وقال رسول الله ﷺ : بينما رجل يتبختر في بردين وقد أعجبته نفسه ، خسف به الأرض ، فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة •

٦٥ — وقال رسول الله ﷺ : قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي •

٦٦ — وقال رسول الله ﷺ : من يولد ، يولد على هذه الفطرة • فأبواه يهودانه وينصرانه • كما تنتجون البهيمة ، هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها ؟ قالوا : (٥ ب) يا رسول الله ، أفرأيت من يموت ، وهو صغير ؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين •

٦٧ — وقال رسول الله ﷺ : إن في الانسان عظماً ، لا تأكله الأرض أبداً • فيه يركب يوم القيامة • قالوا : أي عظم ؟ قال : عجم الذنب • وقال أبو الحسن : إنما هو « عجب » ، ولكنه قال بالميم •

٦٨ — وقال رسول الله ﷺ : إياكم والوصال ، إياكم والوصال ، قالوا : فانك تواصل يا رسول الله • قال : اني لست في ذلكم مثلكم : اني أبيت يطعمني ربي ويسقيني ؛ فاكفلوا من العمل ما لكم به طاقة •

٦٩ — وقال رسول الله ﷺ : اذا استيقظ أحدكم فلا يضع يده على الوضوء حتى يغسلها • إنه لا يدري أحدكم أين باتت يده •

٧٠ — وقال رسول الله ﷺ : كل سلامي من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع عليه الشمس • قال : تعدل بين الاثنين ، صدقة • وتعين الرجل في دابته وتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه ، صدقة • والكلمة الطيبة ، صدقة • وكل خطوة تمشيها الى الصلاة ، صدقة • وتميط الأذى عن الطريق ، صدقة •

(يتبع) الدكتور محمد حميد الله

التعريف والنقد

اللغة العربية

أصولها النفسية وطرق تدريسها

تأليف الدكتور عبد العزيز عبد المجيد (دار المعارف بمصر)

هذا الكتاب انما هو خلاصة تجارب الدكتور عبد العزيز عبد المجيد وقراءاته ومباحثه ودراساته في ميدان تدريس اللغة خلال اثني عشر عاماً .

أصبح التدريس علماً وفناً بعد أن كان فناً على نحو ما أشار اليه المؤلف في المقدمة وأصبحت له قواعد ثابتة كشف عنها علم النفس وقد ذكر المؤلف هذه القواعد في مؤلفه على قدر ما وصل اليه العلماء في مباحثهم وتجاربهم وأضاف الى هذا كله نتائج تجاربه الخاصة في تدريس اللغة العربية على اختلاف مراحل هذا التدريس .

قد يطول الكلام على الموضوعات التي خاض فيها صاحب الكتاب وأكثرها حديث لم تشر اليه كتب اللغة في قديم عصورنا وانما هو من مستحدثات هذا العصر وقد استشهد المؤلف بآراء كثير من العلماء في تعريف اللغة وفي الصلة بينها وبين الفكر وفي المراكز العصبية للغة وغير ذلك من الموضوعات الدقيقة ولئن اهتم علماء اللغة بمعرفة تكوين اللغات وما لتركيب الأعضاء وعلم النفس والاجتماع من أثر في هذا التكوين فانما نهتم معاشر الأدباء باللغة من حيث أنها أداة تنقل بها الى الناس فكرنا وشعورنا وحسنا وذوقنا وينقل الناس بها الينا هذه الأمور كلها وعلى ما به فلا بدّ لنا في مثل هذا الاهتمام من معرفة أصول تدريس هذه اللغة والاهتداء الى ذوق محاسنها والأستاذ المؤلف مارس

هذا التدريس وتدل على براعته في هذه المدرسة نظراته الثاقبة في تدريس البلاغة أو في فهم الشعر ومن هذه النظرات اشارته المختصرة الى أبيات البحتري المشهورة في وصف الربيع فبعض أساتذة الأدب اذا بلغوا الى هـذه الأبيات وامثالها اقتصروا على شرح ألفاظها ومشتقاتها وعرضوها عرضاً جامداً لا حياة فيه فذهبوا بنضرتها وروعتها وقضوا على محاسنها لأنهم لم يدركوا حقيقة أصوات الطبيعة فيها وحركاتها وإشاراتها وألوانها ومن نظراته الثاقبة اشارته الى بعض أبيات المعري وارشاده الى أسلوب تدريس هذه الأبيات ٠

أجل ! انا لا نهتم معاشر الأدباء بفهم اللغة من ناحية الأعضاء أو علم النفس والاجتماع بقدر اهتمامنا بهذا الفهم من ناحية التدريس فقد يمرّ بنا في خلال التدريس لفظ محسوس يكاد يكون صورة ناطقة بنفسه أو قد يمرّ بنا لفظ شديد التناسب بينه وبين معناه فمهمتنا في التدريس الاشارة الى هـذا اللفظ واستخراجه من مدفنه وعرضه على الأذهان حتى تشعر بمحاسنه وحتى تذوق هذه المحاسن فاذا لم تفهم حسن الألفاظ حق الفهم فقد نخفق في نقل أفكارنا وشعورنا الى الناس وما يقال في مفردات اللغة يقال في الجمل فالبلاغة لا تدرّس مجردة والتعريفات الجامدة لا قيمة لها وانما البلاغة تدرّس في قطعة من القطع الأدبية فالأستاذ الذي يفسر نصاً أدبياً يشير الى ما اشتمل عليه هذا النص من وجوه البلاغة وعلى هذا الشكل يكون ادراك الطالب للبلاغة ولسرّ الألفاظ والجمل أتمّ ٠

هذا كله أشار اليه الدكتور عبد العزيز عبد المجيد في كتابه وهـذا هو الذي يهمنا معاشر الأدباء من كتابه الحديث في آرائه ومذاهبه ، انا في حاجة شديدة الى أساليب حديثة في فهم لغتنا وأدبنا واذا كنا نمرّ في كثير من الأحيان بقطع أدبية تكاد تكون آية في البلاغة وحسن التنسيق فقد نمرّ في بعض الأحيان بفصول كاملة تكاد تكون فوضى ولا سيما فصول التراجم

فقد يشير المؤلف الى وفاة الرجل قبل الاشارة الى ميلاده ويذكر مؤلفاته قبل ذكر ثقافته وأساتذته وينقد طائفة من هذه المؤلفات قبل الاشارة اليها وهذا كله يؤثر في تفكيرنا أسوأ تأثير ويجعل هذا التفكير فوضى لا نظام له ، نبدأ من حيث يجب أن ننتهي ، وننتهي من حيث يجب أن نبدأ .

فاذا كان فضل الدكتور عبد العزيز عبد المجيد عظيماً في تعريفنا باللغة من حيث صلتها بتركيب الأعضاء أو بعلم النفس أو بالاجتماع فان فضله أعظم من حيث ارشادنا الى تدريس اللغة والأدب على أحدث الأساليب .

طبقات فحول الشعراء

تأليف محمد بن سلام الجمحي

شرحه محمود محمد شاكر (دار المعارف للطباعة والنشر)

صدّر الأستاذ محمود محمد شاكر كتاب طبقات فحول الشعراء بمقدمة بسط فيها أول عهده بهذا الكتاب وبيّن كيف عثر على نسخته المخطوطة وأشار الى طبع كتاب طبقات الشعراء لأول مرّة ووضح الاختلاف بين نسخته التي ظفر بها وبين النسخ المطبوعة ثم دوّن ترجمة راوية الكتاب أبي خليفة الجمحي وهو ابن اخت محمد بن سلام صاحب الطبقات كما دون ترجمة ابن سلام نفسه وردّ على المستشرق الألماني يوسف هيل وجمع من كتاب الأغاني لأبي الفرج كل ما وقف عليه مما فيه ذكر ابن سلام وتولى شرح الديوان وخالف في بعض شرحه بعض ما ذهب اليه الأئمة .

من هذه المخالفات ما جاء في شرح أبيات الفرزدق المشهورة :

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها ترةً من جذبها بالعصائب

سروا يركبون الريح وهي تلفهم الى شعب الأكوار ذات الحقائب

قال الأستاذ في الشرح : وأجود الروايات : يخبطون الليل ويركبون الليل ... فلو قال : وفي رواية : يخبطون الليل أو يركبون الليل ... لما كان لنا اعتراض ، أما أن يقول : وأجود الروايات ... فهذا كلام قد يكون لنا رأي فيه فان كلمة الريح في بيت الفرزدق تكاد تكون صورة شعرية ناطقة بسبب هذه المناسبة الشديدة بين السرعة وبين الريح ، فضلاً عن أن العصر الذي نعيش فيه انما هو عصر الطيارات ، فاذا أحببنا أن نقول الشعر في طيار من الطيارين أفترى أصلح من قولنا : يا راكب الريح ! على أن المسألة مسألة ذوق في اختيار الألفاظ ولا جدال في الأذواق .

واذا أحببت أن أجمل خصائص مقدمة الاستاذ محمود محمد شاكر وخصائص شرحه فاني لا أرى مندوحة عن الاعتراف بظهور آثار التحقيق والتدقيق على هذه المقدمة وهذا الشرح ، دع أن الأستاذ منصف كل المنصف فقد رغب الى كل من يعنّ له رأي في شيء مما ذكره وأشار اليه أو في نقد لما قاله أو فعله أن يرسل اليه هذا الرأي وهذا النقد .

أما كتاب طبقات فحول الشعراء فقد فصّل فيه الجمحي الشعراء من أهل الجاهلية والاسلام والمخضرمين فنزّلهم منازلهم واحتجّ لكل شاعر بما وجد له من حجة وما قال فيه العلماء ومضى له قول في الشعر واختلاف العلماء فيه وفي صناعته وثقافته وذكر أول من تكلم بالعربية وأول من استنّها وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها وهو أبو الأسود الدؤلي وذكر من جاء بعده ثم رجع الى الكلام على الشعر في الجاهلية والاسلام وعلى ذهابه وسقوطه ثم ذكر بعض ما روي من قديم الشعر وأشار الى بعض الزيادات التي زادها الرواة والى بعض التوليدات التي ولّدوها .

اذا كنا نطالع كتاب طبقات فحول الشعراء ليكون لنا رأي في طبقة

كل شاعر في الشعر فهذا أمر غير يسير ، فمن كلام يونس بن حبيب : ماذكر جرير والفرزدق في مجلس شهدته قط فاتفق المجلس على أحدهما ، معنى هذا أن الأذواق تختلف اختلافاً عظيماً في تقدير نتاج الخواطر وثمرات القرائح ومهما نشأ أن نضع قواعد عامة في النقد فقد تكون قاعدة هذا الاختلاف أعم القواعد لأن لكل ناقد رأياً خاصاً وذوقاً خاصاً وشعوراً خاصاً ومن الصعب أن نجد اجماعاً في أمور الفن يشبه الإجماع في أمور العلم .

أما اذا كنا نطالع كتاب الجمحي لنرى فيه اثراً من آثار الشعور والعاطفة والوصف في شعر بعض أهل الجاهلية والاسلام والمخضرمين فقد نظفر من هذا كله بأشياء كثيرة حتى اذا أراد ناقد الشعر على مختلف أزمانه وأطواره أن يقابل ويوازن ويقايس فانه يرى مجال هذه المقابلات والموازنات والمقايسات ذا سعة وكذلك اذا أراد عالم اللغة أن يشهد حياة الألفاظ التي تعيش في عصر من العصور ثم تموت في عصر آخر فانه يشهد من هذا الشكل أموراً غريبة تدل على أن الألفاظ تولد فتعيش وتموت على نحو المخلوقات الحية .

شفيق جبري

تصحيح خطأ مطبعي

وقع خطأ في الصفحة (٢٤) من مقال : « تعريف الاصطلاحات العلمية » المنشور في الجزء الأول من المجلد الثامن والعشرين ما يلي :

«مع تبديل وتحديد معناه تحديداً جديداً » وصوابه «مع تبديل معناه وتحديده تحديداً جديداً » .

وجاء في الصفحة ٢٧ من المقال نفسه «Hipothèse» وصوابه «Hypothése».

تهذيب الصحاح

معجم (الصحاح) للجوهري أشهر معاجم اللغة وأوثق مصادرها . ولفظ الصحاح يجوز فيه كسر الصاد جمعاً لصحيح وفتحها وصفاً مفرداً بمعنى الصحيح . وانما سمي به لأن مؤلفه رحمه الله توخى أن يدوّن فيه ما ثبتت عنده صحة استعماله في كلام العرب . ولا سيما الذين سكنوا ديار مُضَر منهم . ووقع في (الصحاح) هنات : من مثل تكرر الكلام في شرح بعض المواد اللغوية واستطرادات قليلة لا فائدة فيها ووهَم في تفسير بعض كلمات اللغة ـ كل ذلك حمل الفضلاء والغُيُر على اللغة العربية وعلى مصدر يعتبر في طليعة مصادرها ـ حملهم على العناية بهذا الكتاب شرحاً وتعليقاً واستدراكاً . ومن جملة خدمتهم له تهذيبه بحذف ما لا يعلق بمصلحة الطالب المستفيد . وأشهر تهاذيبه وأقدمها نشراً وطبعاً كتاب (مختار الصحاح) . ومن أمتعها فائدة وأجزلها عائدة (تهذيب الصحاح) تأليف (محمود بن احمد الزنجاني) الذي استشهد في فتنة التتار ببغداد سنة ٦٥٦ ﻫ وقد وجدت مخطوطة من هذا الكتاب نادرة في خزانة كتب الأستاذ الشيخ محمد سرور الصبان فأحب نشرها بالطبع ليرتوي النشء من منهلها العذب . ويجتنوا من أدواحها الثمر الرطب . فعهد بذلك الى أستاذين فاضلين من أشهر رجال الثقافة اللغوية العربية وأنشطهم في نبش آثارها والكشف عن أسرارها : أحدهما حجازي وهو احمد عبد الغفور عطار والآخر مصري وهو عبد السلام محمد هارون . فقاما بهذه المهمة خير قيام . وأحكموا صنعها أحسن إحكام . وطبع الكتاب في (دار المعارف) مُهدى الى صاحب الجلالة (عبد العزيز آل سعود) ومزيناً برسمه الكريم ومفتتحاً بثلاث مقدمات بقلم صاحب النسخة ومحققيها الفاضلين ومفرغاً بثلاثة أجزاء أو ثلاثة أقسام بلغ عدد صفحاتها أكثر من ألف ومئة صفحة . وقد طبع مع القسم الثالث ملاحق وفهارس تصلح أن تكون جزءاً قائماً بنفسه . والمهم من ذلك كله التعليقات التي

طبعت في ذيل الصفحات شرحاً وبياناً لموضع الحاجة في الكتاب وهي التي جعلت الكتاب أجزاء فخمة ولو اقتصر فيه على ما قاله المؤلف الزنجاني وانتقاه وهذّبه لما تخطى أن يكون الكتاب جزءاً لطيف الحجم كمختار الصحاح مثلاً . فيكون ناشرو الكتاب تجاوزوا غرض المؤلف وعادوا على موضوعه بالنقض : هو أراد أن يخفف مؤنة اللغة على طالبيها فيكون (الصحاح) كتاباً خفيف الحمل قريب التناول والناشرون أبى حرصهم على العلم ونشر فوائده الا أن يجعلوا من الكتاب بحراً خضماً .

هذه بادرة أو خاطرة عابرة — كما يقولون — والا فقلما يحظى محب اللغة والحريص على شواردها وفوائدها بمثل هذا الكتاب جمعاً وتحقيقاً وحسن ايراد ولطيف مأخذ .

والكلام على ما ألف في اللغة من كتب ومعاجم والمقارنة بينها ومنزلة (الصحاح) منها وتهاذيبه والموازنة بينها والمؤلف وشيء من سيرته وسائر ما له علاقة بالتعريف بهذا الكتاب — كل ذلك أتى عليه الاستاذ (احمد عبد الغفور العطار) في مقدمته الثالثة للكتاب . والنفس تنازعني أن أنقل بعض التعليقات على ذلك الكتاب لكن رأيت أن الأمر يطول وأن الأجدر بي أن أنقل اليه بعض ما كتبه (الاستاذ العطار) في مقدمته للتعريف بهذا الكتاب :

قال : ان نسخة تهذيب الصحاح هي نسخة فريدة نادرة في خزائن العالم جميعاً ، كتبت بخط يشبه خط القرن التاسع الهجري ، وليس على النسخة اسم الكتاب ولا مؤلفه ، ولم نجد فيما لدينا من المراجع نصاً صريحاً يدلنا عليه ، وأما اسم مؤلفه فقد اهتدينا اليه بما ورد في مقدمة الكتاب التي نقل بعضها السيد محمد صديق حسن خان بهادر ، ملك مملكة بهوبال في صفحة ١٢٩ من كتابه « البلغة في أصول اللغة » في الفصل الذي عقده عن صحاح الجوهري ، وذكر أنها مقدمة محمود بن احمد الزنجاني للكتاب الذي اختصر فيه كتابه الآخر « ترويح الارواح ، في تهذيب الصحاح » .

وهذا نص « البلغة » : « واختصره محمود بن احمد الزنجاني المتوفى سنة ...
قال : لما فرغت من كتاب ترويح الأرواح ، في تهذيب الصحاح ، ووقع حجمه موقع الخمس من كتابه بتجريد لغته من النحو والتصريف الخارجين عن فنه ، واسقاط ما لا حاجة اليه من الأمثال والشواهد أوجزته ايجازاً ثانياً حتى وقع حجمه موقع العشر » .

قال : وقد فكرنا في اختيار اسم لهذا الكتاب الذي لم يسم على نسخة الأصل ولا في المراجع التاريخية ، فرأينا أن نقتبس له اسماً من الكتاب الآخر للمؤلف ، وهو « ترويح الأرواح في تهذيب الصحاح » فأسميناه « تهذيب الصحاح » .

رحلة « ريج *Rich* » في العراق

عام ١٨٢٠ م

من يوم أن التحقت البلاد العربية بالدولة العثمانية وأصبحت جزءاً منها (أي منذ أربعمائة سنة) نزلت آية الحجاب عليها : فلم يعد أحد من كتابنا معشر العرب يدون آثارها ويبلو أخبارها . واذا ذكر شيء من وقائعها التاريخية فانما يذكر عرضاً في تضاعيف ما يكتب عن تاريخ العثمانيين ومختلف أخبارهم . وكما أنه لم توضع كتب تاريخ مستقلة لبلادنا كذلك لم يخصها أحد برحلة فيدون في رحلته ما رأى وسمع من تراجم أشخاص أو وصف آثار أو حكاية وقائع وأخبار . كما فعل (الشيخان المغربيان ابن جبير وابن بطوطة في تدوين أخبار رحلتيهما الى الأقطار المشرقية قبيل ظهور الدولة العثمانية) اللهم الا الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي فان رحلاته كشفت عن شيء من حالة البلاد التي زارها منذ ٢٥٠ سنة . ووصفت جانباً من ثقافة سكانها وأطوار حياتهم الاجتماعية . لكنه وصف ممزوج بقليل من التحقيق وبكثير من البحوث الدينية التي قد يلذها قراء زمانه ويبالغات في تحلية

الأشخاص واطراء الحكام اقتضتها طبيعة ذلك العهد وطريقة أهله في ايراد الحوادث وسرد الوقائع مفرغاً ذلك كله في قالب مسجع · وأسلوب مسهب متكلف ·

ولم نظفر بصورة كاملة عن حياة أسلافنا المتأخرين ومستواهم الاجتماعي والاخلاقي الا في ما كتبه سياح الافرنج في رحلاتهم الى الشرق العربي : فان من علق بشيء مما كتبوه عن بلادنا في تلك الحقبة ظفر بفائدة لا توصف · وشعر بلذة لا تنسى · وخاصة ما كان من تلك الرحلات محلى برسوم الأماكن وصور الأشخاص كالرحلة التي أهديت الى مجمعنا أخيراً وهي (رحلة ريج Rich في العراق عام ١٨٢٠) م وريج هذا هو (كلود لويس جيمس) ممثل شركة الهند الشرقية والمقيم البريطاني في بغداد في أوائل القرن ١٩ كتبها بالانكليزية وطبعتها أرملته سنة ١٨٣٦ أي بعد وفاته ونقلها الى اللغة العربية الأستاذ بهاء الدين نوري أحد فضلاء العراق وطبعت الترجمة في مطبعة السكك الحديدية ببغداد سنة ١٩٥١ م · والمطبوع من ترجمة الرحلة هو جزؤها الأول وقد ألحق به الفصل ١٢ من الجزء الثاني وستة ملاحق أخرى فبلغت نحو ٣٥٠ صفحة · والكل يدور الحديث فيه حول وادي دجلة وما عليه من العمران وقديم البنيان ومن فيه من السكان : عرب ، ترك ، ايرانيين ، نسطوريين ، أكراد ، يزيدية ، يتخلل ذلك رسوم أثرية وصور أشخاص مختلفي الجنسية : جنديان كرديان · زوجان نسطوريان · زوجان يزيديان · سيدات كرديات يرقصن · وغير ذلك من الوقائع والحوادث يقصها (ريج) على قارئ رحلته فيجعله كأنه معه بعينه وأذنه : فيسمع عن (أمجاد الأكراد) و (تخت سليمان) و (الصلاة الشرقية) و (شهر رمضان) و (تقوى محمود باشا) و (مغالطات مضحكة) و (لعبة غريبة) و (اليهود) و (حفلة عرس) والأكراد : نساؤهم ، جنائزهم ، أخلاقهم ، مقارنة بينهم وبين الأتراك والايرانيين الى غير ذلك من شؤون شتى : إدارية وسياسية واقتصادية واثنوغرافية وعلاقات دبلوماسية بين تركيا وايران ·

وهل كان المؤلف (ريج) موضع ثقة في ما قال وسرد من الحوادث والأخبار ؟ سأل المترجم الفاضل المستر لونكريك (مؤلف كتاب أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) عن رأيه في ما دونه (ريج) في رحلته هذه فلم يجده ميالاً الى الأخذ بكل ما جاء فيها عن الأكراد · بينا نرى المستر مينورسكي أحد أعلام الدراسات الشرقية يستشهد في بحث له عن (القرآن) بما قاله (ريج) عنهم في رحلته المذكورة ·

ذكر المترجم كل هذا في مقدمته للكتاب وارتأى أن لا يؤخذ بما في الرحلة من دون تمحيص : لأن ريج لم يرحل الى العراق لدراستها دراسة مؤرخ محقق بل ما كان الوقت الذي قضاه فيها كافياً للدراسة العميقة لو أرادها · وكل ما آراده الراحة والاستجمام · ومعما يكن فان في كثير مما جاء في هذه الرحلة جلاء لكثير من غموض غشى تاريخ بلاد العراق والأكراد وحالة سكانها ·

هذا ملخص ماجاء في مقدمة المترجم الأستاذ بهاء الدين نوري · وقد نشر بعدها مقدمة لناشرة الكتاب زوجة ريج · ثم ترجمة مسهبة لريج نفسه ضمنها كثيراً من أطواره ومختلف أخباره ، واليكم نموذجات من الكتاب تصف بعض ما فيه من مفاجآت تاريخية يحرص على مثلها عشاق المطالعة وروّاد الأخبار :

(السليمانية عاصمة بلاد الأكراد منذ مئة وعشر سنوات) تحتوي على الفي دار للمسلمين و (١٣٠) لليهود و (٩) للكلدانيين الذين لهم كنيسة صغيرة كئيبة · وخمس دور للأرمن وهؤلاء لا كنيسة لهم ولا قسيس · وخمسة خانات · وخمس حمامات منها واحد جيد وخمسة جوامع منها واحد جيد ·

(وصف حمام) : قال (ريج) : ذهبت صباح اليوم الى الحمام فألفيته جميلاً جداً وكانت إضاءته جيدة والخدمة فيه حسنة · ووجدته أرقى من كل حمام شاهدته في المملكة التركية عدا حمامات الشام واستامبول والقاهرة بل ويمتاز على هذه في بعض النواحي · مُلطت جدرانه ببلاط خاقي وصُبغ على الطراز

العربي وزوق بالأحواض ذات النافورات - شيده باشا السليمانية على نفقته مستخدماً معمارين ايرانيين - يقال انه قلد فيه حمام كرمانشاه - والمسلم ينفق المال بسخاء على الحمام ويعد ذلك نوعاً من التقوى - والجيوش في الحروب لا تتعدى على الحمامات وقد يحميها مالكها بوقفها -

(وصف الصلاة الاسلامية) قال : أتيحت لي فرصة لرؤية أمر كثيراً ما استرعى انتباهي : ألا وهو أن الصلاة الشرقية ليست الا أمراً نمطياً رتيباً (رُوتينياً) . ثم وصف (ريج) تهيؤ مضيفه الكردي للصلاة وخشوعه وإصداره الأوامر الى خدمه خلال الصلاة الى أن قال : (وكثيراً ما لاحظت عدم المبالاة من المسلمين اذ يتكلمون أو يتعاتبون أو ينظرون الى ما حولهم وهم ركّع - والواقع ان هذه الصلاة صلاة أسلوبية لا تتغير بل تتردد وتتكرر الى حد أن أصبحت تحاكي التمثيل الصامت المضحك) -

كذا قال (ريج) ولعمري ان جهله في وصف صلاتنا مضحك صارخ لا صامت - والا فان الأكراد شوافع وعُرفوا من بين المسلمين بالتمسك بالدين - وهل يعقل أن يتكلموا في الصلاة وهم راكعون - ويذكرنا هذا بما نقلناه في المقدمة عن المستر لونكريك من أنه لا يستحسن الأخذ بما قاله (ريج) عن الأكراد - أما قوله عن صلاتنا انها صلاة صموت وانها لا تتغير : يعيبها بذلك ، فهو لعمري نعم المدح لها والاعتراف بحسنها ولا يتسع المقام لما يجب أن يقال في هذا الموضوع فان الوهم - وسوء الفهم - ظاهران في كلام المستر (ريج) -

(شهر رمضان) : المسلمون فيه يجعلون ليلهم نهاراً فينامون في النهار ويقضون ساعات الصيام بالاعتكاف وتلاوة القرآن ويكرّسون الليل للأكل واستقبال الزوّار -

(وصف رقص نساء الأكراد) : أطال (ريج) في هذا الوصف وجاء فيه قوله : (ثم بدأت الموسيقى تعزف لحن الدبكة (الجوبي) فتقدم رتل من نحو

ثلاثين امرأة متماسكات الأيدي يخطي وئيدة رشيقة . وهن على أتمّ ما يكون من التزين بالزراكش الذهبية وأثواب الحرير الملوّنة دون أيّ حجاب . لقد كان منظراً بديعاً حقاً بل كان أمراً جديداً بالنسبة اليّ . إذ لم أر حتى الآن النساء في الشرق مختلطات بالرجال بمثل هذه الحرية . ثم وصف اهتزازهن في رقصهن وتقدمهن وتأخرهن (ولم يقمن بأية حركة نابية في رقصهن) قال (ثم انقطعت الموسيقى فانسحبت الراقصات الى بيوتهن بعد أن تحجبن من القمة الى الأخمص) ولاحظ (ريج) على التحجب بعد التبذّل قائلاً : إن الرجال الذين شاهدوا هؤلاء الراقصات في الحفلة كانوا اكثر ممن يحتمل أن يراهن في شوارع السليمانية قال (وأغلبهن جميلات فاتنات) .

(كردية رَجُلة) : قال : زارني فيض الله أفندي رئيس ديوان باشا بغداد وحينما أراد الانصراف وجاء خدمه بجواده قال لي أريد أن أُريك شيئاً طريفاً لم تشاهده في حياتك ونادى خادماً من خدمه وسألني عما اذا كنت ألاحظ شيئاً غير اعتيادي في هذا الخادم . فأجبته بالنفي وانما أرى فتى قوياً . فقال كلا بل فتاة كردية بلباس الفتى.(وعلى رأسها شال حريري وهي ذات قامة هيفاء وعمرها بين ٢٥ — ٣٠ سنة ذات ملامح كردية أصيلة وقد لوّحتها الشمس) ثم وصف من أخبار شجاعتها وأنفتها وبكارتها وحسن سلوكها ما يعجب ويطرب .

هذا نموذج مما في الكتاب وكله على هذا النمط من حيث دقة الوصف وتتبع جزئيات الأخبار والأطوار فالشكر الجزيل لمترجمه ومُهديه .

المغربي

المدخل الفقهي العام

الى الحقوق المدنية في البلاد السورية

تأليف الشيخ مصطفى الزرقاء (طبع الجامعة السورية في ٦٩٥ صفحة)

يعد هذا الكتاب ، في نظرنا ، خير كتاب في التوطئة لدراسة مجلة الأحكام العدلية ـ القانون المدني العثماني القديم ـ وهو الى ذلك دفاع مجيد عن عظمة الفقه الاسلامي ، وقد نقل لنا مؤلفه ثلاثة نصوص دولية خطيرة تشيد بمزايا فقهنا ويسرنا أن نثبتها في هذه المجلة :

القرار الأول : اتخذه مؤتمر الحقوق المقارنة المنعقد بمدينة لاهاي في شهر آب من عام ١٩٣٧ وهو يتضمن ثلاثة مبادئ :

(١ — اعتبار الشريعة الاسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام .
٢ — اعتبارها حية قابلة للتطور .
٣ — اعتبارها تشريعاً قائماً بذاته ليس مأخوذاً من غيره) .

القرار الثاني : اتخذه مؤتمر المحامين الدولي عام ١٩٤٨ وهذه ترجمته :

« اعترافاً بما في التشريع الاسلامي من مرونة وما له من شأن يجب على جمعية المحامين الدولية أن تقوم بتبني الدراسة المقارنة لهذا التشريع وبالتشجيع عليها » .

القرار الثالث : اتخذه مجمع الحقوق المقارنة الدولي المنعقد في باريز ١٩٥٢ واليك ترجمته :

« ان المؤتمرين ، بناء على الفائدة المتحققة من المباحث التي عرضت أثناء « أسبوع الفقه الاسلامي » وما جرى حولها من المناقشات التي تخلص منها بوضوح :

أ — أن مبادئ الفقه الاسلامي لها قيمة لا يمارى فيها .

ب — وان اختلاف المذاهب الفقهية في هذه المجموعة الحقوقية العظمى
ينطوي على ثروة من المفاهيم والمعلومات ، ومن الأصول الحقوقية ،
وهي مناط الاعجاب وبها يتمكن الفقه الاسلامي أن يستجيب
لجميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيق بين حاجاتها ،

يعلنون رغبتهم في أن يظل (أسبوع الفقه الاسلامي) يتابع أعماله سنة فسنة ،
ويكلفون مكتب المؤتمر وضع قائمة للموضوعات التي أظهرت المناقشات ضرورة جعلها أساساً للبحث في الدورة القادمة .

ويأمل المؤتمرون أن تؤلف لجنة لوضع معجم للفقه الاسلامي يسهل الرجوع الى مؤلفات هذا الفقه فيكون معلمة فقهية تعرض فيها المعلومات الحقوقية الاسلامية وفقاً للأساليب الحديثة» .

.. وكأن الأستاذ الزرقا قد استجاب لهذا الأمل ، حين ألف كتاباً في الفقه الإسلامي على الأسلوب الحديث !

بدأ كتابه بتعريف الفقه الاسلامي ، ثم ذكر مصادره الأولى الأربعة الأساسية : الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، ومصادره التبعية : الاستحسان والمصالح المرسلة والعرف ، ثم بحث في أدوار (أو أطوار) الفقه الاسلامي ، فجعلها سبعة ، أولها عصر النبوة ، وآخرها عصر المجلة – ولسنا معه في هذا التقسيم ، وإن يكن لعدد (٧) سره وسحره ! – ثم دخل في صميم موضوعه ، وهو : «النظريات الفقهية الأساسية» كنظريات الملك والعقد والأهلية والضمان الخ .. لم ينسج فيها على منوال من سبقوه ، من شراح المجلة ، الذين جعلوا الفقه «فتاوى» و «قضايا» و «جزئيات» ... وإنما حاول أن يدرس المجلة كما يدرس الأساتذة الفرنسيون في كلية الحقوق بباريز مادة القانون المدني ، فجمع من أحكام القرآن والحديث وآراء الفقهاء ، من مختلف المذاهب ، ما يؤلف نظريات عامة تشبه النظريات الأوربية الحديثة ، وقد وفق في محاولته توفيقاً كبيراً ، فمن قرأ

كتابه خرج منه بفائدتين : النظريات الفقهية الجديدة ، وله فضل إخراجها ، وآراء الفقهاء التي لخصت للقارئ فأغنته من قراءة عشرات من كتب الفقه !

وعلى إعجابنا بهذا الكتاب الجليل نشير الى ناحية صغيرة ضعيفة منه كانت بمثابة «الخرزة» الزرقاء .. أو التميمة ... من العين ، وهذه الناحية هي ان الأستاذ الزرقاء لا يتقن لغة أجنبية ، ومن أجل هذا النقص يقول دائماً ان آراء علمائنا خير من آراء الغربيين ، وأنا معه ، فقديمنا أفضل من قديمهم ، ولكن قديمنا ليس دائماً ، أفضل من جديدهم !

هذه ملاحظة ! والملاحظة الثانية هي أن الأستاذ الزرقاء حمل بعض النصوص أكثر مما تستطيع أن تحمل ، في سبيل بناء نظريات عامة تشبه النظريات الغربية ، خذ لك مثلاً احتجاجه بالآية الكريمة : «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم» لإثبات مبدأ «سلطان الإرادة» وليس في هذه الآية شيء من ذلك ! فمبدأ سلطان الإرادة أعلن تحرر الناس من المراسم والأشكال التي كانت تفقد المتعاقدين ، في ظل الشريعة الرومانية القديمة ، كثيراً من حريتهم وتفسد كثيراً من عقودهم وتعتبرها لغواً لمجرد أنها لم تستكمل بعض «الشكليات» ... فما هي الصلة بين هذا المبدأ وبين الآية الكريمة ؟

إن هاتين الملاحظتين لا تنقصان من قدر كتاب يستحق صاحبه أبلغ الثناء وأعظم التقدير ، وهو كتاب قوي بمادته ، وصاحبه رجل متوقد الذكاء ، جمع بين الثقافتين الدينية والقانونية ؛ قوي بلغته ، فالأستاذ الزرقاء فقيه أديب ، وأسلوبه في الكتابة يكاد ينسيك صعوبة المادة التي يدرسها وجفافها ...

الثقافة الغربية

في رعاية الشرق الأوسط

عنوان محاضرة ألقاها في خزانة الكونغرس الأميركية المستشرق جورج سارطون ، ونقلها الى العربية الدكتور عمر فروخ ، في كتيب صدر عن مكتبة المعارف ببيروت ، في نحو ثمانين صفحة .

المحاضرة ، في حقيقتها ، حديث عن الاسلام ، وما كان يجوز أن يختار لها عنوان آخر ، لولا أن المحاضر مهد لها بكلمة قصيرة - ولكنها قوية - عن الشرق ، قرر فيها أن تاريخ العلم بدأ في الشرق الأوسط لا في يونان ، كما يتوهم كثيرون ، وأن فلاسفة يونان أنفسهم أخذوا عن مصر وما بين النهرين الحكمة والمعرفة .

كتبت المحاضرة لجمهور أميركي يجهل أصول الاسلام او يعرفها معرفة يسيرة ، فكان لا بد للمحاضر من أن يذكر لهم أشياء كثيرة يعرفها كل مسلم ولا جديد فيها ، ولكنه ، مع هذا ، لم يُخلِ محاضرته من آراء شخصية في أسباب انتشار الاسلام واللغة العربية ، ومما قاله :

« ... قسم السيوطي الكلمات الدخيلة في القرآن أحد عشر قسماً : الكلمات الحبشية والفارسية واليونانية والهندية والسريانية والعبرية والنبطية والقبطية والتركية والزنجية والبربرية . أما (جفري) فيشير الى ما لا يقل عن خمس وخمسين لغة ولهجة دخل شيء من كلماتها في القرآن الكريم .

.. إن خزائن المفردات في اللغة العربية غنية جداً ويمكن لتلك المفردات أن تزاد بلا نهاية ، ذلك لأن الاشتقاق المتشابك والأنيق يسهل إيجاد صيغ جديدة من الجذور القديمة بحسب ما يحتاج اليه الانسان .

.. لم يتح لنبي من قبل ولا من بعد أن ينتصر انتصاراً تاماً كانتصار محمد . إن الاصرار على تفوق اللغة العربية - خاصة - أو على حاجة الدين اليها هو الذي

جعل لها انتشارها الحاضر ثم حفظ لها هذا التفوق قروناً عديدة ولولا هذا الدفاع الضمني لبقيت اللغة العربية لغة قبلية بلا قيمة عامة ولاضمحلت تماماً ولكان شأن العرب في ذلك شأن نصارى الشرق الأوسط الذين تركوا لغتيهم المقدستين السريانية والقبطية حتى زالتا » .

أما انتشار الاسلام فيرده المحاضر الى ضعف الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية ، وهذا الرأي ـ وهو رأي جمهور المؤرخين الغربيين ـ إنما يفسر في الواقع سرعة الفتوح الاسلامية ، أما انتشار الدين الاسلامي فان له أسباباً أخرى تتصل بجوهره ، ولولاها ما دخل بلاداً لم يدخلها جيش اسلامي قط .

... وأخيراً ، يقول لنا المؤلف :

« .. لم يكن ثمة علم في المدينة أو في مكة أو في دمشق . ومعجزة النهضة العربية لم تكشف عن نفسها قبل تأسيس الخلافة العباسية في بغداد . ولكن ماذا حدث هنالك ؟ لقد نشطت العبقرية العربية بفعل الخميرة الايرانية . إن محاسن الأمتين العربية والفارسية (ومساوئها) كان بعضها يتمم بعضاً . وهكذا نرى أن معجزة العلم العربي كانت ترجع في الأكثر الى الأثر الذي حدث بفعل النشاط والجد العربيين وبفعل الإيمان الاسلامي في الفضول والجدل الفارسيين ، أو بكلمة أعم ان العلم العربي كان ثمرة للعبقرية السامية التي خمرت بالعبقرية الفارسية » .

هذا الرأي له أشياع كثيرون في الشرق وفي الغرب . وفي اعتقادنا أن الاسلام دعا الى التعلم دعوة قوية ، وأن العلم الكوني بدأ في دمشق ، حين تهيأت للعرب أسبابه ومواده ، ولم يكن العرب محتاجين الى فارس لتكون لهم حضارة ، فقد أسسوا في الأندلس حضارة عظيمة لا نصيب لفارس فيها . القضية قضية وقت . ولو دام ملك دمشق ، لعظمت منتها على العلم والعالم .

الاتجاهات الأدبية

في العالم العربي الحديث

كتاب في نحو (٤٠٠) صفحة ، ألفه الأستاذ أنيس الخوري المقدسي ، عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ، وطبعته له جامعة بيروت الأميركية ، في « سلسلة العلوم الشرقية » .

أنفق الأستاذ في تأليف هذا الكتاب جهداً كبيراً ، ووقتاً طويلاً ، وقرأ لأجله من الكتب والمجلات والصحف ما لا يكاد يحصى كثرة ، وفي اعتقادنا أنه وفق توفيقاً عظيماً ، ولكن عملاً ضخماً كهذا ، كان ينبغي أن تجتمع عليه عصبة من الرجال ، لا يخلو ، حين ينتدب له رجل واحد ، من هنات معدودات ، فقد كنا ، مثلاً ، نستحب للمؤلف أن يغفل ، في كتابه ، ذكر أسماء كثيرة لم نجد لأصحابها فضلاً ولا فضيلة ـ وان يكن هو قرأ لهم مقالة أو قصيدة مترجمة في احدى المجلات فوجدها كافية للتنويه بأسمائهم ـ وكنا نستحب له كذلك ألا ينعت بعض المفكرين بأنهم شعراء (كبار) من أجل أبيات نظموها ، وما نظن حتى العلامة فارس الخوري ، يرضيه أن يقرأ في كتاب الأستاذ المقدسي أنه من « كبار الشعراء » !

وبعد .. فان هذا الكتاب من « أغنى » الكتب التي أخرجتها لنا مطابع بيروت ، وهو يتألف من أربعة أبواب :

الباب الاول — الاتجاه القومي — وهو سرد موجز لتاريخ الحركات القومية في سورية ولبنان ومصر من خلال الأشعار والمقالات . وقد بدأه المؤلف بالكلام على الجامعة العثمانية وأثبت لنا أن الأدب العربي بقي مدة طويلة عثماني الروح ، فان وجد رجلاً مثل ابراهيم باشا كان يقول : « ما أنا بتركي ، بل أنا ابن مصر ؛ ان شمسها قد غيرت دمي فجعلتني عربياً قحاً ! » فان عامة الأدباء ورجالات

الفكر من العرب كانوا متمسكين بالخلافة الاسلامية ، مخلصين للجامعة العثمانية ، حتى أن مصطفى كامل ، زعيم الحركة الوطنية في مصر ، كان يقول : «ان الراية العثمانية هي الراية الوحيدة التي يجب أن نجتمع حولها» .

ثم كان الاستبداد الحميدي ، فظهرت الحركات المناوئة للجامعة العثمانية ؛ وقد وقف إعلان الدستور ، الذي تباشرت به العرب ، هذه الحركات ، ولكن غلو الترك بقوميتهم قضى على آمال العرب فعادت الأفكار القومية والاقليمية الى الميدان وامتزجت بالدعوة الى الحرية والاصلاح ، وسهر عليها رواد ممتازون ، من طراز عبد الرحمن الكواكبي .

الباب الثاني — الاتجاه الاجتماعي — وقد مهد له المؤلف بكلمة قارن فيها بين الادب القديم ، الذي كان يعيش «في كنف الملوك والأمراء أو من يتصل بهم من أرباب الثروة والجاه» وبين الأدب الجديد ، الذي يعيش «على موائد الشعب ومن عطائه وهباته» لأنه «أدب ديموقراطي» . ثم أبرز لنا خمسة «اتجاهات» في هذا الأدب الاجتماعى الحديث ، وهي :

١ — الدعوة الى العلم والحضارة .

٢ — الحملة على المفاسد الناشئة عن التطرف في الحياة العصرية .

٣ — العطف على الطبقات البائسة .

٤ — المطالبة بالحقوق الانسانية والعدالة الاجتماعية .

٥ — مناصرة القضية النسائية ورفع المستوى العائلي .

الباب الثالث — الاتجاه الى التأمل الفكري — التأمل في الحياة الروحية ، والتأمل في الموضوعات المجردة ، والتأمل في الطبيعة والريف .

الباب الرابع — الاتجاه الفني — وهو خاص بتأثير الأدب الغربي في الأدب العربي الحديث ، فان العرب القدامى ، فيما يقول المؤلف ، لم ينقلوا عن الغرب

سوى العلم والفلسفة ، أما أدباء العصر ، فقد نقلوا عن الغرب الأدب والشعر ، وكان من آثار ذلك أن الأدباء الجدد انصرفوا عن السجع والصناعة البديعية الى البساطة ، وأخذوا في تأليف الروايات والقصص والمسرحيات ، وكلها ألوان جديدة في أدبنا . أما شعراؤنا فقد أفادوا من اتصالهم بالغرب وحدة القصيدة والتفنن البياني وحرية الاخراج .

العادات والأخلاق اللبنانية

تأليف أديب لحود

طبع مكتبة صادر بيروت في ٢٤٠ صفحة

كتاب يصف لنا فيه الأستاذ أديب لحود ، شيئاً من عادات اللبنانيين ، في ولاداتهم ومناكحهم وأفراحهم وأحزانهم وزياراتهم ولهوهم ؛ وما نحسب هذه العادات الا آخذة بالتحول ـ وقد يكتب على كثير منها الزوال ! ـ ومن المفيد كثيراً تسجيلها قبل أن تحول أو تزول ، فانها قطعة من حياة وطننا ، ومرحلة من مراحل « تطوره » ، وما ينبغي لها أن تهمل ، فقد تعنى بها الأجيال التي تأتي بعدنا أشد من عنايتنا .

أعجبني في بداءة هذا الكتاب وصف الأسرة اللبنانية، فهو وصف جد موفق، في بساطته، وقد وجدت فيه للطفل اللبناني معجماً لا يختلف عن معجم أخيه الطفل الدمشقي فالطعام عنده « نن » والشرب « نبو » والمشي « دادي » والخروج « تش تش » والوجع « واوا » والشي الجميل « دح » والشي القبيح « كخ » وهكذا ... ولكن نهاية الكتاب لم تعجبني ، فقد ملأها المؤلف نصائح وألغازاً وألعاباً لا صلة لها بالموضوع ، وكان يحسن به استبعادها من كتابه ، حتى لا يظن أنه إنما كتبها للعوام والبسطاء .

ومما يلفت النظر حقاً في هذا الكتاب الطريف - ويزيد في قيمته عندنا - أن كثيراً من العادات والمعتقدات والخرافات والأغاني التي ذكرت فيه لا يختلف في شيء عما نعرفه في الشام ، فوحدة الوطن التي تحجبها السياسات السطحية ، تكشف عنها هذه الأخلاق التي تعبر عن عبقرية الأمة العميقة .

خطرات

تأليف محمد مهدي البصير

١٩٠ صفحة . مطبعة المعارف ببغداد عام ١٩٠٢

(خطرات) : كلمات ، بل جوامع كلم ، لخص فيها مؤلفها تجاريبه في السياسة والاجتماع وآراءه في الأدب والفن ؛ وهو ، إجمالاً ، يدعو الى الفكرة الديموقراطية الصحيحة في السياسة ، والى الحق والجمال والخير في حياة الناس الاجتماعية ، ويرى إقصاء المرأة عن الميادين العامة ... ولكن هذا الوصف لا يطمع بتلخيص أبحاث الكتاب ، ففي الكتاب موضوعات لا حد لها ، وهي كلها ملخصة ، وأكاد أقول «مقطرة» و «مكررة» ؛ فليرجع الى هذا الكتاب من يطلب المعنى الكثير في الكلام القليل ، فانه واجد فيه ألواناً كثيرة من الحكمة ، تبدو على بعضها مسحة من تشاؤم ، واليك طائفة من أقواله :

(— لا أدري كيف تصلح أمور قوم هم بين عارف لا يقدر ، وقادر لا يعرف ، ومسكين لا يعرف ولا يقدر !

— يبلغ بعض الرجال بالطاعة ما لا يبلغ غيرهم بالكفاية والاخلاص .

— من الصعب أن تستقيم أمور دولة يديرها موظفون في شكل وزراء ، ووزراء في شكل موظفين .

— من وضع نفسه فوق حوادث الزمن ، لا تستخفه اذا واتته ولا تهزمه اذا تنكرت له وكان عبد عقله وسيد هواه دائماً فذلك هو الرجل الحق .

— البيت حجر الزاوية في بنيان المجتمع والمرأة عماده فاذا آثرت أن تحيا خارجه ، فمن يأخذ مكانها فيه ؟

— قال لي قائل في أحد مقاهي مونبيليه ذات يوم : « إنكم تبيعون المرأة ، أليس كذلك ؟ » فأجبته : نعم يا سيدي ، ولكن على أن يكون قلب الرجل ثمناً لها !

— الدعابة الساخرة ، جد العارفين بالحياة !

— إن بخيلاً يملك ثروة لكنيف يحمل مصباحاً .

— أقل الناس عملاً أولئك الذين لا يرضيهم عمل !

— كن حلواً في أفواه الناس ، ولكن على أن يكون فيك من المرارة ما يمنع من أكلك !

— لا يمتحن الصبر بأشد من بلادة ترافقها عجرفة .

— قد تهدم العاطفة في لحظة ما يبني العقل في سنة .

— اذا عملت بوحي عقلك دون أن تقوله فأنت حكيم ، واذا قلته فقط فأنت أديب ، واذا جمعت بين القول والعمل جمعت بين الرجلين .

— اذا استمعت الى سمفونية بتهوفن السادسة فكأني أتنزه في غابة شجراء وأستمتع بحديث رجل مثقف وأنعم بزيارة امرأة جميلة في وقت واحد .

ديوان النبط

مجموعة من الشعر العامي في نجد . جمعه وفسر بعض ألفاظه السيد خالد بن محمد الفرج
طبع في مطبعة الترقي بدمشق عام ١٩٥٢

يتألف هذا الديوان من أشعار اربعة شعراء عاميين من نجد ، وهم : « حميدان الشويعر » و « محمد بن لعبون » و « عبد الله بن ربيعة » و « عبد الله بن سبيل » ، ونشهد لوجه الله شهادة خالصة أننا قرأنا هذا الديوان من بابه الى محرابه ، وتحملنا في ذلك مشقة كبيرة ، ولكنا لم نجد فيه شيئاً يتنعم به الفكر أو القلب . وقد تعجبنا كثيراً من قول جامع الديوان في مقدمته : « وبعد فلا بد لمن يدرس الأدب العربي وتاريخه وتطوراته أن يبدأ بدراسة الأدب العامي في نجد في الوقت الحاضر ، لأنه صورة صادقة على ما كان عليه أدب الأمة العربية في العصر الجاهلي » ! ..

لا والله ! ليس هذا الأدب أدب التطور ، ولكنه أدب التدهور .. وحرام أن يشبه به شعر الجاهلية ، وحرام أكثر من ذلك أن يطبع مثل هذا الزجل الغث للفخر ... فما أجد لطبعه الا فضيلة واحدة : العلم به ، للحذر منه .

إنه أدب العامة ، أدب الانحطاط الذي يوجد مثله في كل قطر ، ولم توجد المجامع اللغوية إلا لتنقذ الشعوب من هذا اللون من الأدب !.

كتب صغيرة

فلسفة غاندي الاقتصادية

كتيب في خمس عشرة صفحة صغيرة ، لخص فيه مؤلفه السيد احمد الحسيني فلسفة غاندي الاقتصادية في ستة أصول ، وهي : المبدأ الأخلاقي ، البساطة

في المعيشة ، الانتاج للاستعمال وليس لأجل الربح ، عدم العنف ، تقدير العمل وتقديسه ، تحديد استعمال الآلات رفقاً بالعمال (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) .

الملكية في الاسلام

كتيب في ٦٠ صفحة صغيرة ، تسبقه مقدمة كبيرة ، وتتبعه فهارس كثيرة ، في مثل عدد صفحاته ، مع أن فهرساً واحداً في صفحة واحدة يكفيه ويزيد .. ألفه السيد أحمد الحسيني ، ليثبت فيه أن الاسلام يحمي الملكية ، ولكنه يكره التوسع فيها وإهمال استغلالها .

ينقل المؤلف تعاريف وآراء لبعض علماء الاقتصاد الغربيين في الملكية ويوازن بينها وبين أقوال فقهاء مسلمين ، ويزكي أقوال المسلمين ويسفه أقوال الغربيين ، وهذا شيء يرضي غرور القارئ ، ولكنه أسلوب غريب عن العلم ، لأن المؤلف لم يحسن ترجمة ما نقله من نصوص الغربيين وما أحسن ترجمته لم يحسن فهمه .

أما لغة الكتاب فحسنة ، لولا أغلاط منثورة هناك هناك ، كقوله في صفحة ٢٧ : (ما دام ولدوا بعضهم حائزين موقف التمتع بها وولدوا غيرهم وهم كثيرون فاقدين ذلك الموقف) وهي لغة (أكلوني البراغيث) ، وقوله في صفحة ٢٩ : (.. وهو الذي كان لآرائه وأفكاره أثراً بليغاً) فجعل (أثراً) خبراً لكان ، وقد وقع في مثل هذا الخطأ كثيراً ... .

الدكتور منير العجلاني

بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن

بقلم هنري غيز وتعريب الأستاذ مارون عبود

من منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة اللبنانية ، ونشر هذا الكتاب في جزئين الأول في (٢٩٤) صفحة والثاني في (٢٤٠) صفحة من قطع المتوسط . طبع في بيروت سنة ١٩٤٩ .

وهو من المباحث الأجنبية في تاريخ لبنان ويمتاز عن أمثاله من المباحث بدقة الوصف وأمانة النقل رغم ما جاء فيه من هفوات وأوهام التي لا يخلو منها مصدر أجنبي . إن المؤلف هو افرنسي الأصل ومن مواليد الشرق العربي . نشأ فيه وأتقن لغته . ثم عين وقتئذ قنصلاً لبلاده في لبنان ، وقد أتاح له منصبه وطول اقامته الوقوف عن كثب على أمور قد لا يتيسر الوقوف عليها لغيره من عابري السبيل ممن كتبوا عن الشرق مستمدين أخبارهم من مصادر لا يركن لصحتها ، حتى ان كثيرين منهم تحدثوا عن أشياء لم يعرفوها الا بالسماع وحكموا على ذمة غيرهم في أمور كثيرة حكماً سطحياً وجائراً . وإن بعضهم تعمد التشويه والتشهير . وأما مؤلف هذا الكتاب لم يذكر على زعمه شيئاً لم يره بأم عينه ولم ينقل الا ما اجمعت عليه الآراء .

ويجد القارئ في هذا الكتاب وصف آثار اندرست معالمها وذكر عادات وتقاليد تطورت مع الزمن وعالج أبحاثاً سياسية وقضايا ادارية واقتصادية أهملها مدونو العرب .

وكان الأستاذ مارون عبود موفقاً في ترجمته هذا الكتاب القيم فلم يخرج عن الأصل كما تقتضيه الأمانة العلمية ، غير أنه أسقط منه متعمداً بعض الفقرات التي رأى فيها ما لا يحتمل ذكره ولا يطاق وحبذا لو اتسعت لها رحابة صدر الأستاذ وأثبت ما أسقط حتى ينقل الينا الكتاب كما وضعه مؤلفه لا كما نريده . ولماذا نكتم ما كتبه عنا أو اختلقه الأغيار ؟

وقد ترفع الأستاذ المترجم عن الرد على المؤلف في بعض ما ذهب اليه وتوهمه لئلا يضيع القارئ في أودية الحواشي ، ولكن هنالك بعض التحريف لا بد من الاشارة اليه ، كما جاء في الجزء الثاني ص : (٢٥) سنة ١٨٠٣ صوابه ١٠٨٣ ، وتوتوخ وصوابه تتش ، ومجير الدين عبس وصوابه مجير الدين ابق وفي ص : (٥١) : تاجانه Tyané وصوابه Teyamné .

نشكر للأستاذ مارون عبود جهوده الموفقة وحسن صنيعه .

فلسطين : وصفها الجغرافي وتطورها التاريخي

لمؤلفيه فخري الدين السيدي ومحمد خالد الطائي

في (٢٥٦) صفحة من قطع الوسط طبع في بغداد سنة ١٩٤٨

بحث المؤلفان في هذا الكتاب أحوال فلسطين الطبيعية والاقتصادية وتاريخ اليهود فيها وبحثا فكرة الصهيونية وأساليب زعمائها لتحقيق أهدافها واستعرضا جميع المراحل التي اجتازتها القضية الفلسطينية منذ اعلان الوطن القومي اليهودي في ظل الانتداب البريطاني الى أن حلت بالعرب النكبة المشؤومة في عام ١٩٤٨ وانتهت بتأسيس دولة اسرائيل .

وشرح المؤلفان القضية شرحاً علمياً مجرداً عن العواطف والأهواء وعززا دراستها بوثائق رسمية قلما جمعت في كتاب واحد ، وقد حققا فيه الغاية التي وضع من أجلها فهو بحق : « سفر لمن يريد معرفة وضع فلسطين ودليل لمن يبتغي التوجه والعمل لخلاصها . وسجل لمن يقصد تقصي أحوالها ، فكان تنفيذاً لفكرة واظهاراً لعقيدة » .

فعسى أن يجد جمهرة العرب في موضوع الكتاب العبرة واليقظة بعد غفلتهم الطويلة ، والعاقل من اتعظ والصادق من عمل وأخلص

Textes géographiques arabes sur la Palestine, recueillis et traduit par le R. P. Marmardji. Paris 1951.

يقع الكتاب في (٢٦٨) صفحة من قطع الوسط طبع في باريز سنة ١٩٥١ وينطوي على ترجمة كتاب بلدان فلسطين العربية الى الافرنسية الذي وعد الأب مرمرجي في مقدمته تحقيقها خدمة لذوي التخصص من أبناء الغرب ممن لا يتسنى لأكثرهم الاطلاع عليها في مصادرها العربية .

وقد جاءت الترجمة بجملتها صحيحة يركن اليها . وان الملاحظات التي نبهنا اليها في الأصل العربي تكرر أكثرها في هذه الترجمة ويضاف اليها زيادة فصل في الصفحتين ١١٠ و ١١١ منقول من (زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك) للظاهري غير وارد في الأصل العربي ، كما أنه سقط من الترجمة (ص : ١٩٥) جميع مادة وصف بحرة المنتنة أو بركة لوط .

نشكر حضرة الأب مرمرجي على ما يبذله من جهد في خدمة تاريخ بلاده .

Fossatum Africae

لمؤلفه جان برادیز (Jean Baradez) ومن مطبوعات مديرية الفنون الجميلة وديوان الآثار القديمة في الجزائر ، ويبلغ عدد صفحاته (٣٦٠) صفحة من القطع الكبير بورق صقيل وطبع أنيق يتخللها عدد كبير من الصور والمخططات . طبع في باريز سنة ١٩٤٩ .

تناول المؤلف في هذا الكتاب سلسلة أبحاث في التدابير الادارية والعسكرية التي اتخذتها السلطات الرومانية لتوطيد دعائم سلطانها في الجزء المعمور من الجزائر وحمايته من خطر غزاة الصحراء . وقد حصر المؤلف دراسته في منطقة الحدود

الجنوبية التي يبلغ طولها (٧٥٠) كيلومتراً ويختلف عرضها بين (٦٠) و (٨٠) كيلومتراً باحثاً عن مواقع الحصون والمخافر التي أقامها الرومان على ثغور هذا الخط لدفع عدوان برابرة الصحراء ومنع تسربهم الى ما ورائها .

ولم تكن محاولة المؤلف الأولى في بابها فقد سبقه اليها منذ احتلال الجزائر عدد من المشتغلين بتاريخ افريقية الشمالية في العهد الروماني ومن أبرزهم (رينه كانيا) (René Cagnat) و (ستفان جسيل) (Stéphane Gsell) وقد زعما أنهما أحصيا جل الأبنية التي خلفها الرومان في الجزائر . وبذلا في سبيل ذلك الجهد والمال في رحلات طويلة ، محفوفة بالأخطار وفي بلاد مترامية الأطراف ، وعرة المسالك وضنينة بأسرارها .

ان مهمة أمثال هؤلاء الرواد ـ وكانت تعتبر في الماضي مغامرة وبطولة ولا يقدم عليها الا من تحلى بالشجاعة والصبر على مكاره السفر واقتحام أخطاره ـ أصبحت اليوم بفضل الطائرة والتصوير متعة تحدت الزمن وتخطت العقبات وكان السيد كريفورد (Crawford) أول من استعمل هذه الطريقة الحديثة وجربها في انكلترا عقب الحرب العالمية الأولى ثم طبقها الأب بوادبار (Poidebard) على نطاق أوسع في سورية وقد أسفرت هذه التجربة عن أحسن النتائج اذ استطاعت عدسة آلة التصوير أن تلتقط من الجو بارتفاع معين وفي ساعات محدودة من النهار ما تعجز العين المجردة عن ادراكه وصورت الأبنية التي حجبتها عن النظر الأتربة والرمال أو غمرتها الأمواه تصويراً ظاهراً واضحاً .

وقد زينت هذه النتائج لمؤلف هذا الكتاب وهو من قادة سلاح الطيران الافرنسي أن يحلق فوق بادية الجزائر مستطلعاً المنشآت الدفاعية من حصون ومخافر وطرقات وانقطاعات التي نظمها الرومان في هذه المنطقة الجرداء . استغرق عمله ثلاث سنوات حقق خلالها النتائج الباهرة التي عرضها لنا في كتابه ويعتبر

هذا الأسلوب الحديث في البحث عن الأبنية الأثرية مرحلة جديدة في صحة المعلومات واختصار الوقت وحبذا لو تطبق هذه الطريقة في بقية الأعمال الحكومية الواسعة كالتحديد والتحرير وغيرها من دراسات المساحة والتخطيط كسباً للوقت وتوفيراً للنفقات والجهد ٠

Stéfan Zweig - Le Brésil terre d'avenir. Traduit de l'allemand par J. Longeville. Paris 1949.

البرازيل أرض المستقبل

لمؤلفه ستيفان زويغ ٠ ترجمه من الألمانية الى الفرنسية جان لونجفيل عدد صفحاته (٣٣٥) صفحة من قطع الصغير ٠ طبع في باريز سنة ١٩٤٩ ٠

أكثر الناس لا يميزون بين البرازيل وغيرها من جمهوريات أميركا الجنوبية ، فهي في نظرهم محط رحال خليط من مغامري الأمم ومشرديهم ، فرقتهم المنازعات العنصرية والدينية وشغلتهم عن الحضارة والعمران وطاب لهم عدم الاستقرار ٠

لبى مؤلف هذا الكتاب دعوة لزيارة البرازيل للتعرف اليها ـ وكان من هؤلاء المخدوعين وحامل فكرتهم ـ وهو قانع انه سوف لا يجد في هذا البلد المنحط أكثر مما يعرف عنه هو وأمثاله من الاوروبيين وبقية شعوب أميركا الشمالية ٠ ويتساوى بالجهل بأحوال هذا البلد الخاصة منهم والعامة ، ومن طريف أوهامهم ما وقع فيه أحد كبار أدباء الانكليز الذي أرسل بطل روايته الى عاصمة البرازيل ليتعلم اللغة الاسبانية مع أن سكانها لا يتكلمون الا البرتقالية ٠

لم تكد تطأ قدما المؤلف عاصمة البرازيل حتى تبددت أوهامه وهبط من عليائه وتضاءل في نظره ما كان يفاخر به أبناء العالم القديم غيرهم من شعوب

الأرض ، فقد شاهد في البرازيل على حداثة عهدها في الحضارة عمراناً يفوق عمران أعظم عواصم أوربا ورأى من حسن التنسيق وسلامة الذوق ما يفتقر لمثله الغرب ؛ وقد تضافرت هنا الطبيعة وعبقرية الانسان فابتدعتا أروع نماذج العمران الحديث مستمدة من تقاليد البلاد الجيدة ، وصاغ قومها حضارة جديدة دون أن يزدروا بثقافتهم القديمة . وقد أكبر المؤلف في هذا الخليط من الناس التفافهم حول قوميتهم الجديدة والاعتزاز بها دون تمييز عنصري أو اضطهاد ديني . وقد تآخى القوم في اغترابهم ونبذوا أحقادهم وعاشوا في سلام ووئام .

وكان المؤلف على حق في قوله : ان البرازيل هي : « أرض المستقبل » في اقتصادياتها وعمرانها ، ونحن نزيد عليه بأنها ستكون أيضاً خير مثال يحتذى اذا أراد العالم أن يسوده السلام .

Hinry Valloton - Brésil terre d'amour et de beauté. Lausanne 1948.

البرازيل بلد الحب والجمال لمؤلفه هنري فالوتون . عدد صفحاته (٢٩٣) من قطع الوسط تتخللها بعض الصور . طبع في لوزان سنة ١٩٤٨ .

وصف المؤلف في هذا الكتاب رحلته الى البرازيل فأحسن وصفها ، وأخذ بسعة هذا البلد ووفرة ثروته الطبيعية ، وأعجب بنهضة شعبه ووحدة أمانيه على تعدد عناصره ومذاهبه ، وأكبر جهود حكومته وبسطها سلطانها على هذا العالم المترامي الأطراف وتفوقها في استثمار خيراته .

أقام المؤلف سنتين في تلك الديار قطع خلالها في رحلاته أكثر من (١٥٠٠٠) كيلومتر فأدرك أطرافها ولم يلج صميمها لقصر مدة اقامته ، والبرازيل كما يقول : « ليست دولة بل هي عالم لم تنته الى اليوم اكتشافات مجاهله ،

ويكاد عمر المرء كله يكفي للاحاطة بأجوائه » • ويشتم القارئ في قوله ريح الدعاية رغم زعم المؤلف بأنه وفق الى دراسة هذا البلد ووقف على دخائله وعالج مشاكله بنزاهة واخلاص وتنبئه له بأطيب الآمال • ولم يكن مؤلفنا أول من فتن بالبرازيل وسكانها بل هذا هو شعور كل من زار تلك الجمهورية العظيمة وتعرف اليها ، فهو يحق بلد الحب والجمال والنبل وكرم الوفادة • ونحن السوريين أول من يشارك المؤلف عواطفه نحو البرازيل ولنا من جاليتنا أصدق الشهود لما يلقونه فيهـا من كرم المثوى والتسامح والمعاونة •

Xénophon - de l'art équestre. édité par Edouard Delebecque•

الفروسية

تأليف كزينفون • نشره وترجمه من اليونانية الى الفرنسية الدكتور ادوار ليبك وعلق عليه • طبع في باريز سنة ١٩٥٠ •

احتل الفرس في العالم القديم مكانة عظيمة ، وكان منذ أقدم العصور موضع عناية الشعوب واهتمامهم ، وهو أكرم حيوان استصحبه الانسان وانتفع بخصائصه وعقد الخير في ناصيته • وكثر الكاتبون في صفاته وفوائده وتوسعوا في طرق رياضته وتحسين نوعه • وقد عثر في بوغاز كوي على كتابة حثية كتبت حول عام (١٣٦٠) ق • م ذكر فيها كاتبها القواعد التي يجب أن يعرفها سائس الخيل ومدربها لإتقان مهنته واعدادها لفنون الحرب في الكر والفر ومعالجتها في مرضها • وكانت عناية الحثيين بالخيل التي جلبوها من أواسط آسيا واعتمادهم عليها في هجماتهم الخاطفة في غزواتهم من أهم عوامل تغلبهم على شعوب الشرق الأوسط • وقد أدركت الشعوب المغلوبة خطر هذا الحيوان وفوائده في الحرب والسلم فتنافسوا

باقتنائه والعناية به . وقد عني اليونان بالفرس وكرموها وأدخلوها أساطيرهم الدينية وأبدعوا بتمثيل فرسانهم في فنونهم الجميلة .

ومؤلف هذه الرسالة هو من هواة الخيل في اليونان وفرسانهم ، عاش في القرن الرابع ق . م . وقد دون لولديه في هذه الرسالة خبرته الطويلة في تربية الخيل واتقاء جيادها ، فوصف لهما محاسنها وعيوبها وما يلزمها من علف ومأوى وما تتطلبه سياستها من فطنة وحكمة ، وأسهب في تعداد أساليب تدريب هذا الحيوان وتطبيعه للأغراض التي اقتني من أجلها .

كتب المؤلف رسالته بأسلوب بسيط وتغلب السجاجة على أحكامه على كثير الأمور التي يرويها ، فهو شاهد يدلي بمشاهداته دون تعليل أو تنميق . ومحترف ماهر تعوزه بلاغة البيان في مهنته وحسن التنسيق في بحثه . ولم يكن مؤلفنا من مفكري اليونان ونوابغه المبدعين ممن وضعوا قواعد علمية معينة أو قرروا نظريات عامة . بل كان همه تخريج فرسان وتدريبهم في فنون الفروسية وتوابعها وارشادهم الى محاسن الجياد وعيوبها وأساليب تطبيعها والعناية بها ، وقد حقق هذا الكتيب غايته وخلف لنا صورة صادقة عن نظر الأقدمين في الخيل ومبلغ انتفاعهم بها . وكان الفضل لمترجم الكتاب وناشره في توضيح غوامض النص اليوناني وبيان فوائده .

المدخل الى تاريخ الحضارة (الجزء الأول)

تأليف الدكتور جورج حداد أستاذ التاريخ في الجامعة السورية

يبحث الدكتور المؤلف في كتابه هذا في شروط الحضارة ومظاهرها وفي طلائع الحضارة ومصادرها ، وفي تفاعلات الحضارة ومآثرها في بلاد الشرق القديم وفي العالم اليوناني الروماني حتى ظهور النصرانية . وقد استعرض فيه قصة الحضارة والعوامل التي أدت الى ظهور حضارات مختلفة ، وتناول أسباب نموها وانتشارها ثم انحطاطها وقد جمع في هذا الكتاب على صغر حجمه عصارة ما كتبه في هذا البحث علماء أعلام في عشرات المجلدات . وقد بذل جهوداً محمودة حتى قدم الى مواطنيه هذا الكتاب وهو الأول من نوعه باللغة العربية .

وكان الدكتور موفقاً بأكثر الألفاظ العربية التي اختارها أو وضعها للاصطلاحات الفنية الأجنبية ، وقد مهد بذلك السبيل لكل من يرغب باقتفاء أثره . وحبذا لو جمعها في مسرد ليسهل الرجوع اليها والافادة منها .

وقد توسع الأستاذ المؤلف في تعريب بعض أسماء الأمكنة ، فقال في ص : (٥٩) تل غورا وتل حصار بدلاً من تبة غورا وتبة حصار مع ان الكتب الأجنبية تحرص على ذكر الأسماء كما اشتهرت بها فقالوا : تل الحريري وتل كوجك وتل العبيد الخ . وجاء في ص : (٥٩) الترميد النيء مع أنه يقابلها لفظة اللبن ، وفي ص : (٧٣) أكيتوم وصوابها أكثيوم . وفي ص : (٨٣) منتصف الأول ق . م ولعله أراد منتصف القرن الأول ق . م . وفي ص : (٨٥) أساس سكان مصر والأفضل أن يقال أصل سكان مصر . وفي ص : (٨٦) الطوب المجفف يقابلها اللبن . وفي ص : (١٤٧) وقلعتان صوابه وقاعتان . وفي ص : (١٦٥) الطين المشوي يقابله الآجر .

ويبشر هذا المدخل الذي أتحف به الدكتور الخزانة العربية بأن أبحاثه المنتظرة التي مهد لها سوف لا تقل عنه فائدة وتدقيقاً ينتفع بها الطالب والباحث .

الديارات

تأليف أبي الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ . عني بتحقيقه ونشره الأستاذ كوركيس عواد . عدد صفحاته (٣٣٥) صفحة من قطع الكبير ، طبع في بغداد سنة ١٩٥١ .

أحسن الأستاذ المحقق في اختياره هذا السفر النفيس ، وأجاد في نشره والتعليق عليه . وكان يغلب على الظن ان هذا السفر كان نصيبه الضياع كالكثير من تراث السلف ومآثرهم . ولكن عناية الأقدار شاءت أن تنجو منه نسخة فريدة استقرت في مكتبة برلين العامة ، كتبت سنة ٦٣١ هـ . وعسى أن يساعد نشر هذا الكتاب على ظهور نسخ جديدة منه محفوظة في خزائن الكتب الخاصة تساعد على اتمام نقصه وتصحيح عبث الناسخ وتقويم تصحيفه وتحريفه .

ان لكتاب الديارات منزلة أكبرها الأقدمون واعتمدوه في كتبهم لما يحوي من أنباء البلدان والأحداث التاريخية وسير الرجال وما انطوى عليه من طرف أدبية وغرر شعرية أغفلها غيره ، وهو كما قال عنه الأستاذ حبيب زيات : «إنه ذخر للمؤرخ وغنية لكل أديب وحقيق بالخدمة» . وقد نقل عنه كثير من المؤلفين فصولاً أودعوها مؤلفاتهم منهم : أبو صالح الأرمني ، وياقوت الحموي ، وابن شداد ، والقزويني ، وابن فضل الله العمري وغيرهم .

قد جاء في الحاشية (٥) من ص : ١٣٠ : فيق من مدن فلسطين القديمة وصوابه من مدن سورية وهي اليوم مركز قضاء الزوية الغربية .

وجاء في ص : ١٣٧ في فصل دير البخت بأنه بدمشق وعلى فرسخين منها ، وقد علق الأستاذ المحقق بما ذكره عنه الأستاذ (دوسو) في خططه بأنه في حوران شمالي قرية الصنمين . وأعتقد بأن الدير المذكور في الديارات هو غير القرية التي ذكرها الأستاذ (دوسو) وهي على نحو ثماني فراسخ من دمشق . ان اختلاف البعد بين المكانين وتباين الأوصاف تبعد الالتباس بينهما ، وصف الأول بأنه

في موضع نزه فيه جنائن وماء جار بينما دير البخت الحورانية هي موضع موحش لا ماء فيه ولا جنائن ، ولذلك يجب البحث عن دير البخت في غوطة دمشق وما جاورها في حدود الفرسخين حيث الماء والحدائق .

وجاء في ص : ٢٤١ : كلمة مقارنة بدل مطارنة وهي غلطة مطبعية لا تغيب عن فطنة القارئ .

وقد ضم الأستاذ المحقق الى هذا الكتاب ذيلاً قيماً بقلمه وفهارس مطولة دلت على غزير علم الزميل الكريم وسعة اطلاعه فجزاه الله على خدمة العلم خيراً وبارك بجده وجهوده .

تاريخ العرب قبل الاسلام

تأليف الدكتور جواد علي ، يقع الكتاب في مجلدين ويبلغ عدد صفحات الجزء الأول (٤١٧) صفحة والثاني (٤٣٠) صفحة ، وهو من مطبوعات المجمع العلمي العراقي وطبع الجزءان في بغداد في سنتي ١٩٥١ و ١٩٥٢ . وزينا بكثير من الرسوم والمصورات .

قدم الأستاذ المؤلف في هذين الجزئين القسم السياسي من تاريخ العرب قبل الاسلام . وهذه الدراسة على ما أعلم هي أوسع ما كتب حتى الآن في هذا الموضوع في العربية أو في أي لغة أعجمية . جمع في هذا الكتاب صفوة ما كتبه الأقدمون والمعاصرون عن أخبار العرب في الجاهلية وأضاف اليها ما وصل اليه علمه وثمرات أفكاره ونتيجة أبحاثه ، وكون من كل ذلك نواة لتاريخ العرب قبل الاسلام ، وجعل من كتابه هذا نقطة انطلاق لكل راغب بمواصلة البحث والتوسع فيه وكشف الكثير من غوامضه وخفاياه التي يعوزها التحقيق والتدقيق ، ولا يرجى للطامعين المزيد بعد أن استنفد المؤلف معظم المصادر المعروفة الا اذا أطلق للعلماء حرية التجول في مجاهل شبه جزيرة العرب للبحث عن آثارها وجمع الجديد من أخبارها ، ويقع العبء الأوفر من هذه المهمة على عاتق الآثاريين

الناشئين العرب ومن واجب الحكومات العربية ومعاهدها العلمية مساعدة هؤلاء العلماء على تحقيق هذه الخدمة العلمية والغاية القومية .

وقد بحث المؤلف في الجزء الأول من كتابه عن الجاهلية ومصادر التأريخ الجاهلي ، ووصف جزيرة العرب ، وصلات العرب بالساميين ، وطبقات العرب وأنسابهم ، وتاريخ شبه جزيرة العرب ، وخص الجزء الثاني بتاريخ الحكومات والمشيخات والقبائل العربية التي عاشت قبل الميلاد وقد استخلص أخبارها من كتابات المسند القديمة ومن مصادر أخرى .

واني لأرجو من المؤلف أن يسمح لي بابداء بعض الملاحظات وان لا أشاطره رأيه في حصر أثر العرب قديماً في بادية الشام لأن الاكتشافات الأثرية الجديدة والدراسات اللغوية والدينية أثبتت بأن توغل العرب في مختلف أجزاء الديار الشامية كان قديماً أعمق مما يظن اليوم . وقد فات المؤلف عند بحثه عن حدود بادية الشام في ص : (١ : ١٢٢) ذكر كتاب : (Poidebard - La trace de Rome dans le désert de Syrie) وهو أوفى بحث في هذا الموضوع . وجاء في (١ : ١٢٥) (قبائل عنيزة) والمتعارف عليه هو قبائل عنزة . وفي (١ : ٢٠٣) الجبيل وصوابه جبيل . وفي (٢ : ٣٣٢) (Azalla) موقع في بادية تدمر بين أرك ودمشق وصوابه : (Nazalla) وهي على الأرجح قرية القريتين الخالية بين تدمر ودمشق . وفي (٢ : ٣٣٦) وجعل عليها (Satrap) وأصح أن يقال وجعل عليها (مرزباناً) وفي (٢ : ٣٦٦) « ارتاس » وصوابه « الحارث » وهو الاسم العربي الذي اشتهر به .

نشكر المؤلف على جهوده القيمة كما نشكر المجمع العلمي العراقي الذي أتاح له فرصة نشر ثمرة أبحاثه المفيدة ونأمل أن يبر المؤلف بوعده وينشر تتمة أبحاثه عن حضارة العرب وحالتهم الثقافية والاجتماعية قبل الاسلام ونحن بأمس الحاجة لمثل هذه الأبحاث الجديدة .

جعفر الحسني

آراء وأنباء

فجع المجمع العلمي العربي – بعد أن تم طبع هذا المجلد من المجلة – برئيسه العلامة الكبير الأستاذ محمد كردعلي . اختاره الله يوم الخميس في الثامن عشر من شهر رجب سنة ١٣٧٢ والثاني من نيسان سنة ١٩٥٣ م .

والمصاب بالأستاذ الرئيس اذا خص مجمعنا العلمي العربي – وقد كان مؤسسه الأول ورئيسه الدائم ربع قرن كاملاً يتعهده برعايته ، ويرعاه بعنايته ، ويسهر على تقدمه وازدهاره . وينفق عليه من روحه ووقته وعلمه – فقد عم مصابه الشام ، وهو مؤرخه الثبت في واسع اطلاعه ، وصحيح حكايته ، وجريء روايته ، مقرراً للحوادث والوقائع ، مستخلصاً للحقائق ، بفكر نقاد ، وقريحة صافية ، وأسلوب أدبي رفيع ، كان نسيج وحده .

هذا الى ما كان له في العالمين العربي والاسلامي من الشهرة الواسعة والمكانة العالية لما كان يبعثه من كنوزهما . وينشره من حضارتهما . داعياً مخلصاً لنهضة صحيحة . بلسانه محاضراً ، وبقلمه كاتباً ومؤلفاً ، وفي مجالسه منبهاً ومحدثاً ، وفي صحفه داعيةً ومرشدا ، ما وقفه مرض ، ولا عاقته شيخوخة ، عن هذه الخدمة العلمية الصادقة النصوح ، لقومه ولأمته .

رحمه الله عداد حسناته وخدماته .

الدراسات الاجتماعية

أقام المجمع العلمي العربي في داره مساء السبت الواقع في اليوم الثالث من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٧٣ الموافق ٢٠ كانون الأول سنة ١٩٥٣ حفلة تكريم لممثلي الدول العربية والاسلامية في حلقة الدراسات الاجتماعية التي عقدت دورتها الأخيرة في دمشق فألقى العلامة الدكتور أسعد الحكيم أحد أعضاء المجمع الكلمة الآتية :

سيداتي . سادتي !

أحييكم بأحسن تحية . وأرحب بكم أجمل ترحيب ، باسم هذا الصرح العلمي التاريخي ، الذي هو أول مجمع علمي عربي أنشئ في هذا الشرق الأوسط . فقد مضى على تأسيسه ثلاث وثلاثون سنة أدى فيها وما زال يؤدي رسالته في خدمة اللغة والأدب والتاريخ والثقافة العربية العامة بصدق وأمانة . وإذ أزف اليكم تحيته فانه يحيّي فيكم المبدأ السامي الذي اجتمعتم من أجله ، والغاية الانسانية المثلى التي ترمي هذه الحلقة اليها ، والحكومات العربية التي عهدت اليكم بهذه الأمانة فأحسنتم أداءها كما ستحسن هي العمل بتوصياتكم بعون الله .

ومن بواعث سرور هذا المجمع أن يكون ختام اجتماعات هذه الحلقة الدراسية الاجتماعية في هذه الدار المباركة التي يرقد على مقربة منها ، ونفسه مطمئنة ، بانيها ، المحقق الأول للعدالة الاجتماعية التي جاء بها صاحب الشريعة الاسلامية . فقد كان للملك العادل في ميدان الخدمات الاجتماعية التي تقصد الى تحقيقها فخر السبق والحظ الأوفر : مستشفيات في كل بلد للمرضى مفتوحة الأبواب لكل من يؤمها ، وملاجئ للزمنى المقعدين والمصابين بالأمراض العقلية ، والمجذّمين تعد من حيث نظمها وادارتها وغذاؤها وعدد الأطباء والمشارفين

والخدم فيها كأحسن المستشفيات والملاجئ في هذا العصر . ومكاتب للأيتام تجري عليها وعليهم وعلى معلميهم الجرايات . ومدارس ومساجد ومنازل للغرباء والفقراء لكل منها أوقاف معينة . كما أن هنالك أوقافا لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ، وأوقاف تجهيز البنات الى أزواجهن ، وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن (وهذا لم يلاحظ في أعمال هذه الحلقة) الى غير ذلك من أعمال البر والاحسان غير الممنون التي تعد لشاعها من أجل الخدمات الاجتماعية وتخلد للملك العادل في تاريخ الانسانية والعدالة الاجتماعية أطيب الذكر ، لا سيما وهو القائل لأصحابه عندما تعرضوا لكثرة خرجه في هذه السبيل : « إنما أنتم ترزقون وتنصرون بضعفائكم . وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال . كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم ؟ » .

وكأني بروحه الزكية وقد انتعشت لذكراها الآن فجاءت ترفرف فوق هذا الجمع الكريم تبارك مسعاه وتشكر له سعيه ، وترجو لتوصياته التحقيق ، والله المستعان . والسلام عليكم . اهـ .

* * *

فأجاب العلامة الأستاذ محمد العشماوي رئيس الوفد المصري عن هذه الكلمة بما عرف به من علم وطلاقة وبلاغة وسحر بيان فأثنى على المجمع العلمي العربي أقدم المجامع العلمية العربية وعلى جهوده واتجاهه العظيم خير ثناء . وامتدح دمشق بأنها السباقة الى كل ما فيه فخر للعروبة . ثم شكر للأستاذ رئيس المجمع العلمي كريم دعوته وعظيم الحفاوة التي استقبل المدعوين بها متمنيا لهذا المجمع الازدهار والتقدم .

الألفاظ المكررة

تعرض للكاتب الفاظ تلازمه فيكررها في كلامه على غير قصد ، وليست غلطاً بل غلط ذوق . وهل الكتابة الا كلام بذوق ؟ وما كانت المكررات يوماً تحلو في الذوق . والمكرر يمكن تناديه لاتساع اللغة وما بالكاتب حاجة الى استعمال لفظة واحدة في صفحة واحدة عشر مرات وأحياناً أكثر . ومما وقع لنا ووقع لغيرنا وكثر استعماله على هذا الوجه لفظ « البلاد » وفي الألفاظ التي تؤدي معناها غنية عن هذا التكرار ، مثل : « الديار » ، « الأرض » ، « الممالك » ، « المملكة » ، « الأقطار » ، « القطر » ، « البلد » ، « الأرجاء » ، « الأقاليم » ، « الأصقاع » ، « الأوطان » ، « الموطن » ، « الوطن » ، « القارة » ، « البر » الخ . يستعمل من كل أولئك ما يناسب المبنى المراد .

وتتصرف كلمة « البلاد » على كلمات كثر تردادها فابتذلت ومجتها النفوس وان كانت لا غبار عليها من حيث اللغة وهي كلمة : « فحسب » ، « اللهم » ، « أجل » ، « أي » . ووقع لأحدهم أن أتى بلفظ « أي » سبع مرات في مقطعين من كلامه . فقال : « أي شعب » ، « أية فلسفة » ، « أية أمة » ، « أية فلسفة » (مرة ثانية) ، « أي خلق » ، « أي مبدأ » ، « أية أمة » (مرة ثانية) . ووقع لأحد كتاب مصر أثناء كلامه على ديوان نشر حديثاً أن كرر لفظة فحسب نحو عشرين مرة في المقدمة . ومثله ما حدث لكاتب آخر أن كرر في حديث له في المذياع كلمة « اللهم » أكثر من عشر مرات .

واستعمال كلمة بعينها في قصد واحد ينمي على الكاتب عجزه وقلة بضاعته من الألفاظ وهي ميسورة له . وكثيراً ما يقع ذلك في كلام متأدبين فاذا لفت أنظارهم اليها يعتذرون عن تماديهم في ايرادها بانهم يقررون قضايا علمية ولا يهتمون لغير الافصاح عن المعنى ولذلك كان لهم أن يستعملوا من المفردات ما طاب لهم ،

وجمال العبارة لا يقدح في جوهر الكلام . أما الحقيقة فعلى غير ما يصورون فللقوالب رونق وجمال ومن جملة الابداع افراغ الكلام في صورة مقبولة . فان كنا نستهجن من مخاطبنا أن يُعيد في كلامه ويكرر ويحشده بما هو مستغن عنه فنحن أحرياء أن نشمئز من التكرار في الكتابة وبخاصة فيما يفرض فيهما الخلود أو التداول زمناً .

قد يعذر المضطرون الى الاسراع في كتب ما يكتبون كأرباب الجرائد ولكن ما عذر بعض المؤلفين وأرباب المجلات في تسطير ما يعاب وهم في سعة من الوقت ، وما اخال معظمهم اذا حدقوا النظر قليلاً فيما ترعف به أقلامهم الا عائدين على ما خطوا بالحذف والتبديل . واذا أرجعوا أبصارهم على ما كتبوا مرتين في يومين يسقطون على ما يرون من أنفسهم دافعاً لحذفه . وليس من شك في أن كل كاتب اذا تأمل قليلاً فيما يكتب يتأتى له أن يحذف ألفاظاً وجملاً يستعيض عنها بأجمل منها ويسلم كلامه من المجمجة والغثاثة . واذا قرأ ما فتح على قريحته بادئ الرأي ، وصوره لساعته على الورق ، على رجل مرن على الكتابة يصحح له المعوج ، وينبهه الى الركيك والمكرر السمج ، يأتي بعد ذلك بالجيد من القول ويخرج أحسن ما عنده خصوصاً اذا كان على فضل ذكاء ورغبة في الاتقان . والاتقان في كل شيء يتوقف على الاكثار من العناية والأناة . وقديماً كان الكتاب ينقد بعضهم بعضاً فتصفو كتاباتهم في العين والذوق ويقبلها جهابذة الكلام ولا يرذلونها . وفي أيامنا عمت البلوى بالمكرر البارد والدخيل غير الوارد حتى كاد بعض من اعتادوا سماع كلام البلغاء أن يعرضوا جملة واحدة عن النظر في المنشآت الحديثة ، يتقززون من تلاوتها وان كانت تحمل أفكاراً جيدة وعلماً طريفاً .

كان من عادة صديقي الشاعر حافظ ابراهيم رحمه الله اذا نظم قصيدة أن يرددها على مسامع اخوانه ليذكروا له رأيهم في ألفاظها ، وكنت أستكبر منه

ذلك على تضلعه من اللغة واستغنائه ببيانه عن كل بيان ، فكان يقول لا بد من أخذ آراء العارفين وان لم يكونوا شعراء فقد تكون لهم يد في اللغة ويهتدون الى مواقع استعمالها بما لا يهتدي اليه غيرهم . ويا حبذا لو تأسى الكتاب بشاعر النيل يحذون حذوه يوم يخطون أسطراً تنشر وتؤثر .

لو كانت جرائدنا وناشرو كتبنا على شيء من الغنى لاقترحت على كل جريدة وعلى كل مطبعة أن تعهد الى أستاذ تحرير في البيان يقوّم العبارات الضعيفة ويصقلها صقلاً يخرجها عن حد الكلام الغث التافه ، وبطول الزمن يدرك كل من يكتب ما يعاب على الكتاب فيتوقاه ويكتب الكلام المنقح المستملح .

أدب طه حسين

من قبيل تحصيل الحاصل الاشادة ببلاء صديقي العلامة الدكتور طه حسين في خدمة الآداب العربية ، وأثره المحسوس في ادخالها في طور جديد وبث أفكاره في جميع طبقات القراء . كان جلياً في معظم ما خطته يمينه من بحث علمي وابداع أدبي وكان عمله عدل علمه ظهر ظهوراً واسعاً في رئاسة الجامعة وفي وزارة المعارف . وما خلا مع هذا من حساد وأعداء ولكنهم قلائل جداً اذا قيسوا بالمعجبين به والمستفيدين من نفثاته ، فهو بلا مراء حسنة من حسنات مصر في هذا العصر وفضله على الأفراد والجماعة لا ينكره عليه الا مكابر .

ينشر الدكتور هذه الأيام في جريدة «الاهرام» مقالات في الأدب يعرض فيها للكتب الحديثة ولا سيما للقصص والروايات ويفيض في نقدها بلطف ولا يغفل عن الدلالة الى ما فيها من مواضع احسان ، فهو كعلماء الافرنج في هذه الأيام يعلل تعليل حكيم عالم ، ويحلل تحليل نقاد منصف ، يعلّم ولا يجرح ويتألف ولا ينفر . ولا يسع المرء مهما كان معجباً بنفسه اذا قرأ ما كتبه فيه

نابغة مصر الا أن يشكره على عنايته ويفيد من نصائحه الثمينة ، ويشفع لهذا الأسلوب الجديد في النقد الصدق وقول الحق ·

ولا مراء في أن للآداب خطة سيخطر كل من يمسك القلم ليؤلف للناس أن يحاسب نفسه بعد الآن قبل أن يحاسب غيره ويعلمها قبل أن يدعي مقام المعلم ·

كثر التافه في التآليف الجديدة حتى عافت النفوس الكريمة كل ما يطلق عليه اسم الأدب · ورأينا الجرأة على نشر الغث والخفيف الوزن توازي غرام بعضهم اخراج للناس ما لا ينفعهم · يداوي الدكتور طه فوضى الأقلام بدرياق علمه وصحة حكمه وقد سئم القوم مصانعات المجلات والجرائد للمؤلفين والناشرين وعبث الأذواق الكتابات التجارية الرخيصة ·

محمد كرد علي

(استدراك آخر)

كتب الأستاذ رئيس المجمع العلمي العربي تعليقاً على ما ورد في جريدة الأخبار المصرية بعنوان (بين الفصحى والعامية) منتصراً فيه لمجمع اللغة العربية المصري ولوزارة المعارف أيضاً ، بحرص المجمع على انتقاء كلمات عربية أصيلة ، تحل محل الألفاظ الأعجمية الدخيلة ، على هذه اللغة الكريمة · وقد جاء في آخر كلام الأستاذ محمد زكي عبد القادر : « ألا ينادي البعضُ اليوم بالعودة الى النظم التي كانت سائدة في عصور الإسلام الأولى ؟ أليست هذه ردة عجيبة في وقت يدعو فيه كل شيء للتحرر والتقدم ؟ ! » ·

يقول هذا في معرض التنظير بين اللغة والدين ، وان كلاً منهما يعرض له النسخ والتغيير ، فالأولى بمفرداتها ، والثاني بأحكامه ومعاملاته ، ولو أخذ هذا القول على إطلاقه لما بقي لنا لغة ولا دين !! وليته لم يستطرد ولم يتعرض

لهذا الموضوع الديني الذي أوجب علينا بيان الحق فيه ، وان لم يكن من موضوع مجلتنا العلمية .

وقد علق الأستاذ الرئيس على الأول منهما ، واني أعلق على الثاني بايجاز فأقول : ان النظم التي كانت سائدة في عصور الاسلام الأولى — وهي العصور العربية الذهبية — هي روح (الديموقراطية) الحرة ، ومن مميزاتها على سائر الحكومات المدنية ، أن قوانينها مبنية على النصفة والعدل : « لا ضرر ولا ضرار » بخلاف هذه القوانين التي تبيح كثيراً من الضرر بالنفس والعقل والعرض والمال . ومن مميزاتها أيضاً الرجوع — عند تنازع أولي الحل والعقد — الى ما كان أصح دليلا ، وأوضح سبيلاً ، وأدنى في حكمه الى المصلحة العامة ، بخلاف المجالس (البرلمانية) التي كثيراً ما تحكم الأكثرية فيها بما تملي عليها المصلحة الخاصة والهوى ، وتخالف الحق الصريح مخالفة ظاهرة ، فلا هي معتقدة بصحة حكمها ، ولا الأقلية المنصفة مقتنعة بفساد رأيها ، ولكنها تكون مغلوبة على أمرها .

ونحن نورد شاهداً واحداً على ما سماه الأستاذ (التحرر والتقدم) وهو أن علماء الحقوق والاجتماع في هذا العهد قسموا العقوبة الى أدوار ثلاثة : انتقام وقصاص واصلاح ، والحق الى شخصي وإلهي وعام ، وجعلوا الإسلام في هذين المطلبين ، وسطاً بين طرفين ، فعقوبته قصاص ، أي لا تأديب واصلاح ، والحق فيه إلهي ، أي ما هو حق عام للأمة ، والصواب أن هذا التقسيم الثلاثي ، هو أمور اعتبارية ، لا حقائق ثابتة متغايرة ، فانه لا منافاة بين كون العقوبة حقاً شخصياً وإلهياً وعاماً ، وإنما يختلف التعبير باختلاف الاعتبار ، فالحق شخصي من جهة قرابة صاحب الحق وذويه ، وإلهي من حيث ان الله تعالى قسم الحقوق بين العباد على قاعدة العدل والإحسان ، وشرع القصاص رحمةً بالعباد ، وذريعة لحسم مادة الفساد ، وحق عام من حيث وحدة الأمة وتضامنها ، وان ما شرع في مصلحتها ، فهي المكلفة بتنفيذ الحكم بواسطة حكومتها .

والانتقام قد يراد به التأديب ، والقصاص تكون غايته الحياة الطيبة والإصلاح ؛ وما يقال في الأمم يقال في الأفراد فان القتل والقطع والجلد ، يراد منها صلاح الفرد ، والمحافظة على المجموع ، فكم من نقمة أورثت نعمة ؛ والعجب ممن ينكر القصاص العادل ، ولا يعظم الذنب ، إن الجريمة هي التي تقضي الى القصاص ، وهو الذي يأخذ المجرم بذنبه ، فيكون فيه حياة الباقي ، وإذعان القرابين للحكم ، وإزالة الوغر والضغن ، وكف الأذى والعدوان ، «فمن عُفي له من أخيه شيء فاتباع بمعروف وأداء اليه باحسان» .

ثم قال الأستاذ محمد زكي : «ولو وعوا أن الاسلام لم يقصد قط خلود حكم من الأحكام فيما عدا العبادات لأدركوا أيّ دين عظيم هذا الدين ، وأية شريعة سمحة هذه الشريعة .. ولكنهم بضيق التفكير ، وضآلة الفهم ، يجنون على الاسلام أعظم جناية» .

أقول : إن من الأحكام الثابتة الخالدة ما لا يغيره الزمان والمكان ، ولا يختلف باختلاف الشعوب والأقوام ، وهي الأصول الكلية التي اتفقت عليها شرائع المرسلين كالتوحيد والصدق والعدل والإخلاص ، وتحريم الظلم والفواحش ، والشرك والإفك «إن الله يأمر بالعدل والاحسان ، وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي» فهل تقبل هذه الأوامر والنواهي تبديلاً أو تعديلاً ؟ وقوله في العدل العام : «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا ، اعدلوا ، هو أقرب للتقوى» أي لا يحملنكم بغض قوم لكم أو بغضكم لهم على ألاّ تقيموا سنة العدل فيهم ؛ ثم أمرهم بالعدل الكامل الشامل للمسلمين وغيرهم على اختلاف طبقاتهم بقوله : «اعدلوا» وحذف المعمول يؤذن بالعموم كما هو معلوم .

قال حكيم : « الاسلام هداية روحية ، وسياسة اجتماعية مدنية ، فأما الهداية الدينية المحضة فقد جاء بها تامة أصلاً وفرعاً ، وفرضاً ونفلاً ؛ وأما السياسة الاجتماعية المدنية ، فقد وضع الإسلام أساسها وقواعدها ، وشرع للأمة الرأي والاجتهاد فيها ، لأنها تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وترتقي بارتقاء العمران ، وفنون العرفان ؛ ومن قواعده فيها ان سلطة الأمة لها ، وأمرها شورى بينها ، وأن حكومتها ضرب من الجمهورية ، وخليفة الرسول فيها لا يمتاز في أحكامها على أضعف أفراد الرعية » .

إن الأمة العربية الآن متجهة اتجاهاً قوياً الى أن تعيش في ظلال القوة والوحدة والثروة والنظام ، وهل في الاسلام ما يعارض هذا الاتجاه ؟ لا ، بل الاسلام قد سبق أوربا بمئات السنين اليه ، وجرى ملوكه العدول أيام حضارتهم عليه ، وقد امتازت حضارته بالعدل والفضيلة على سائر المدنيات التي تبيح الظلم والرذائل .

محمد بهجة البيطار

(استدراك)

وقع سهواً في الصفحة (٩٧) من مقال : « أقدم تأليف في الحديث النبوي » المنشور في الجزء الأول من المجلد الثامن والعشرين ما يلي :

الآية : « ما كنت تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون » وصوابها : « ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون » .

كيف تكتب (سورية)

تعددت الروايات عن كتابة (سورية) بالتاء المربوطة أو بالألف. وقد سئل المجمع العلمي العربي عن هذا الغرض فأجاب بقوله ان (سورية وروسية وأمثالها من أسماء الأقطار والمدن التي عرفها العرب تكتب بالتاء المربوطة. والسبب في ذلك يرجع الى أن مؤلفي العرب وكتابهم كانوا يكتبونها كذلك. أما ما لم يكن للعرب به عهد من اسماء البلدان كفنزويلا وكندا مثلاً فيكتب بالألف).

وقد قرر مجمع فؤاد الأول للغة العربية مثل هذا القرار أيضاً ونشر قراره في سجل محاضر جلساته المطبوع سنة ١٩٣٩.

ولكن من أين لنا أن نعرف الأعلام الجغرافية وكيف كتبها العرب؟ ذلك سهل علينا، ولا سيما على المتخصصين في فن تقويم البلدان (الجغرافيا) والتاريخ: يرجع الى كتب التاريخ وتقويم البلدان وهي كثيرة في خزائننا: منها المطبوع ومنها المخطوط. ومؤلفو الجغرافيا العربية الى أواخر القرن الرابع كثيرون: منهم ابن خرداذبه وابن رسته واليعقوبي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي والمسعودي وابو الفدا. وقد تتبع علماء المشرقيات مصنفاتهم وعنوا بها وبفهارسها. وقام بعد هؤلاء البكري والهروي وياقوت الحموي والبغدادي وأشهرهم كلهم الادريسي الذي ألف كتاب (نزهة المشتاق) لملك صقلية. وفي هذا الكتاب خريطة جغرافيا أو أطلس جغرافي وقد أطلق عليه اسم (صورة الأرض). فمن تصفح كتب التاريخ وتقويم البلدان ومصورات الأرض التي ألفت في العربية ووقع بصره على أسماء المدن الأعجمية وجد أن العرب كتبوا أواخر أسمائها بالتاء المربوطة. فنكتب نحن هذه الأسماء كما كتبها المؤلفون العرب. وما لم نظفر به من هذه الأسماء كتبناه بالألف كما يلفظه أهله الأعاجم. أو قلدنا فيها السلف فنكتبه بالتاء المربوطة.

أما الوصول الى هذه المراجع فهي كثيرة في خزانة المجمع العلمي العربي وهو مفتح الأبواب للكتاب والمؤلفين والمراجعين . ولو ألقينا النظر على اسبانيا (الأندلس) مثلاً لوجدنا أسماء مدنها تنتهي بالتاء المربوطة مثل (طليطلة سرقسطة غرناطة طرطوشة جزائر ميورقة منورقة الخ ....) واذا نظرنا الى صورة اوربا وجدنا فرانسة رومة جنوة الخ ... وهكذا يمكن لنا أن نتبين بسهولة ما يكتب بالتاء . وما لا نجده فنحن أحرار في كتابته .

فوجب والحالة هذه أن نكتب (سورية) كما كتبها العرب بالتاء المربوطة . فقد وردت في تاريخ الامام الطبري ، عقد المؤلف فيه فصلاً خاصاً في الجزء (٤) ص (١٥٥) بعنوان (ذكر ارتحال هرقل الى القسطنطينية) وذكرت كلمة سورية فيه مراراً . ومنها ما قاله هرقل في وداعها (عليك السلام يا سورية) وتكررت هذه الجملة بسبب تكرر الروايات . ولم تختلف كتابتها في كل مرة كتبت فيها : هكذا (سورية) بالتاء المربوطة . ومثل ذلك في معجم البلدان لياقوت الحموي . فلا اشكال بعد هذا !

المغربي

كتاب تقييد العلم

(لأبي بكر الخطيب البغدادي)

ابو بكر الخطيب البغدادي من أكابر المؤرخين . ولتاريخه مكانة في الأندية العلمية ، وظهرت عظمته فسار على نهجه جماعة من الأعاظم في تدوين أخبار المدن وآثارها وما أنجبت من رجال في الثقافة نسجوا على منواله في (تاريخ حلب) ، و (تاريخ دمشق)، و (تاريخ مصر الكبير) للمرفق البغدادي ، وتواريخ مدن عديدة .

وأثر فيمن ذيل على تاريخه مثل السمعاني وابن النجار والدبيثي وابن رافع والبنداري ، والذهبي ، والتقي الفاسي ... هذا ولم نحصل على احصاء كامل في علماء بغداد وثقافتها الثقافة التاريخية .

وتهمنا ناحية أخرى (الثقافة التاريخية في الحديث) . وأعتقد أنها لا تقل شأناً عن سابقتها وربما كانت أصلاً لتلك أو ركناً من أركانها . وهي ما نعبر عنه بـ (مصطلح الحديث) . منها اقتبس المؤرخون أصول التاريخ . وهي التي ألهمته أصول تاريخه . ومن ثم أوضح عن (رجال الحديث في بغداد) وغيرهم تناول صحة الخبر ومطالب أخرى تتعلق بها . فهي أصول الحديث وأصول التاريخ معاً . ومؤلفاته في موضوعها كثيرة . ومنها (كتاب تقييد العلم) .

طلع علينا الأستاذ العش بهذا الكتاب ، أوضح ما فيه تعليقاته ، توصل منها الى أن العلماء التالين لم يزيدوا على ما قال . وان اظهاره بهذه الحالة خدمة عظيمة لا تقدر .

وأقول : ان التأثر بكتابه هذا وأمثاله من كتبه الأخرى في فنون الحديث لا تقل ، أو لا تختلف عن درجة التأثر بتاريخه (تاريخ بغداد) . حصل ذلك في مجموع مؤلفاته في (علم الحديث) . وهي كثيرة ومهمة . ومنها ما طبع ، فلم يخل محدث من التأثر بها ، بل لم تر مؤرخاً مكيناً الا تأثر بها من ناحية تدقيق الخبر والوثوق من صحته وطريق الأخذ به .

والخطيب لا ينكر أنه تأثر بمن قبله من المحدثين الا أن العلماء شهدوا بأنه فاق من تقدمه ، وصار التالون عيالاً عليه ، ولعل النص التالي يؤيد وضعه التاريخي في (فنون الحديث) ، ويتميز به على غيره . قال الأستاذ الحافظ شهاب الدين احمد بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ في كتابه (نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر) ما نصه :

« ان التصانيف في اصطلاح أهل الحديث قد كثرت للأئمة في القديم والحديث . فمن أول من صنف في ذلك القاضي ابو محمد الرامهرمزي كتابه (المحدث الفاضل) لكنه لم يهذب ولم يرتب ، والحاكم ابو عبد الله النيسابوري لكنه لم يهذب ولم يرتب . وتلاه ابو نعيم الأصبهاني فعمل على كتابه مستخرجاً

وأبقى أشياء للمتعقب . ثم جاء بعدهم الخطيب ابو بكر البغدادي ، فصنف في قوانين الرواية كتاباً سماه (الكفاية) ، وفي آدابها كتاباً سماه (الجامع لآداب الشيخ والسامع) . وقلّ فنٌّ من فنون الحديث الا وقد صنف فيه (كتاباً مفرداً) ، فكان كما قال الحافظ ابو بكر ابن نقطة : كل من أنصف علم أن المحدّثين بعد الخطيب عيال على كتبه .

ثم جاء بعض من تأخر عن الخطيب فأخذ من هذا العلم بنصيب ، فجمع القاضي عياض كتاباً لطيفاً سماه (الالماع) ، وابو حفص الميانجي جزءاً سماه (ما لا يسع المحدّث جهله) . وأمثال ذلك من التصانيف التي اشتهرت وبسطت ليتوفر علمها ، واختصرت ليتيسر فهمها الى أن جاء الحافظ الفقيه تقي الدين ابو عمرو عثمان بن الصلاح عبد الرحمن الشهرزوري نزيل دمشق فجمع لما ولي تدريس الحديث بالمدرسة الأشرفية كتابه المشهور ، فهذب فنونه وأملاه شيئاً بعد شيء ، فلهذا لم يحصل ترتيبه على الوضع المناسب . واعتنى (بتصانيف الخطيب) المتفرقة فجمع شتات مقاصدها . وضم اليها من غيرها نخب فوائد فاجتمع في كتابه ما تفرق في غيره . فلهذا عكف الناس عليه ، وساروا بسيره ، فلا يحصى كم ناظم له ومختصر ومستدرك عليه ومقتصر، ومعارض له ومنتصر...»اهـ

ثم كتب الأستاذ ابن حجر نفسه كتابه (نخبة الفكر) وشرحها باسم (نزهة النظر) . ومن مخطوطتها نقلنا النص المذكور . ويطول تعداد ما شغل به العلماء من الشروح والتعاليق . ويهمنا بيان التأثير والتأثر بكتب الخطيب في (فنون الحديث) كما أثرت في (فنون التاريخ) ، فتجلت عظمته فيها وفي تاريخه . ومنها تكونت ثقافة العصور التالية بما ألم من آراء سديدة وجديدة . وصحّ ما قيل من أن المحدثين عيال على كتب الخطيب .

وقد أجاد الأستاذ العش بما علقه على كتاب (تقييد العلم) ، فلم يشأ أن ينقطع عنه . وله الفضل فيما أسدىَ من هذه الخدمة .

عباس العزاوي

تصحيح سبعة أسطر

حينما طالعت (تاريخ داريا لابن المهنا) وجدت فيه من التحريف والتصحيف غرائب وبخاصة في ص (١٢٦) فقد ورد فيها من الغموض والابهام ما جعلني أرجع الى تاريخ ابن عساكر فظهر لي أن الترجمة المذكورة بسبعة أسطر في الصفحة المذكورة ليست لشخص واحد وهو «خلف بن محمد» وإنما هي ثلاث تراجم لثلاثة أشخاص كل واحد منهم غير الآخر ، مزج الأستاذ سعيد الأفغاني محقق هذا الكتاب بعضها ببعض وجعلها ترجمة واحدة لشخص واحد . وان ما في هذه الصفحة من الخطأ الفادح دفعني الى نشر تصحيحها حتى لا يقع فيه من ينقل عن هذا الكتاب أو يفيد منه .

وهذه صورة ما ورد في (ص ١٢٦) من تاريخ داريا بتحقيق الأستاذ الأفغاني :

خلف بن محمد بن القاسم بن عبد السلام بن محمد العنسي

حدث عن أبي يعقوب الاذرعي : حدثنا عنه ابو محمد عبد العزيز بن احمد ابن احمد بن عمرو بن معاذ ابيه [كذا ؟] عبد الله بن احمد بن عمرو بن معاذ العنسي .

أبو الحسين يروي عن ابي الميمون بن راشد وابي الحسن بن حذلم ، وابي القاسم ابن ابي العقب ، وابي يعقوب الاذرعي وغيرهم . توفي بداريا[1] في شوال سنة اربع عشرة واربعمائة .

وعلق المحقق على قوله «بداريا[1]» مايلي : (١) في ترجمة ابن عساكر له انه كان قاضي داريا ـ ٣/٢٤٧ أ ـ وفي ص ٣/٢٤٧ ب منه ان وفاته كانت سنة ٤٠٩ هـ .

هذا ما جاء في ص (١٢٦) ويظهر الاضطراب باديًا بين متن الكتاب

من أن محمد بن خلف توفي سنة (اربع عشرة واربعمائة) وبين ما علق عليه المحقق من ان وفاته سنة (٤٠٩) .

أما صواب ما تقدم فكما يلي :

خلف بن محمد بن القاسم بن عبد السلام بن محمد العنسي

حدث عن ابي يعقوب الاذرعي . حدثنا عنه ابو محمد عبد العزيز بن احمد [الكتاني] (١)

أحمد بن عمرو بن معاذ العنسي

[روى عن] أبيه . [وروى عنه ابنه] عبد الله بن احمد (٢)

عبد الله بن أحمد بن عمرو بن معاذ العنسي

ابو الحسين . يروي عن ابي الميمون بن راشد ، وابي الحسن بن حذلم ، وابي القاسم بن ابي العقب ، وابي يعقوب الاذرعي وغيرهم ، توفي بداريا في شوال سنة اربع عشرة وأربعمائة (٣) .

هذا ما أردنا تصحيحه الآن ، ولعلنا نعود الى تصحيح ما ورد في هذا الكتاب في فرصة أخرى .

محمد أحمد دهمان

---

(١) هذه ترجمة مستقلة وقد اثبت راجع تاريخ ابن عساكر اختصار بدران (١٧١/٥) ترجمة مستقلة مع تصحيف فيها .

(٢) وهذه ترجمة مستقلة أيضاً راجع للمصدر المذكور (٤١٨/١) ترجمة مستقلة مع تصحيف فيها .

(٣) ترجمة ثالثة مستقلة . المصدر السابق (٢٨٥/٧) تحقيق الاستاذ احمد عبيد .

المدارس في الجمهورية السورية

بلغ مجموع المدارس الرسمية والأهلية والأجنبية في عام ١٩٥١ – ١٩٥٢ ما يأتي:

١ — المدارس الابتدائية : المجموع ٢١٨٤ مدرسة منها ١٥٢٤ مدرسة للذكور و ٣١٣ مدرسة للاناث و ١٣ مدرسة مختلطة (رسمية) ، و ٩٨ مدرسة للذكور و ٤٦ مدرسة للاناث و ١٥٢ مدرسة مختلطة (أهلية) و ١٣ مدرسة للذكور و ١٠ مدارس للاناث و ١٥ مدرسة مختلطة (أجنبية) .

٢ — المدارس المتوسطة والاعدادية : المجموع ١٦٤ مدرسة . منها ٣٥ مدرسة للذكور و ٢٠ مدرسة للاناث ومدرستان مختلطتان (رسميتان) و ٦٥ مدرسة للذكور و ١٩ مدرسة للاناث و ٥ مدارس مختلطة (أهليــة) و ٧ مدارس للذكور و ٩ مدارس للاناث ومدرستان (اجنبيتان) .

٣ — المدارس المهنية تدخل فيها المدارس الزراعية : المجموع ١٣ منها ١٠ مدارس للذكور ومدرسة واحدة للاناث (رسمية) ومدرسة واحدة للذكور ومدرسة واحدة للاناث (أهلية) .

٤ — مجموع مدارس دار المعلمين عشر : منها ٦ للذكور و ٤ للاناث (رسمية) .

وقد بلغ مجموع موازنة وزارة المعارف لعام ١٩٥١ – ١٩٥٢ حوالي ٤٩ مليون و ٧٦٩ ليرة سورية وبذلك تكون النسبة المئوية لهذه الموازنة بالنسبة لمجموع موازنة الدولة ١٨و٧٨ .

فهرس الجزء الثاني من المجلد الثامن والعشرين

صفحة

التعريف والنقد

آراء وأنباء



Bibliotheca Alexandrina
0652751